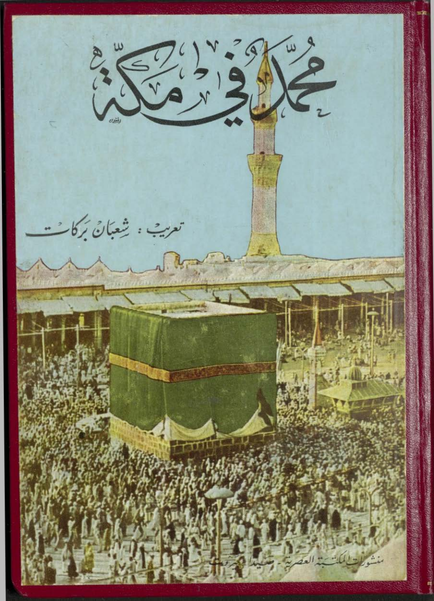

محمد في مكة
تعريب : شعبان بركات
منشورات المكتبة العصرية - صيدا بيروت

مُحَمَّد في مَكّة

تأليف : مونتجومري وات

تعريب : شعبان بركات

منشورات المكتبة العصرية - صيدا - بيروت

المطبعة العصرية للطباعة والنشر
صيدا - لبنان - تلفون ٧٢٠٦٢٤

فاتحة

لا يليق السماح بنشر هذا الكتاب دون أن أشيد بذكرى استاذي وصديقي ريشار بل المعيد للغة العربية في أدنبرج . فهو أول من قاد دراستي للاسلام ، كما أنه، في السنوات الأخيرة ، تكرم على بوقته ومعرفته وحكمته حول بعض المسائل . وقام بقراءة مسودات هذا الكتاب .

وإذا كان لم يوافقني على جميع نظرياتي فقد امدني ببعض توجيهاته ، كما سمح لي بالاطلاع على بعض كتاباته المخطوطة .

وقد اعتمدت في معظم استشهاداتي بالقرآن على ترجمته وذلك باذن كريم من الناشرين السادة ت . و . ت كلارك .

وكما يجب علي أن أشكر ه . أ . ر . جب على مساعدته الكريمة . كما أنني مدين لزملائي في أدنبرج ولا سيما الدكتور كاشيا في وضع الدليل وللسيد ج . ر ولش في تعليقاته المفيدة ومراجعه .

ادنبرج

أيلول ١٩٥٢

مدخل

من شان هذا الكتاب أن يثير انتباه ثلاث فئات من القراء على الأقل :
فئة الذين يهمهم الموضوع كمؤرخين، وفئة الذين يتناولونه أولا كمسلمين
أو كمسيحيين . وقد وضع الكتاب قبل كل شيء لفئة المؤرخين . أما فيما
يتعلق بالمسائل الفقهية التي اثيرت بين المسيحية والاسلام فقد جهدت في
اتخاذ موقف محايد منها . وهكذا بصدد معرفة ما إذا كان القرآن كلام الله
أو ليس كلامه امتنعت عن استعمال تعبير مثل « قال تعالى » أو « قال
محمد » في كل مرة استشهد فيها بالقرآن ، بل أقول بكل بساطة « يقول
القرآن » وليس هذا يعني انني أرى من الضروري اتخاذ وجهة نظر مادية
لضمان حياد المؤرخ بل أنا ، على العكس ، اعبر كمؤمن موحد صريح .

ولا شك ان هذا الموقف الأكاديمي ناقص نوعا ما . إذ يجب على
المسيحيين ، تحديد موقفهم من محمد بقدر اتصال المسيحية بالاسلام ،
ويجب ان يقوم هذا الموقف على أسس فقهية . وأنا اعترف بما في كتابي من
نقص بهذا الصدد ، وان كنت أرى أنه يقدم للمسيحيين المواد التاريخية
اللازمة لتكوين رأي فقهي .

وأقول لقرائي المسلمين شيئاً مماثلا. فقد الزمت نفسي ، رغم اخلاصي لمعطيات العلم التاريخي المكرس في الغرب ، ان لا أقول اي شيء يمكن ان يتعارض مع معتقدات الاسلام الأساسية . ولا حاجة بنا إلى القول بوجود هوة فاصلة بين العلم الغربي والعقيدة الاسلامية. وإذا حدث أن كانت بعض آراء العلماء الغربيين غير معقولة عند المسلمين ، فذلك لأن العلماء الغربيين لم يكونوا دائماً مخلصين لمبادئهم العلمية وأن آراءهم يجب اعادة النظر فيها من وجهة النظر التاريخية الدقيقة .

وهناك من ناحية أخرى مكان لصياغة جديدة لعقيدة الاسلام دون أي تغيير في العقائد الاساسية .

وقد بدت الحاجة لسيرة مجددة لحياة محمد منذ زمن إلى الذين يدرسون الاسلام ولا سيما أولئك الذين يهتمون بالناحية التاريخية من الموضوع . وليس ذلك بسبب اكتشاف وثائق جديدة .

وإن كان ليون كايتاني ، مثلا ، كتب عن محمد في كتابه «حوليات الاسلام» (١٩٠٥) دون ان يستطيع الرجوع إلى سير اوائل المسلمين عند ابن سعد – بل لأن اهتمام المؤرخين ومناهجهم قد تغيرت خلال النصف القرن الأخير ولا سيما لأنهم ادركوا بصورة أفضل العوامل المادية الكامنة في التاريخ . يعني ذلك ان مؤرخي منتصف القرن العشرين يهتمون اكثر بتحديد أثر كثير من المسائل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية دون ان يهملوا الجانب الديني او يقللوا من شانه ، حتى ان الذين (من امثالي) يرفضون القول بأن مثل هذه العوامل يمكنها ان تحدد بصورة مطلقة

سير الأمور ، يجب عليهم مع ذلك ان يعترفوا باهميتها. وليست ميزة هذه السيرة لمحمد ان تستعرض المصادر المعروضة عليها بقدر اهتمامها بهذه العوامل المادية ومحاولتها ان تقدم جواباً على العديد من الأسئلة التي قلما اثيرت في الماضي .

٢ ـ كلمة حول المصادر

المصادر الرئيسية لحياة محمد هي اولا القرآن او مجموعة السور التي اوحى الله بها اليه (كما كان يعتقد) ثم المؤلفات التاريخية لكتاب القرن الثالث والرابع الهجريين . ومن بين مؤلفات النوع الثاني :

١ ـ سيرة ابن هشام (مات ٨٣٣ م / ٢١٨ هـ)

٢ ـ تاريخ الطبري (مات ٩٨٢ / ٣١٠ هـ) القسم الخاص بحياة محمد (القسم ١ ، ج ٢ ـ ٤ م)

٣ ـ المغازي للواقدي (مات ٨٢٢ م / ٢٠٧ هـ)

٤ ـ طبقات ابن سعد (مات ٨٤٥ م ٢٣٠ هـ) وكان كاتب الواقدي .

ويجب ان نشير ايضاً إلى كتب الحديث كـ « صحيح البخاري » و « مسند احمد بن حنبل » فهما يحتويان على كثير من المواد المهمة بالنسة للمؤرخ وان كان هدف الجامعين تشريعياً . وتحتوي آخر الكتب عن سير صحابة محمد ـ اسد الغابة لابن الأثير (مات ١٢٣٤ م / ٦٣١ هـ) و « الاصابة لابن‌حجر (مات ١٤٤٧ م / ٨٥١ هـ) ـ على معطيات متممة وهناك كتاب سيرة مسلمون متاخرون، ولكن لايبدو ان احدهم استعمل

مصادر جديدة مهمة غير المصادر التي استعملها الكتاب المذكورون آنفاً

وتعتمد هذه المصادر على مصادر مكتوبة اقدم منها ، إذ أن سيرة ابن هشام في الحقيقة ليست سوى تكرار لسيرة ابن اسحق (مات ٧٦٨ م / ١٥١ هـ) وكان لابن اسحق نفسه سابقون ولكن مساهمته في كتابة سيرة محمد هي اعظم مساهمة ، وكان لها اعظم الأثر . فهو يجمع كل المعلومات الموجودة ، ومن ضمنها الاشعار القديمة وقد عرف كيف يختار معلوماته ويؤلف مادته في سرد محكم . وهو يشير عادة إلى مراجعه حسب الطريقة الإسلامية . ويضيف ابن هشام عدداً قليلا من التوضيحات . ويوجد بعض المقاطع الناقصة في رواية في مكان آخر ، ولكننا لا نميز بوضوح ما إذا كان مسؤولاً عن هذا النقص .

ويذكر الطبري ابن اسحق ايضاً ، ولكن ليس بالقدر الذي يذكره فيـــه ابن هشام ، اهميته في انه لا يحاول ان يؤلف رواية متتابعة بل يذكر الروايات المختلفة ، فهو يملك عدداً كبيراً من المصادر المختلفة عن المسلم الذكر الأول بعد محمد ، إذ كان البعض يقول انه علي والآخر زيد بن حارثة وآخرون يقولون هو ابو بكر ،وابن اسحق يقول بانه علي. ومن بين مصادره العامة يملك الطبري مصدراً مباشراً هو عروة بن الزبير (مات ٧١٢ م / ٩٤ هـ) الذي خلف لنا مواد مكتوبة لم تحفظ في مكان آخر .

وتمثل مغازي الواقدي وسيلة قيمة للتثبت من ابن اسحق لانها تعتمد على سلسلة من المصادر المستقلة . وهي عادة اكثر اطلاعاً ولكنها لا تتحدث إلا عن الفترة المدنية . ويمدنا كاتبه ابن سعد بروايات متعددة عن

اكثر من مسألة وإن كان يجمع كثيراً من الاخبار التي لا قيمة لها و لا نعثر الا في النادر بين سطوره على شيء يعتمد عليه. غير ان سيره عن صحابة محمد منجم من المعلومات المفيدة لمعرفة بيئه حياة محمد .

اما سير الاشخاص الذين عرفوا محمدا ، والتي جمعها ابن الاثير وابن حجر فهي أوسع وتذكر عدة وقائع لا نجدها عند ابن سعد ـ غـــير ان القليل منها يتعلق بحياة محمد نفسه .

وتحتوي الأحاديث التي جمعها مسلمون كالبخاري وغيره في اخبارها التاريخية على بعض الروايات عن استعداد ابن هشام والطبري .

ولقد كتب العلماء الغربيون كثيراً لنقد هــذه المصادر ولا سيما الأحاديث . وتؤلف ملاحظات السير وليم موير في كتابه عن حياة محمد مدخلا مفيداً .

أما اوسع الدراسات فهي دراسة كايتاني في كتابه « حوليات الاسلام » وليس من الصعب تصحيح مبالغاته في الشك . وقد أدت دراسات هنري لامنس به إلى استبعاد اخبار الفترة المكية ، غير أن كثيراً من العلماء اتفقوا على القول بأنه مبالغ في ذلك كثيراً .

ويمكن للاحظات تيودور نولدكه في دراسة
Die Tradi tion uber das Leben Mvhammeds *(1)*

---

(١) راجع *I*slam - V , *I914* PP. *I6*0 – 70 ,
C. Becker, Prinzipielles zu Lammens Sirastudieu in *I*slam , V, *263*
réédite dans *I*slam studien , *I* , 520 - 7 de Becker
G. Levi de la vida ; art. Sîra in E.*I*.

ان تصحح ، في أكثر من مسألة ، آراء لامنس المغالية .

وتدفعنا استنتاجات ج . شاخت في كتابه « اصول التشريع الاسلامي [١] » حول الأحاديث الاسلامية إلى التمييز بين الأحاديث الرسمية والاحاديث التاريخية .

وتطبق أبحاث جولدز يهر في كتابه « دراسات محمدية [٢] » على الاحاديث الرسمية ، ويمكن ، كما يبدو ، ان يكون قد حدث في الاحاديث الرسمية اختلاق صرف للاحاديث . ويبدو في النطاق التاريخي ، ان ما يقترب من الاختلاق هي تسوية مغرضة للمعطيات [٣] ما عدا بعض الحالات النادرة كما يصرح فرانزبهل « يجب الحذر دائماً من الاحاديث حين يمكننا افتراض مصلحة خاصة معينة لكي لا تضللنا المظاهر البريئة » .

ويجب على الباحث اليوم، بعد اطلاعه على نزعات المؤرخين الاوائل ومصادرهم ، أن يكون باستطاعته أن يحسب حساب التحريفات وأن يقدم المعطيات بصورة امنية ، ويجب أن يقابـــل الاهتمام « بالتسوية المغرضة » الاعتراف بصحة المادة عامة. ولما كان عدد كبير من الاسئلة التي يهتم بها مؤرخ أواسط القرن العشرين لا يتأثر بتدخل « التلفيق المغرض »

---

(١) اكسفورد ١٩٥

(٢) راجع نولدكه ZDMG ١٨٩٨ ، ص ١٦

(٣) محمد ، ٣٧

فليس هناك من صعوبة في استخراج أجوبة على هـذه الاسئلة من المصادر .

ويجب أن نلاحظ أن من أبسط المعالم التي يبدو فيها « التلفيق المغرض » هو في نسبة دوافع للافعال الخارجية . يجب إذن أن لا ننسى التمييز بين الافعال الخارجية والدوافع المنسوبة لها . ويميل صاحب الفعل نفسه وأصدقاؤه إلى الاعتقاد باحق الدوافع بالاعجاب بينا يبذل أعداؤه جهدهم ليؤكدوا أن دوافعه كانت دنيئة ، ولا تسمح الافعال الموضوعية إلا بخلافات محدودة ، الا في بعض الحدود الضيقة جداً ، كتحديد تاريخ نسبي مثلا لحادثتين . وهكذا لا يفكر أحد بنكران أن عائشة غادرت المدينة قبيل مصرع الخليفة عثمان،أما معرفة ما إذا كانت دوافعها شريفة أم دنيئة أم لا مبالية فإن هذا موضع نقاش حاد . يستبعد المؤرخ الحديث إذن الدوافع المذكورة في مصادره ويقترح دوافعه هو على ضوء ما يعرفه عن مجموع أفعال الرجل الخارجية .

والتمييز بين الفعل والدافع مهم جداً بالنسبة للعصر اللاحق على الهجرة وإن كان يطبق على الفترة المكية والعصر الجاهلي أيضاً. فقد كان التاريخ غامضاً قبل الهجرة ومن الممكن دائماً أن تكون قد اخترعت بعض الحوادث . ويمكن أن تكون عملية الاستدلال كما يلي :

(أ) فعل (ب)، ولم تكن دوافعه (ج) و (د) التي لا يمكن أن تنسب اليه ، يجب أن يكون إذن الدافع لهذا فعل أيضاً (و) .

ولما كنت أبحث في خلفية حياة محمد وفترته المكية ، فقد تقدمت في

الفكرة القائلة بأن الاحاديث يجب أن تقبل عامة وأن تؤخذ بحذر وان تصحح بقدر الامكان في المسائل التي نشك فيها بوجود « تلفيق مغرض»، ولكن لا يجب أن ترفض رفضاً باتاً إلا حيث يقع تناقض داخلي فيها .

من الصعب مثلا القول بأن معطيات ابن سعد في الانساب اختلاق محض . فمن ذا الذي تجشم مشقة اختلاق هذا الاطار المعقد وماهي الاسباب؟

يضاف الى ذلك انه اذا كنا نحن الذين لا نهتم بالانساب نعرف عن اجدادنا حتى جيلين او ثلاثـــة فما هو المدهش في ان يعرف العرب الشغوفون بالانساب عن اجدادهم حتى ستة او ثمانية او عشرة اجيال ؟

ولقد لقي جون فان أس طفلا يعرف خمسة عشر مـــن اجداده[1] ويجعلنا ابن سعد نشعر بانه يهتم اهتماماً كبيراً بدراسة الانساب وانه مطلع على الصعوبات التي تعترض المسائل المختلف عليها . انسابه اذن تستحق الثقة حتى عصر قصي في مكة . ويجب تناول الانساب السابقة والمادة التاريخية بحذر ولسوف تعترضنا صعوبات خاصة فيما يتعلق بالمدينة بسبب بقايا نظام سيطرة الام .

وتتضمن طريقة البحث المتبعة هنا نظرة جديدة لعلاقة المادة التاريخية التقليدية بالقرآن . فقد جرت العادة بعض الوقت بالقول بأن القرآن هو

---

(١)Meet the Arab ,Londres (974 - P77)

المصدر الرئيسي لفهم الفترة المكية . ولا شك ان القرآن معاصر لتلك الفترة ولكنه متحيز، ناهيك بصعوبة تحديد التسلسل الزمني لمختلف اجزائه وما يحوم حول كثير من النتائج من شك، فهو لا يمدنا بأي شيء يمكن ان يكون لوحة كاملة لحياة محمد والمسلمين خلال الفترة المكية. وكل ما فعله كتاب السيرة الغربيون هو انهم اقروا اللوحة التي تقدمها السيرة عن الفترة المكية في خطوطها الكبرى واستعملوها اطارا لا يحتاج الا لتوشيته باكبر كمية ممكنة من مواد القرآن . وافضل طريقة هي اعتبار القرآن والاحاديث الاولى كمصادر يتم بعضهـــا الاخر في مساهمته لفهم تاريخ الفترة المشار اليها . ويطلعنا القرآن على الجانب الفكري لمجموعة من التغيرات التي حدثت في مكة وفي ضواحيها ولكن يجب الاهتمام ايضاً بالجوانب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية اذا اردنا تكوين لوحة متناسقة ، وادراك الجانب الفكري نفسه .

يمكن ان يعتبر ذلك نظرية ثورية ـ او رجعية ـ ولكننا سنرى انه ـ عمليا ـ لا ياتي بتغيير جذري ، ما عدا فترة الجاهلية . وربما بدا في بعض الاحيان انني عملياً اقل تعلقاً بالحديث من اولئك الذين هم اكثر مني شكا فيه ، ويؤدي بنا التمييز بين الافعال العامة والدوافع المنسوبة لها ورفض الاحكام على الدوافع الا متى اتفقت مع نتائج بحث مستقل للافعال ، الى رفض بعض تفاصيل الحديث كما هو الحال مثلاً في شان الهجرة الى الحبشة

وندقق هنا في الاحاديث المتعلقة بالفترة المكية من حيث المتن أو

محتوي الحديث ولن نهتم كثيراً بالاسناد او سلسلة الرواة ، وتساعدنا
دراسة الاسناد في الفترة المدنية الى تاكيد صحة الحديث وقيمته وتقدير
نزعته ولا يبدو ان دراسة الاسناد تؤدي بنا في حالة الحوادث السابقة
للهجرة الى نتائج قيمة . والمصدر الوحيد الذي يستحق الدراسة هو
عروة بن الزبير . وقد درسنا نزعاته في الملحق هـ .

الفصل الأول

البيئة العربية

يمكن الآن ، بواسطة المواد التي لدينا ، أن نخصص على الأقل كتاباً لوصف البيئة العربية لحياة محمد. ويهدف هذا الفصل إلى التنبيه على العناصر الفاصلة لفهم رسالة محمد ومنجزاته. وهـــذا الفصل مدين كثيراً لأعمال اشخاص آخرين من مستشرقين ورحالة ، ولهذا يستحيل أن نتبعه بثبت كامل للمراجع .

من السهل الحديث عن « الجزيرة العربية » ولكننا لن نتحدث في الحقيقة إلا عن جزء من « الجزيرة العربية » وهي تلك المنطقة التي تحيط بمكة والمدينة – وتدعى الحجاز بمعنى عـــام[1] . والبلاد الصحراوية المتاخمة لنجد .

---

(١) راجع نولدكه في « إسلام » صفحة ٢٠٦ رقم ١

١ - العوامل الاقتصادية

تعتبر الجزيرة العربية في نظر الغربي ، صحراء يسكنها بدو ولهذا كانت اقتصاديات الحياة في الصحراء نقطة مفيدة للانطلاق في البحث ، ولكن ، في الواقع ، لم يكن للصحراء أي تأثير فاصل في تطور التوحيد عند محمد[1] .

وهذا لا يمنع من أن يكون للصحراء دور رئيسي في ظهور الاسلام ، فلقد كانت مكة والمدينـــة جزيرتين في محيط من الصحاري تربطها علاقات اقتصادية وثيقة بالبدو ، يسكنها اناس يتحدرون من البدو تربطهم كثير من عادات أبناء البدو التي ورثوها عن أجدادهم ولهذا لا يمكننا تجنب الحديث قليلا عن الصحراء .

تقوم حياة البدو على تربية المواشي وخاصة الجمل . ونستطيع أن نتبين في صحراء الجزيرة العربية أنواعاً عديدة من البلاد يكفينا أن نذكر منها نوعين : هناك أولا المناطق التي ، وإن كانت تفتقد إلى الماء في الصيف ، يكسوها ، في الشتاء بعـــد سقوط الأمطار - في الفصل الذي يسميه العرب الربيع - نبات مخضوضر ولا سيا في الأودية التي تصبح جنات الجمال . ثم هناك المناطق التي تنمو فيهـــا باستمرار الأشجار والغابات ، تفوح منها الروائح الزكية، هذان النوعان من المناطق يفسران لنا ضرورة

---

(١) راجع هـ . أ . ر « جب » المحمدية لندن ١٩٤٩ ص ١

الحياة البدوية ، حتى إذا مـــا هطلت الأمطار أصبحت مناطق النوع الأول مراعي ممتازة للجمال . ويأتي الصيف فتيبس تلك المراعي وتزول فيضطر البدو إلى الانكفاء نحو مناطق النوع الثاني .

يعتمد البدوي في مناطق النوع الأول على الجمل سواء كان بسبب الرطوبة أم المعيشة . أما في مناطق النوع الثاني فتوجد الآبار التي تستخدم لسقاية الجمال أكثر منها لارواء البشر . ويكون الحليب في تينك المنطقتين مع التمر ــ الذي ينمو في الواحات ــ العنصر الأساسي في غذاء البدوي . فهو لا يأكل اللحم إلا نادراً ، أما الحبوب فهي ترف لا يفوز بـــه إلا الأقوياء والأغنياء .

يعتمد البدوي على أمور مقررة . فالسرقة في نظره ليست جريمة سواء كانت في السطو على واحة أم على قافلة .

ولما كان البدوي عامة محاربا ممتازاً في المناوشات التي تتطلبها عمليات الغزو ، فإن المزارعين والتجار على استعداد لأن يدفعوا له جزيـــة لحماية ديارهم ومواشيهم وحرية مرور قوافلهم . ولهذا كانت هذه الجزية بالنسبة لكثير من البدو مورداً مستمراً للرزق . ويمكن بهذه الطريقـــة للبدوي أن يستفيد من بعض منتجات مدنية الزراعة .

كانت الزراعة ، في المنطقة التي تعنينا ، مزدهرة في الواحات وبعض مناطق الجبال ، وكان المحصول الرئيسي في الغابات التمر ، بينما تحتل الحبوب مكانة هامة في الجبال كالطائف . وكانت يثرب ــ التي دعيت فيما بعد بالمدينة ــ واحة كبيرة مزدهرة في عصر محمد . وكان يسكنها

بضع مستعمرات زراعية يهودية كخيبر. بينما لم يكن يوجد زراعة في مكة – وهذا عامل مهم يجب أن لا ننساه . ويجب أن نشير – وإن كان هذا البلد لن يدخل في دراستنا – إلى أن اليمن أو العربية السعيدة كانت منطقة زراعية خصبة ظهر فيها الري منذ أقدم العهود ، ويعتقد الآن أنها الموطن الذي نزحت منه الشعوب السامية ، أو انها « المهد » أو « موطنهم الأول[1] » .

ونعثر في روايات العصر الجاهلي على آثار علاقات مع الجنوب الخصب . ولقد أثرت هذه العلاقات في الحضارة العربية أيام محمد ولكن دراسة هذا التأثير لم تؤد إلى نتائج ثابتة.

كانت مكة ، وهي موطن محمد خلال نصف قرن ، مدينة تجارية بحتة ، تقع وسط صخور جرداء. ولقد تم تطور المدينة كمركز تجاري مع وجود « حرم » أو معبد يؤمه الناس دون أن يخشوا السطو عليهم ، كما أن العوامل الجغرافية كانت مواتية لها . فقد كان موقعها على مفترق الطرق من اليمن إلى سورية ومن الحبشة إلى العراق .

كان البدو إذن يقصدون مكة للحصول على المنتوجات التي تتدفق عليها من جهات العالم الأربع ، تحملها القوافل .

ولم يكن المكيون ، في الأصل ، سوى وسطاء وبائعي مفرق ولم يكونوا مستوردين أو متعهدين يقومون بتنظيم القوافل . ولكنهم في

---

(١) راجع ج . برتون « أصل الساميين والحاميين » ص ٢٧ وما يتبعها .

نهاية القرن السادس الميلادي سيطروا على القسم الأكبر من التجارة بين اليمن وسورية . وهي طريق ، رئيسية كانت تمد الغرب بسلع الهند الثمينة وبخور جنوبي الجزيرة ، وكانت الطائف تنافس مكة في التجارة وان كانت مكة تتمتع بمركز قوي .

فلقد كانت مكة آنئذ أكثر من مركز تجاري ، كانت مركزاً مالياً . ولا يستطيع معظم العلماء أن يطمئنوا للتفاصيل اطمئنان لامنس[1] .

ولكن من الواضح أن عمليات تجارية هامة كانت تجري في مكة فقد كان زعماء المدينة في عصر محمد من رجال المال ذوي الخبرة بالربا ، الماهرين في مضارباتهم ، ينتهزون الفرصة المناسبة لاستغلال أموالهم في في عدن وغزة أو في دمشق .

ولم يمسكوا في حبالهم سكان مكة فقط بـــل زعماء القبائل المجاورة أيضاً . ولهذا لم يظهر القرآن في بيئة الصحراء بل في بيئة المال[2] .

نصل هنا إلى مسالة أخرى . هل يعنى هذا أن ظهور ديانة جديدة في الحجاز وانتشار العرب في فارس وسورية وافريقية الشمالية مرتبطان

---

(١) راجع « مكة » ص ١٣٥ – ٢٣٨ وما يتبعها .

(٢) راجع استعمال الفاظ التجارة للتعبير عن معتقدادت فقهية . ت . ت . توري . الالفاظ التجارية في القرآن ، ليدن ١٨٩٢ .

بتغير اقتصادي خطير ؟

هناك من يجيب بالاشارة إلى قحط صحراء الجزيرة العربية وان الجوع هو الذي دفع بالعرب على طرق الفتح . لندع جانباً ، موقتاً ، المسالة العامة عن التغير الاقتصادي . ويكفي أن نشير إلى أنه ليس هناك برهان وثيق على سوء الأحوال المناخية في الصحراء[1] .

فلقد كانت الحياة فيها مقبوله . ونسمع عن صحابة محمد أنهم ــ أثناء الفتوحات خارج الجزيرة ــ كانوا يعودون أدراجهم إلى حياة الصحراء التي يحبونها .

ونشعر من خلال ذلك أن البدو لم يكونوا أسوأ حالا من الماضي ، بل كانوا أفضل حالا بسبب ما يستفيدونه من ازدهار مكة المستمر . حتى إذا ما هاجروا فيما بعد ، خلال فترة الفتوحات ، خف ضغط السكان على التموين بالمواد الغذائية .

ولقد وجدت صناعات صغيرة في الحجاز ولا سيما لتلبية حاجات البدو والحضر ، وإن سمعنا عن سلع من الجلد مصدرها الطائف . ولكن هذه الصناعات ليست مهمة في كتابة سيرة محمد لنعتبرها عاملا فعالا .

---

(١) أ . ج . توينبي ، دراسة التاريخ ج ٣ ص ٤٢٩ ، ٤٤٥ ، ٤٥٣ ــ ٥٤

٢ - السياسة في مكة

كان النزاع مستمراً في المجتمع المكي التجاري من أجل السلطة .

وكان على التجمعات السياسية داخل المدينة أن تقوم بانشاء علاقات مع القبائل التي كانت القوافل المكية تتوجه اليها كما تقيم علاقات أخرى مع الدول الكبرى التي تحمل إلى أسواقها سلعها وهذا موضوع معقد ولكنه من الضروري معالجته في نقاطه الرئيسية لأن محمداً كان منذ البداية رجل دولة .

أ ـ التجمعات السياسية عند القرشيين :

تمدنا المصادر العربية بمعلومات وافرة حول ضروب النزاع والتحالف العائلية والقبلية عند القرشيين .

ولقد ألح بعض النقاد الغربيين كثيراً على الجانب الخرافي لهذه الروايات وحصروا الموضوع في النقاش حول ما إذا كانت الشخصيات حقيقية أم أنها تشخيص للقبائل . ولربما كانت هذه الروايات تحتوي على وقائع تاريخية أكثر مما يسمح به النقد الدقيق . ولكنه ليس من شاننا التعرض لهذه المشكلة الصعبة ، لأن ذلك لن ينفع إلا في تحويل الانظار عن الواقع المهم وهو أن هذه الروايات تدلنا على نظرة القرشيين لعلاقاتهم العائلية والقبلية في عصر محمد . ويمكن أن تكون بعض النقاط قد عدلت

بتأثير الحوادث اللاحقة كالعداوة مثلا بين العباسيين والأمويين إذ يمكن أن تكون قد أثرت في الروايات حول العلاقات بين بني هاشم وبني أمية، ولكنه، على العموم، يمكن قبول هذه الروايات على أنها جديرة بالثقة.

يرجع معبد مكة إلى عهد بعيد في القدم وبعد أن قام على رعايته، مدة طويلة من الزمن، قبيلة جرهم انتقل إلى رعاية خزاعة الذين تحالفوا مع بني بكر من عبد مناة بن كنانه، وان كانت بعض الامتيازات، ذات الطابع الديني، - كالاجازة - قد ظلت في أيدي عائلات قديمة كبني صوفة. وتنازلت خزاعة وحلفاؤها عن السلطة لقصي الذي استمد قوته من تحالفه مع بعض أعضاء كنانة وقضاعة وألف بين مختلف فئات قريش التي ظلت حتى ذلك الحين متفرقة لا حول لها ولا قوة .

ويجب اعتبار قصي مؤسس مدينة مكة التي أصبحت أكثر من تجمع الخيم حول المعبد[1] .

وربما يعود الفضل إلى قصي في التمييز بين قريش البطاح - الذين كانوا يسكنون في جوار الكعبة - وقريش الظواهر - الذين كانوا يسكنون خارج الكعبة. ولا شك أن هذا التمييز قد وجد، ومن الطبيعي الاعتقاد بانه كان بارادة الرجل الذي كان يوزع الأراضي ويمنحها لبناء مكة . ولهذا نجد كل أحفاد قصي والذين ينتسبون لجده الاول كعب في

---

(١) راجع ابن هشام ٧٣ - ٨٠

عداد قريش البطاح (نجد التفاصيل المقتبسة عن قائمتين من المسعودي[1]) في الثبت ص ٢٦) .

ونسمع عند قريشي البطاح عن التقسيمات اللاحقة . فقد خلف عبد الدار قصياً . ثم نافست عائلته بقيادة حفيده عائلة عبد مناف التي يمثلها ابنها عبد شمس . فانقسمت مكة إلى فريقين متعادين .

كان عبد مناف يعتمد على أسد وزهره وتيم والحارث بن فهد بينا كان عبد الدار يعتمد على مخزوم وسهم وجماح وعدي . بينا وقف عامر بن لؤي ومحارب ، من قريش الظواهر ، على الحياد وقدعرف الفريقان فيما بعد باسم « المطيبين » و « الاحلاف » . ومن المفيد أن نلاحظ أن الاحفاد لا يتبعون بدقة الاتجاهات العائلية. فقد انقسمت عائلة قصي، عبد الدار إلى عبد عزة وعبد مناف ، وكذلك انقسمت مرة إلى مخزوم . (يجب التنبيه إلى ذلك بعكس الفكرة القائلة بأن الانساب هي تقنين لحوادث لاحقة) وكاد النزاع يؤدي إلى اصطدام مسلح ثم انتهى بحل وسط فاز بموجبه عبد الدار ببعض الامتيازات الشكلية بينا استولى عبد مناف على السلطة . وقد أدرك الفريقان ما يربحانه من الاتفاق وما يخسرانه من الاختلاف .

ويبدو أن « حلف الفضول » هو فرع لاحق للمطيبين وليس جامعة

---

(١) راجع مروج الذهب ج ٣ ص ١١٩ وما يتبعها ، وج ٤ ص ١٢١ راجع ابن زهير ذكره وستنقلد « مكة » ج ٢ ص ٣٣٩ وما يتبعها.

ضد الظلم كما اعتقد كيتاني[1].

ويقول المسعودي[2] أن سبب هذا الحلف هو مساعدة رجل يمني على استيفاء دين من العاص بن وائل من بني سهم.

وكان المتحالفون ينتمون لقبائل هاشم والمطلب وسعد وزهرة وتيم وربما الحارث بن فهر[3] أي للمطيبين بـــدون بني شمس وبني نوفل. ولقد نشب النزاع بين نوفل وعبد المطلب بن هاشم وانضم المطلب فيه إلى عبد المطلب بن هاشم[4]. وهكذا أمسى عبد شمس ونوفل قويين فتخليا عن الحلف بينما هاشم والمطلب وهما ضعيفان ظـــلا إلى جانب الحلف. وتؤيد رواية ابن اسحاق عن الالتجاء لآخر مرة لحلف الفضول هـــذا التأويل، فلقد اختلف حاكم المدينة الوليد، ابن أخ معاوية، مع الحسين ابن علي حول بعض الاملاك وحل النزاع لمصلحته. فاحتج الحسين بن علي وقال بانه سيلجأ إلى حلف الفضول. فوقف إلى جانبه عبد الله بن الزبير، والمسور وعبد الرحمن بن عثمان.

وقد تراجع الوليد أمام هذا التهديد باعادة الحلف القديم. ونستنتج من الحديث الذي جرى فيما بعد بين الخليفة عبد الملك (من بني أمية أو عبد شمس) وأحد أبناء بني نوفل أن هذه القبائل قد خرجت

---

(١) حوليات الاسلام ج ١ ص ١٦٤ – ١٦٦

(٢) مروج ج ٤ ص ١٢٣ وما يتبعها.

(٣) ابن هشام ٨٥ – ٨٧

(٤) الطبري ص ١٠٨٤ وما يتبعها.

مبكرا من الحلف إذا افترضنا أنها انضمت اليه[1] .

ويبدو أن تغيرات سياسية قد حدثت اثناء قيام محمد بإداء رسالته . وليس من السهل القول إلى أي حد كانت هذه التغييرات بعيدة عن ظهور الاسلام أم أنها كانت نتيجة له . ويبدو لي الوضع كما يلي :

الفئه أ	الفئه ب	الفئه ج
هاشم	عبد شمس	مخزوم
المطلب	–	شمس
زهرة	نوفل	جمح
تيم	اسد	عبد الدار
الحارث بن فهر		
عدي	عامر	

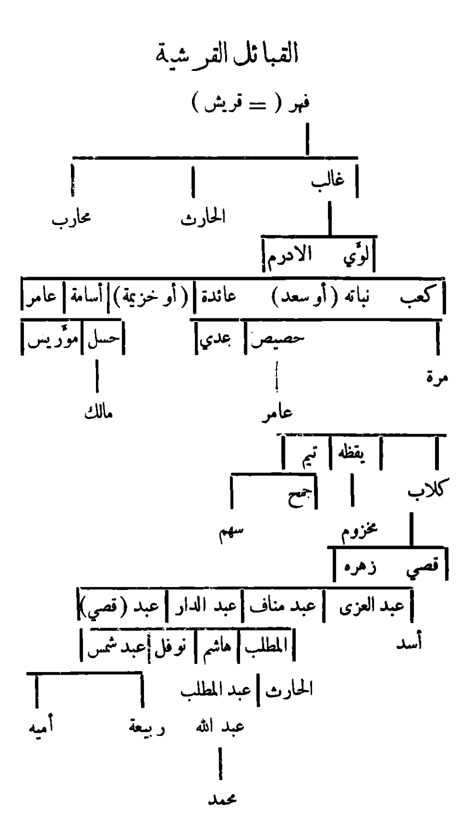
تمثل الفئه أ حلف الفضول القديم بعد أن خرج منه أسد وانضم إليه عدي ، وأن التغير من النوع الثاني ، له صلة نوعاً ما باسلام عمر بن الخطاب ولكن يبدو أنه كان نتيجة لتفاهم تم بين عبد شمس والفئه ج منذ الزمن الذي قام فيه النزاع بين عدي و عبد شمس[2] .

---

(١) ابن هشام ٨٦

(٢) الأزرقي ذكره وستنفلد ، مكة ، ج ١ ص ٧٢ ، وما يتبعها .

القبائل القرشية



وكانت الفئتان ب و ج تعملان سوية لأسباب عديدة . ويبدو ان عبد شمس كان على صلة بالفئة ج بسبب المصالح التجارية المشتركة . وكانت الفئة ج تمثل الأحلاف القديمة بعد خروج عدي . والدليل الرئيسي على القول بمثل هذا الانقسام في القبائل هو ما يلي :

١ ــ كان القادة الرئيسيون من الجانب المكي في معركة بدر من فئتي ب و ج ، يستثنى من ذلك العباس (هاشم) . وأمره يدعو إلى الشك إذ ربما أضيف أسمه فيما بعد لتمجيد أحفاده . ويروى أن أفراد قبيلة طالب بن أبي طالب قد انسحبوا من المعركة . ومن جهة ثانية فإن زهرة وعدي لم يقدما أي عون للمكيين كما أن الممثلين الآخرين للفئة (أ) كانوا قليلين .

٢ ــ ان الذين قضوا على مقاطعة بني هاشم[١] كانوا من بني عامر ونوفل واسد ، كما يذكر اسم مخزومي، ولكن من المفترض أنه يعمل ضد أكثرية قبيلته لان أمه تنتمي لبني هاشم .

٣ ــ ان الذين استنجد بهم محمد بعد عودته من الطائف كانوا من بني زهرة وعامر ونوفل ، ولم يكن واحد منهم من الفئة ج .

٤ ــ المسلمون الاوائل الذين لم يهاجروا الى الحبشة كانوا من بني هاشم والمطلب وزهرة وتيم وعدي أو من أحلافهم ما عدا حالتين . وهذا

---

(١) راجع V , 3 b

له مغزاه وان كان تفسيره غير أكيد تماماً[١] .

ب ـ الشوءون الادارية في مكة

لم يكن يوجد في مكة سوى مجلس شيوخ يسمى الملأ . وكان عبارة عن مجلس من زعماء القبائل المختلفة . وكان مجلساً استشارياً ولم يكن له أية سلطة تنفيذية خاصة . فكانت كل قبيلة مستقلة نظرياً تتمتع بحرية مطلقة في التصرف، وكانت المقررات الوحيدة التي يؤخذ بها هي المقررات التي تتخذ بالاجماع . كانت هناك وسائل طبعاً للضغط على الأقليات المعارضة . ومقاطعة القبائل لبني هاشم والمطلب مثال على الطريقة التي كانت تستخدم بهذا الصدد في الميدان الاقتصادي والاجتماعي .

يعتمد قسم كبير من نفوذ مكة على كفاءة زعمائها في تكوين فكر مشترك ووضع حد للخصومات الصغيرة من أجل الخير المشترك .

مثال ذلك الخلاف بين الأحلاف والمطيبين كما أن تنظيم المدينة استعداداً للحرب بعد الاندحار في معركة بدر مثال آخر على ذلك . كما كان يعقد ، إلى جانب هذا المجلس المركزي ، مجالس خاصة للقبائل عند الحاجة لمناقشة موضوع ما. وهكذا دعا أبو طالب بني هاشم والمطلب للاجتماع لحماية محمد .

---

(١) راجع ٧ . 2b

وتشير المصادر إلى بعض الوظائف والمراكز التقليدية فكان « النسيء » و « السقاية » و « الرفادة » و « اللواء » . وهذا يكاد يشبه الادارة البلدية كما نفهمها اليوم أو كما كان يفهمها اليونان والرومان . وهذه الوظائف هي امتيازات يتيح بعضها كسب الأموال ، وكان إلى جانب السقاية رسم للسماح بدخول الحجاج إلى بئر زمزم[1] كما نسمع عن مختلف الضرائب التي تفرض على الحجاج والتجار ، ولكن لا نعرف على التأكيد كيف كانت تجمع تلك الضرائب .

وكان تأثير الانسان في الشؤون العامة يتعلق ، في مكة ، بأمرين ، بقبيلته وصفاته الشخصية . كما أن سلطة القبيلة تتعلق بازدهارها ، وان كان الازدهار في مجتمع تجاري غير مستقر يتبدل حسب اتساع أعمال الفرد والقبيلة ونجاحها .

ويمكن للوراثة والعلاقات أن تدفع بالانسان ، ولكن تأثيره في نهاية الامر يتعلق أولا بصفاته الشخصية ومقدرته التجارية والمالية ، وبراعته في إقامة العلاقات مع القبائل الاخرى وممثلي السلطات العليا ، وقدرته في اقناع عشرائه في القبيلة على الانضمام لقيادته . ولم تكن سيطرة أبي سفيان على السياسة المكية ، عند ظهور محمد ، نتيجة لوظيفة يمارسها بل كانت بسبب أهمية ازدهار شؤون قبائله ، عبد شمس أو أمية .

---

(١) راجع لامنس مكة ص ٦٥

ولما يتمتع بـــه من صفات ، كما أن القبيلة الاخرى التي كانت تتولى الزعامة في هـــذا الزمن كانت قبيلـــة مخزوم . وكان أشهر رجالها الوليد بن المغيرة وأبا جهل وكانا يحتلان مكانة مرموقة في إدارة شؤون المدينة .

وربما اغرانا ذلك بمقارنة مكانة أبي سفيان في مكة ، بمكانة بريكليس في أثينا . كانت الديمقراطية العربية أقل في المساواة من ديمقراطية أثينا. وكان لكل فرد من أفراد القبيلة في مكة قيمته كفرد فقط، ولكن العرب اهتدوا إلى الطريقة لتعيين زعيم القبيلة الذي يحضر اجتماعات الملأ .

وكان الملأ في مكة مجلساً حكيماً مسؤولا أكثر من مجلس الاكليزيا في أثينا . وكانت بهذا قراراته تعتمد على ميزات حقيقية للاشخاص وليس على بلاغة مصطفه ، يمكنها أن تظهر الباطل في صورة الحق. ومن جهة ثانية فيما كان اليونانيون يقدمون المبادىء الاخلاقية ويقومون بتكريم الشخص لامانته واستقامته فإن المكيون كانوا يفضلون أن يكون الانسان ذا تفكير عملي قبل كل شيء وأن يحسن إدارة الامور .

ج ـ القرشيون والقبائل العربية

النبل والفضل عند عرب الصحراء يعتمدان على القوة الحربية . ولهذا كانت الزعامة بين القبائل من حظ الذين يستطيعون حماية رعاياهم

ويثارون للاهانة أو القتل ، ثم أصبح القرشيون يذكرون على أنهم أول العرب ولهذا لا يمكن للخلفاء أن يُنتخبوا الامن بينهم ، ولربما نسب الرواة للقرشيين مكانة في السنوات العشر السابقة على الهجرة لم تظهر إلا فيما بعد . وعلى كل حال ، وان كان ذلك لا يخلو من المبالغة ، فإنه من الثابت أن القرشيين قد اعترف بافضليتهم على سائر القبائل في غربي الجزيرة ووسطها الغربي ، أي على كل القبائل التي تربطهم بها علاقات وثيقة ، فعلام كانت تقوم هذه الافضلية ؟

لم يستطع « لامنس » أن يتقدم بقضيته حول أفضلية قريش القائمة على وجود جيش من المرتزقة العبيد السود إلا بقسر الشواهد للتدليل على ذلك. وساشير في الملحق(أ) إلى الاسباب التي تجعل هذه النظرية لا أساس لها . ولا شك أن القرشيين كانوا يملكون العديد من الرقيق الاسود ويستخدمون بعضهم للقتال إذا سنحت الفرصة ـ ولكنه لا شك أيضاً في أنهم استقدموا إلى مكة العديد من عرب القبائل الاخرى كحلفاء، فعمل بعضهم في التجارة والبعض الآخر كصعاليك . ولا شك أيضاً أن التجار الموسرين ، أيام معركة بدر ، لم يظهروا بين القرشيين استعداداً للحملات العسكرية ، ولكن هذا لا يعني أنهم أصبحوا جبناء بل كانت لهم مكانتهم في القتال ، ولقد كان سلوكهم مشرفاً بين صفوف المسلمين في معركة بدر مع افتراضنا ما في الحديث عن مآتي علي وحمزة من مبالغة وان كان الانصار أفضل المحاربين . بالرغم من كل ذلك فإنه من الواضح أن أفضلية القرشيين لا تقوم على مآتيهم الحربية كافراد .

ان سر مكانتهم يقوم على القوة العسكرية التي يمكنهم تجنيدها في وجه أي عدو . ولم تكن تلك قوتهم الشخصية بل قوة حلفهم. ولقد أقاموا هذا الحلف على أعمالهم التجارية، إذ كانت القوافل المرسلة الى اليمن وسوريا وغيرهما من البلدان تتطلب خدمات عدد كبير من البدو الذين يدلون على الطريق ويرافقون القافلة ويقومون برعاية الجمال . فكانوا يدفعون لشيخ القبيلة حتى يمروا في أرضه بسلام ويحصلوا على الماء والقوت . وهكذا كانت القبائل البدوية تشترك في تجارة مكة وتعرف من أن تؤكل الكتف .

وكان ازدهار مكة ازدهار هذه القبائل . كما أن كل خسارة تلحق بمكة انما تلحق بها .

ولقد ازداد هذا الشعور بالتضامن مع مكة بواسطه روابط النسب التي تجمع بين زعماء مكة ومختلف القبائل ، وبالمساهمة في « الشركات المغفلة » في مكة .

صحيح اذن ان المكيين كانوا يدفعون أجوراً للذين يحاربون من أجلهم ، ولكن هؤلاء المحاربين لم يكونوا مرتزقة ، ولا يمكن مقارنتهم بأي شكل من الاشكال بالحرس السويسري و بالفرقة الاجنبية. اذ كانوا جميعاً عرباً أحراراً يعقدون مع القرشيين محالفات واتفاقات على قدم

المساواة . وكان زعماء الاحابيش واضحين تجاه المكيين[1] .

وكان البراد ، من بني بكر بن عبد مناة بن كنانة ، حين قام بالهجوم على قافلة[2] ـ ذلك الحادث الذي سبب حرب الفجار ـ يعلم بأن هـــذا الهجوم يتفق وسياسة مكة وان المكيين سوف يقفون إلى جانبه ، ولكن هذا العمل كان له أهداف شخصية ولم يكن نتيجة للتبعية إلى مكة .

وكان المال ، في دعمه لمثل هذا الحلف ، يلعب دوراً مهماً . ولكنه لم يكن كافياً لوحده . إذ أنه لا يمكن كسب رجال ذي طباع ابية عنيدة إلا بكثير اللباقة . هذه البراعة الحذرة الصبورة، أي حلم القرشيين، هي التي مكنتهم من المحافظة على حلفهم .

هذه الحكمة السياسية حيث يتلالأ حلم القرشيين ، هي التي ستضمن لسنوات عديدة سيطرة مكة في الجاهلية على جيرانها من البدو[3] ،

د ـ السياسة الخارجية في مكة

كانت مكة تقع ضمن دائرة مصالح دولتين كبيرتين : الأمبراطورية البيزنطية وفارس ، ودولة أقل شأناً منها هي مملكة الحبشة . وكانت الأسباب التجارية هي التي توجه أنظار الأمبراطورتـــين نحو شبه

(١) راجع الملحق أ المقاطع أ . د . هـ .
(٢) راجع ابن هشام ١١٧
(٣) لامنس ، مكة ، ٨١ ـ ١٧٧

الجزيرة العربية .

كان البيزنطيون يبحثون عن أي نوع من أنواع سلع الرفاهية في الشرق ، بينما كانت فارس على جميع الطرق التجارية - طرق الصين والهند البرية (ماعدا الطريق المار بشمالي بحر القرم والطرق البحرية نحو الهند وسيلان بواسطة الخليج الفارسي ، فكانت فارس تفرض الضرائب المرتفعة لمرور الحرير والتوابل أيام السلم بينما كان ينقطع مرورها أيام الحرب ، فلا يبقى أمامهم سوى الطريق الذي يجتاز غربي الجزيرة متجها نحو سورية (التي كانت طريق البخور القادم من جنوبي الجزيرة) وطريق البحر الأحمر . ولكن هذه الطريق - لأسباب غير واضحة - لم تكن مستعملة[1] .

ولقد اهتم جوستينان، الذي أشرف على سياسة بيزنطية أيام جوستين من ٥١٨ - ٥٢٧ م ثم أصبح أمبراطوراً حتى ٥٦٥ م ، باستعادة الممتلكات الرومانية في المغرب ، واتبع سياسة تفاهم مع فارس حملته على دفع اتاوة سنوية ليضمن السلام . وجعل من الأمير الغساني على حدود سورية والياً للامبراطورية مهمته المحافظة على النظام بين القبائل العربية الضاربة على التخوم ونشر النفوذ الروماني حيثما أمكن ذلك وشجع بث المسيحية كوسيلة للتوحيد وبعث الصبغة الرومانية .

---

(١) راجع أيضا ج . ف . حوراني برنستون ١٩٥١ ، ص ٣٠ وما يليها .
Arab seafaring in the Indian Ocean

وهكذا اتيحت له الفرصة للاتفاق مع الحبشة . ويروي ابن اسحق[1] كيف فر رجل يدعى دوس ذو ثعلبان ، أيام احتضار مملكة الجنوب العربي ، من ذي نواس ولجأ إلى قيصر الذي ، بدلا من مساعدته مباشرة ، حمله رسالة إلى ملك الحبشة . ويدل هذا على نظرة العرب إلى العلاقات بين البيزنطيين والأحباش ، ولا شك أن جوستنيان وافق على اجتياح اليمن والجنوب العربي على يد الأحباش نحو سنة ٥٢٥ م وكان بالرغم من ارثوذكسيته يفضل عقيدة الطبيعة الواحدة على العقيدة اليهودية والنسطورية ، وهما على علاقة وثيقة بفارس[2] .

وتبدلت العلاقات بين الأمبراطوريتين بعد وفاة جوستنيان ودخل النزاع الطويل بينهما في مرحلته النهائية ، فطرد الفرس نحو سنة ٥٧٠ م أو ٥٧٥ م الاحباش من الجزيرة العربيـــة وأقاموا فيها إدارة مواليـــة لفارس وإن كانت لا تخضع لمراقبة مباشرة من العاصمة .

ولقد نهض الفرس ، بواسطة تدخل الأمراء اللخميين في الحيرة (وكان دورهم مع الفرس يشبه دور الغساسنة مع البيزنطيين) ، للاستيلاء على الطريق التجاري الداخلي من اليمن إلى فارس . وكان سبب حرب الفجار وحرب ذي قار القوافل الفارسية المسافرة من الحيرة إلى اليمن .

وكانت تحمل الطيب وغيره من المنتوجات أكثر مما تحمل من واردات

---

(١) ر جع ابن هشام ٢٥

(٢) راجع فازيليف « جوستين الاول » الولايات المتحدة ١٩٥٠ ص ٢٨٣ – ١٩٩ .

الهنـــد . وان استمر كثير من القوافـــل في اتخاذ طريق الساحل الغربي .

يدلنا على ذلك ازدهاد مكة المستمر في ذلك الوقت . وهكذا لم يكن الفرس من القوة بحيث يسيطرون على هذه الطريق المتجهة نحو الغرب .

ما هي مكانة مكة في هذا النضال بين الجبابرة ؟ وما هو الموقف الذي كان عليها ان تتخذه ؟

يبدو أنه كان هناك تقليد بالتفاهم مع بيزنطية. ويلاحظ ابن قتيبة ملاحظة مدهشة وهي ان «قيصر» ساعد قصياً ضد خزاعة[1] إذا كان ذلك يعني أن قصيا تلقى معونة من الغساسنة أو أي حلف آخر لروما فإن هذا صحيح تماماً . إذ لا شك أن قصيا كان متصلا ببني عذره ، وهي قبيلة مسيحية تقيم بالقرب من الحدود السورية خاضعة للنفوذ البيزنطي ، ولا شك أن استيلاء قصي على مكة ارتبط بنمو التجارة بين مكة وسورية ويبدو أن الطريق من اليمن إلى مكة ظلت فترة ، بعد وفاة قصي ، بايدي اليمنيين ، فحمل تاجر يمني السلع إلى مكة أثناء انشاء حلف الفضول (نحو ٥٨٠ م) فإذا كانت مكة يهمها نمو التجارة مع الشمال فإنه من الضروري ان تكون على علاقات طيبة مع البيزنطيين واحلافهم .

وكان على اجتياح اليمن على يد الأحباش ان يمهد الطريق أمام المكيين بسبب العلاقات الطيبة بين البيزنطيين والأحباش ، ولا شك ان

---

(١) راجع معارف ٣١٣، (أسفل الصفحة) ولامنس « مكة » ص ٢٦٩

المكيين قد نموا تجارتهم على مستوى واسع ، خلال هذه الفترة من السلم النسبي وارسلوا قوافلهم في كل صوب . ويقول الرواة ان عبد شمس ، من بين اولاد عبد مناف الاربعة ، اقام علاقات مع الحبشة بينما اقام هشام علاقاته مع سورية وعبد المطلب مع اليمن ونوفل مع العراق . وربما اشتركت قبيلة مخزوم بالتجارة مع الجنوب العربي او انها اهتمت بذلك فيما بعد[١] وقد تدهورت العلاقات، فيما بعد ، مع الاحباش لان نائب الملك « أبرهه[٢] » سير في نهاية الاحتلال حملة ضد مكة لهدم الكعبة ، ليضطر العرب إلى الحج لمعبده الجديد في الجنوب . ويمكننا الافتراض ان المصالح التجارية انضمت ألى المصالح الدينية في هذه الحملة . ولا شك أن ابرهة كان لا يعجبه نجاح المكيين التجاري المترايـــد إذ كانوا يجنون ارباحاً مغرية كوسطاء بين الاحباش والبدو . وقد ادرك ابرهة اهمية الدور الذي تقوم به المنطقة المحرمة حول مكة فيما يسمى « بالنظام المكي » وربما كان يوجد كنز في المعبد[٣] فإذا ما اريد السيطره على سلطان مكة وازدهارها وجب هدم معبدها واقامة معبد آخر مكانه كمركز لتجارة المفرق بين عرب الصحراء .

ولقد نقل الينا ابن اسحق رواية عن مفاوضة عبد المطلب لابرهة خلال هذه الحملة[٣] واذا كانت بعض أجزاء الرواية (كالقول بأن عبد المطلب كان كبير القرشيين وسيدهم) مستوحاة بدون شك من الرغبة في

---

(١) راجع الواقدي ٦١ ولامنس، مكة ، ٢٠١ - ٢٩٧

(٢) راجع دائرة المعارف الاسلامية مقالة « ابرهة »

(٣) راجع مقالة « الطائف » ٣٨٤

تمجيد قبيلة هـــاشم ، فربما كانت قصة المفاوضات منقولة بصورة صحيحة ، ولكن يجب تفسيرها على انها لقاء يهم فئة صغيرة من القرشيين (من بينهم قبيلة دؤيل وهذيل)، بينما سائر القرشيين لم يأبهوا له . فإذا كان الامر كذلك فن الممكن ان يكون عبد المطلب قد حاول الاستعانة بالاحباش ضد أعدائه القرشيين كقبائل عبد شمس ونوفل ومخزوم . ويبدو أن الأولين قد استوليا في هذا الوقت على القسم الأكبر من التجارة مع سورية واليمن بعد أن كانت سابقاً بأيدي هاشم والمطلب فكانت القبائل الموسرة تحاول أن تتبع سياسة محايدة في وجه سياسة المطلب الموالية للحبشة . ولا يمكننا البت فيما إذا كان ابرهة قد قبل مقترحات عبـــد المطلب أو رفضها لعلمه بانه لا يملك القوة الكافية لذلك ، وعلى كل حال فلقدا نتهت الحملة بدون طائل إذ فتك الطاعون بالجيش الحبشي .

وكان الحياد أكثر ضرورة لمكة بعد غزو الفرس للجنوب العربي . ويجب أن نذكر مع ذلك أن هذا الغزو كان نتيجة لحملة بحرية وأن البلاد المحتلة لم تخضع تماماً لأن باقي الجزيرة العربية لم يكن خاضعاً للفرس . ويبدو أن المكيين قد استفادوا من الوضع لتثبيت سلطانهم وكانت حرب الفجار ، التي ربما اندلعت قبل طرد الأحباش ، نتيجة لهجوم عن عمد قام به حليف لمكة على قافلة تتجه من الحيرة إلى اليمن عن طريق الطائف[٢] وهذا يعني بلغة الاقتصاد ان المكيين كانوا يحاولون اما اغلاق هذه الطريق

---

(١) ابن هشام ٣٣

(٢) ابن هشام ١١٨

أو السيطرة عليها . حتى إذا ما انتصروا في الحرب بلغوا هدفهم الذي يطلبونه .

وهكذا يصبح لحلف الفضول الذي تحدثنا عنه مغزى جديد . إذ أن السبب الذي يذكر وهو رفض سهمي أن يدفع ثمن بضاعة اشتراها من تاجر يمني وصدى هذا الحادث كل ذلك يوحي باتجاه سياسي جديد ذي مغزى وهو محاولة القبائل الموسرة أن تخرج اليمنيين من تجارة الجنوب وحصرها في أيديهم . وبهذا نفهم رد فعل هاشم وسائر القبائل التي تكون الحلف . إذ لم يكن لهذه القبائل من المال ما يمكنها من أن ترسل قوافلها إلى اليمن بل كانت تستفيد من المفاوضة مع التجار اليمنيين في مكة ، هذا ما يمكننا افتراضه . فإذا ما أصبحت القوافل المتجهة إلى اليمن بأكملها تحت سيطرة القبائل كعبد شمس ومخزوم فقدت القبائل الأقل شأناً جزءاً كبيراً من تجارتها ، ولم تجد البضائع التي تحملها إلى سورية فيطلب إليها المشاركة في القوافل بالشروط التي يضعها التجار الموسرون فلا يترك ذلك لها سوى ربح ضئيل .

ويساعدنا حادث عثمان بن الحويرث ، كما يرويه لامنس[1] على توضيح سياسة مكة الحيادية . فقد بدأ عثمان بمحادثات مع البيزنطيين أو عمالهم وتلقى وعداً بالمساعدة ، وكان البيزنطيون يخامرهم شيء يشبه ما اتفقوا عليه مع الأمير الغساني ، وان كان عثمان ، حسب الروايات ، يهدف إلى أن يصبح « ملكا » على مكة .

---

(١) مكة ٢٧٠ – ٢٧٩ ، ٣٦٦ – ٣٧٥

وهذا جزء من رد الفعل البيزنطي على غزو فارس للجنوب . ولم يكن عثمان يريد ، كما يقول لامنس ، أن يعلن ذلك على الملأ فكان يصرح بان البيزنطيين على استعداد لاغلاق الحدود إذا لم تقدم لهم بعض « الهدايا » أما رأي لامنس بان عثمان استمال لجانبه الأمويين وبني مخزوم فيبدو أنه زعم يقوم فقط على أن هؤلاء واولئك لم يقاوموا ذلك ، ومن الواضح أن العمل الواضح الذي أدى إلى فشل خطة عثمان هو اتهام أحد أفراد قبيلة له بالطموح إلى الملك وهو الاسود بن المطلب أبو زمعـــه ، فاعلن رجال الاموال الاغنياء أنهم ضد مركز السيطرة التي كان يطمح اليها عثمان حسب خطته ، ولكنهم وجدوا من سوء الرأي التبرأ من سياسة الحياد بعد أن أدركوا قوة موقفهم على ضوء طلب البيزنطيين للسلع التي ينقلونها – ولم يكن لرفض العروض البيزنطية نتائج خطيرة بالنسبة لمكة سوى حبس بعض الاشخاص فترة قصيرة من الزمن، ولو أن معاوية ومخزوم ، في مثل هذه الظروف تزعما المعارضة لعثمان فإنهما بذلك يعيدان إلى الحياة حلف الفضول الذي كانت أسد عضواً فيه . ولهذا تجنبا هذه الامور بتكليف أحد أبناء أسد بتولي القيادة . ولا مبرر للقول بأن الاسود قد دفعه إلى ذلك الغيرة الشخصية الصرفة كما يـــدعي لامنس . فقد كان رجلا غنياً ولهذا كان يعارض كل سياسة ترمي إلى عقـــد علاقات اوثق مع البيزنطيين[1] .

وقع هذا الحادث بعد حرب الفجار لان عثمان بن الحويرث اشترك

---

(١) راجع الفاسي ذكره 143 1 Wust, Mekka

اشترك فيه. نحن إذن نعيش السنوات العشرين ، أو ما بعدها، السابقة على نداء محمد ودعوته . ويدل النزاع بين الامبراطوريتين الكبيرتين في هذه السنوات على أهمية الحياد بالنسبة للمكيين .

ولما كانت الوثائق التي بين أيدينا قليلة فإن قسماً كبيراً من هذا الحديث عن سياسة مكة يقوم على الافتراض والتخمين ، غير أنه وان كانت بعض التفاصيل غير صحيحة فإن الوصف العام ، كما اعتقد ، صحيح . فلقد بلغ محمد سن النضج في عالم تتشابك فيه شؤون المال والسياسة العالمية تشابكاً متيناً .

٣ - البيئة الاجتماعية والاخلاقية

أ ـ العصبية القبلية والنزعة الفردية

العصبية القبلية عامل أساسي للعيش في الصحراء . فالانسان بحاجة لمساعدة الآخرين ضد قوى الطبيعة وأعدائه .

ولقد وجدت التكتلات القبلية بدون شك قبل أن يعتاد الناس على الصحراء،غير أن أهمية العصبية القبلية ازدادت بدون شك بسبب ظروف الحياة في الصحراء . فكلما ازداد عدد القبيلة ازدادت قوتها واستمر نجاحها حتى إذا ما بلغت حداً معيناً اصبح من الصعب عليها ان تعمل كصف واحد ومالت الى الانقسام.وبهذا لا تكون القبائل وحدات دائمة، ولكنها دائمة النمو والانقسام والزوال . يدلنا على ذلك القبائل المكية ، فان التسمية العربية المشتركة للقبيلة هي : « بنو فلان » اي « ابناء فلان » . ونحن نسمع كثيراً في فترة من تاريخ مكة ، عن بني « عبد مناف » ثم يختفي هذا الاسم اذ ان القبيلة بعد ان ازدهرت انقسمت على نفسها واخذنا نسمع حينئذ عن بني عبد شمس وبني هاشم ، وعبد شمس وهاشم هما ولدا مناف . ولقد دارت اشد الحروب في الجزيرة العربية بين قبائل تربطها لحمة النسب بسبب الخصومة على اقتسام منطقة معينة .

كانت كل قبيلة كبيرة مستقلة لا تعترف باي سلطة سياسية عليا . ويمكنها ان تجد نفسها ، في كل لحظة ـ وهذا ما كان يقع ـ في حرب مع

اية قبيلة مجاورة • وتتعلق سلامة القبيلة ، في مثل هذه الظروف ، التي يكون فيها الشخص ضد الجميع و الجميع ضده[1] ، كما يعتمد وجودها ، على قوتها الحربية .

فالقوة هي التي تحمي القطعان وتحافظ على سلامتها لان الغزو هو « الرياضة القومية » للعرب .

والثأر للدم شاهد على العصبية القبلية. وهي طريقة بدائية — ولكنها ربما كانت الطريقة الوحيدة في مثل ظروف الحياة في الصحراء اذا وضعنا الاختراعات الحديثة جانباً لضمان ان الجريمة لا يمكن ان ترتكب بدون مسؤولية . فتعتبر قبيلة القاتل مسؤولة عن عمله والعقاب هو « الحياة بالحيـــاة » .

وناهيك عن النزعة الانسانية الطبيعية لانزال عقاب يتجاوز الجريمة المرتكبة فان الثأر طريقة بسيطة لجعل القبائل في مستوى واحد من القوة[2] .

تقوم القبيلة على القرابة المنحدرة عن الاب وان كانت العائلات والافراد تربطهم غالباً علاقات خاصة من الصداقة مع الاقارب المتحدرين من ناحية الام . وكان يوجد ما يسمى « بالعصبية الصناعية » نتيجة « الحلف » او « الجوار » وكان « الحليف » و « الجار » يعاملان على انهما افراد من القبيلة او الحي • وكان الحلف والتحالف يعقدان بين الانداد ، وان القبيلة الضعيفة تتحالف مع قبيلة قوية للمحافظة

---

(١) سفر التكوين ١٦ — ١٢

(٢) راجع اوسكار كنت « العدالة البدوية » كمبردج ١٩٢٥ ص ٢٧، ٧٥

على حياتها[١] .

وإذا كانت القبيلة أو الحلف يكونان اسمى وحدة سياسة فإننا ندرك بذلك أيضاً أن العرب كانوا يكونون نوعاً من الوحدة . وكانت هذه الوحدة تقوم على اللغة (بالرغم من اللهجات القبلية) وعلى تقليد شعري مشترك ، وعلى بعض العادات والأفكار المشتركة، وعلى الأصل المشترك، ولا شك أن اللغة كانت الأساس الاصلي للتمييز بين العرب والعجم كالتمييز بين اليونان والبرابرة . وكانت فيافي الجزيرة العربية وسورية الاساس الجغرافي لهذه الوحدة ولهـذا فإن كلمة « عرب » تعني غالباً « البدو » . ويرجع أصلهم المشترك إلى أحد الجدين : عدنان أو قحطان ولكن النسبين كانا مختلطين . وأن وجود الاعتقاد بالاصل الواحد، وان كان هذا الاصل وهمياً ، كما يدعي بعض العلماء الغربيين ، فإن وجود هذا الاعتقاد يدل على الاعتراف بالوحدة .

وقد ازداد الشعور عند العرب بانهم شعب واحد وأنهم يمتازون بذلك عن سائر الشعوب خلال الفترة التي قضاها محمد في المدينة حينما رأى عند العرب درجة من الوحدة السياسية أعظم مما بلغه أي زعيم من زعماء العصر الجاهلي .

كانت مبادىء العصبية القبلية التي عرضناها آنفاً تسري عامة على أهالي مكة المدنيين . ومع ذلك فإن الوحدة الفعلية ، أيام محمد ، لم تكن تعتمد على قبيلة قريش ككل بل على القبائل المنفصلة. إذ أن سلامة كل فرد والمحافظة على ممتلكاته كانتا تقومان على سرعة قبيلته في الثأر للقتل

---

(١) جوجولد زيهر M.S 63–69

أو السرقة . فإن القبض على رجل دون طلب الاذن من شيخ القبيلة يمكن أن يؤدي إلى النزاع . وكذلك كان الحال في المدينة خلال السنوات الاولى التي قضاها فيها محمد وهذا ما مكن محمداً من أن يستمر في دعوته في مكة رغم المعارضة طالما ان بني هاشم كانوا على استعداد لحمايته . وعلى كل فرد من أية قبيلة يود العيش في مكة أن يصبح حليف شخص متنفذ أو عائلة قرشية . وكان هـــذا يعني بالنسبة لسلطان قريش نوعاً من النقص والضعف .

ولم تكن العصبية القبلية ، رغم ذلك ، مطلقة . إذ لم يكن أفراد القبيلة آلات بل كانوا بشراً يميلون للانانية أو ما يسميه لامنس بالنزعة الفردية[1] فإذا ما حدث ووضعوا مصالحهم الفردية فوق مصالح القبيلة فهذا أمر طبيعي . ثم ان هناك بعض الافراد « عـــلى هامش » القبيلة يثيرون الاضطراب ولا يعباون بما يكلف القبيلة فكان على القبيلة أن تتبرأ من أعمالهم . وكان يعرف كل شخص من هذا النوع باسم « الخليع » .

في نفس الوقت الذي كانت فيه العصبية القبلية تقوم بتوجيه أفعال أفضل الناس ، أخذت النزعة الفردية تراود أفكارهم . يدلنا على ذلك الشعراء . فقد اكتفى الشاعر حتى ذلك الحين بتمجيد انتصارات قبيلته وبلائه في هذه الانتصارات . ثم ظهر الشعور المتزايد بوجود الفرد خارج القبيلة مع ظهور مشكلة انقطاع وجوده الفردي عند الموت فماذا كان مصير الانسان النهائي ؟ هل يقضي الموت على كل شيء ؟

استمدت النزعة الفردية والخروج على العصبية القبلية غذاءها في مكة

---

(1) راجع مهد الاسلام ص ١٨٧ وما يتبعها .

عن ظروف الحياة التجارية . وبالرغم من أن الامن العام كان يقوم على النظام القديم فانه بامكان عائلة واحدة أو فرد محاط باقربائه أن يكونا وحدة قابلة للحياة . حتى أننا نرى غالباً أشخاصاً يعملون ضد قبائلهم . فقد اتخذ أبو لهب نحو محمد موقفاً يختلف عن موقف العدد الاكبر من الهاشميين كما نشأت المعارضة لعثمان بن الحويرث داخل قبيلته . وكذلك أصبح صحابة محمد الاول مسلمين بالرغم من معارضة قبائلهم وأهلهم . يبدو أن العلاقات القائمة على المصلحة كانت تعارض العلاقات القديمة .

ونلاحظ ، في نفس الوقت، ظاهرة جديدة في مكة وهي ظهور شعور بالوحدة قائم على المصالح المادية المشتركة . وكان هذا الشعور ، أكثر من الانتماء لقريش، هو الذي حمل الاحلاف والمطيبين على وضع حد لخصوماتهم . كما أنه أدى إلى نسيان العداوات والى تكوين « حكومة تحالف » بعد هزيمة بدر . معنى ذلك ضعف روابط النسب والدم وسنوح الفرصة لاقامة وحدة اوسع على أسس جديدة .

فاذا كنا نبحث عن تغير اقتصادي له علاقة بظهور الاسلام فان علينا ان نوجه ابحاثنا في هذا الاتجاه .

(يجب أن نعني « بالعلاقة » شيئاً يختلف اختلافاً أساسياً عن ارتباط الدين ارتباطاً مطلقاً بالعوامل الاقتصادية كما يدعي الماركسيون) .

نشهد في ارتقاء مكة سلم الازدهار والقوة الانتقال من اقتصاد البدو إلى اقتصاد رأسمالي تجاري . ومع ذلك لم يحدث في عصر محمد أي تبديل في المواقف الاجتماعية والأخلاقية والفكرية والدينية للأمة . بل استمرت المواقف

الخاصة بأمة البدو . ويعود التأزم الذي عاناه محمد وبعض معاصريه إلى هذا التناقض بين المواقف الواعية التي يقفها الناس وبين الاساس الاقتصادي لمعيشتهم . وسوف نتحدث بتفصيل فيا بعد عن هذا الاضطراب في الحياة السياسية .

ب ـ المثل الاعلى الاخلاقي

يمكن تسمية المثل الأعلى الأخلاقي عند العرب حسب قول جوليدز يهر « مروءة » أو « رجولة » وقد وصفه ر . ا . نيكلسون بقوله : « شجاعة في القتال ، وصبر على الشدائد ، وتمسك بالثأر وحماية للضعفاء ، وتحد للاقوياء » . هذه الفضائل هي الفضائل التي تحتاجها القبيلة إذا ارادت أن تنجح في نضالها في الحياة في الصحراء . والعرب لا ينظرون للشجاعة تماماً كما تنظر نحن اليها . فالعربي لا يقدر المخاطرة بـــدون ضرورة ، فهو يتحاشى الأخطار والمصاعب طالما أن حياته لا تتعرض للخطر ، إذ أن الحياة في الصحراء من القسوة بحيث لا يحاول أن يضيف اليها قسوة ثانية . وهذا يفسر كيف أن التمسك بالثار يعتبر فضيلة .

ويمكن أن يكون ، في بعض الأحيان ، من الأسهل عــدم الاهتمام بشؤون الآخرين ولكن ذلك دليل عــلى الضعف يؤدي إلى نقص قوة القبيلة العددية . وأما تحدي الاقوياء فهو انعكاس لكون وجود القبيلة بدون اصطدام إنما يقوم على القوة العسكرية . ومع ذلك فان على القوي أن يحمي الضعيف حينما يعترف الضعيف بتفوقه .

وهذا يؤدي إلى تعاون إنساني ضد قوى الطبيعة يجعل القبيلة أقوى.

ولقد كان الكرم والضيافة يحتلان مكانـــة سامية في الصحراء ولا يزالان فضيلتين رئيسيتين عندالعرب . وكانت كومة كبيرة من الرماد خارج الخيمة دليلا على الشهرة الواسعة بالنسبة لشيخ القبيلة لان ذلك يعني أن شيخ القبيلة قد استقبل كثيراً من الضيوف. وترجع هذه العادة إلى ضرورة الالتجاء لمساعدة الآخرين أمام قوة الطبيعة ولكن ربما كانت الضيافة أكثر من ذلك ، فقد كانت موضع اعجاب حتى ولو كانت نوعاً من الاسراف ، كانت امرأة فقيرة تقتل الجمل،الذي هو وسيلتها الوحيدة للعيش ، لتقدم الطعام إلى عابر سبيل غريب . وربما نجد في هذه الطريقة في الاسراف في استخدام أشياء نادرة ما يشبه الاسراف في شرب الخمور الذي يتغنى به الشعراء .

فهل يجب أن نرى في ذلك مظاهر من الفضيلة القائلة بعدم الاهتمام بالغد ؟ لو أنهم في الصحراء أخذوا يفكرون بكل المصائب الممكنة التي تنتظرهم وحماية أنفسهم منها فلن يطول بهم الزمن حتى يصابوا بالانحطاط العصبي ثم الموت أو الرحيل إلى مكان آخر أو الالتجاء لحماية قبيلة أقوى. هناك أشياء كثيرة في الصحراء لا يمكن مواجهتها بالحذر لان الظروف غير مستقرة ، لا يمكن التنبؤ بتقلباتها . ولهذا فان شيئاً من عدم الاهتمام وسط الاحتياطات يمثل ضرباً من الحكمة ، ولهذا السبب كانت اللامبالاة فضيلة من الفضائل . ولم تكن أهمية الوفاء والاخلاص أقل من ذلك . إذ يجب على كل انسان أن يكون مستعداً لتلبية كل نداء بالمساعدة يصدر عن أي فرد من أفراد القبيلة . فكان عليه أن يهب للمساعدة قبل أن يعرف ما إذا كانت الحالة تتطلب ذلك ، كما كان يجب علـــى الفرد أن يسلك مسلك قبيلته وان كان لا يقر تصرفات زعمائها . وأخيراً كانت

الاسلاب تحفظ بعناية في مستودع وان كانوا لا يتورعون عن الاستيلاء على ممتلكات قبيلة أخرى . واشهر مثال على ذلك مثل السموءل بن عدي حين رضي أن يقتل ولده أثناء الحصار حتى لا يسلم بعض الاسلحة التي وضعها امرؤ القيس أمانة عنده . وربما كان يجب اعتبار ذلك امتداداً للوفاء الذي تفرضه القبيلة نحو الاشخاص الذين ارتبطت معهم بروابط « التضامن الاصطناعي » .

ولما كانت القبيلة تتمتع باستقلال مطلق فلم يكن يوجد أي قانون آخر فوق هذا القانون . كما كان يستحيل المحافظه على القانون والنظام في مسافات شاسعة كصحاري شبه الجزيرة العربية وسورية إلا حيث يوجد زعيم يتمتع بسلطة وحكمة نادرين أو حيث يتمتع الحاكم بتفوق في السلاح والعتاد (كالطائرات والسيارات المسلحـــة مثلا ضد البنادق والجمال) . ولا ترى عند العرب ، سواء قبل الاسلام أم بعده ، الفكرة المجردة عن القانون ، حتى أن التأثيرات اليونانية لم تستطع أن تدخل هذه الفكرة في الفقه الاسلامي . إذ يؤمن المسلم بارادة الله خالق الكون كما تظهر في تعاليم الوحي بدلاً من أيمانه بوجود قانون مطلق للكون .

ويحتل مكان القانون وفكرة الخير والشر المجردة فكرة الشرف : شرف القبيلة أولا وشرف الفرد ثانياً . فالقيام بواجب الضيافة والمحافظة على الامانات دليل على وضع مشرف كما أن قلة الكرم والشجاعة دليل على العار . وكان راعي الشرف وسجله الرأي العام ، إذ كان للرأي العام ، الذي يصوره لنا الشعراء ويؤثرون فيه ، بعض السلطة ، ولهذا نرى بعض الاشخاص الذين تحملوا المسؤوليات يمتنعون عن القيام

باعمال تلحق العار بهم أو بقبائلهم ، ولهذا يحتل مدح فضائل القبيلة وأعمالها مكانة كبيرة في القصائد القديمة كما تحتل عيوب القبائل الاخرى وأخطاؤها ٠

وكان المثل الاعلى ، المروءة ، يقوم بدور مهم عند العرب إذ كانوا يحترمون الاشخاص الذين تخلقوا بها نوعاً ما كما يحترمون العلائلات التي اعتادت عليها ٠ وكانت سلطة شخص من الاشخاص تعتمد على الاحترام الذي يكنه الناس له ، كما كان هذا الاحترام نفسه يتعلق بصفاته الشخصية وبمروءته ٠ ولم يكن يوجد عند العرب حق الوراثة للابن الاكبر لاسباب بديهية ٠ فاذا كان الابن الاكبر لشيخ القبيلة يفتقد للتجربة عند وفاة والده ، (ولم يكن ذلك نادراً) فلن تخاطر القبيلة بمصيرها بانتخاب مثل هذا الشخص شيخاً لهـــا . إذ يجب على الشيخ أن يكون رجلا حكيما ذا رأي سليم كما هو شان الشخص المحترم عادة في العائلات التي تتولى الزعامة .

وهكذا يكون العرب ، باعترافهم بالفضائل الأخلاقية وقدرتهم على تمييز هذه الفضائل ، قد حققوا نوعاً من المزج بين الارستقراطية والمساواة فاعترفوا بحكم الأفضل مع تاكيد المساواة بين جميع الناس .

فقاموا بذلك « بعملية خارقة » كما يقول أ . ج . توينبي في عرضه الممتع للبداوة. إذ أن البداوة تنشأ إلى جانب الحياة الزراعية لأنه لا يمكن تربية المواشي إلا في ظلالها .

يقول توينبي : « بعد أن أدى الجفاف إلى جعل الحيـــاة صعبة في الواحات وأصعب في الصحاري ، عاد شيوخ مدينـــة البداوة بجرأة إلى الصحراء ليستمدوا منها معيشتهم الكاملة بالرغم

من الأحوال المناخية التي تجعل الصياد والمزارع يربان الحياة في الصحراء مستحيلة تماماً[1] » .

يوجد في كل هذا عملية انتقاء . فقــد حاول ، أول الأمر ، بعض الأشخاص الحياة في الصحراء ، وكانوا ، ولا شك ، ممن يمتازون بصفات كروح المغامرة وحب الحرية . ثم أدى النضال القاسي من أجل الحياة إلى انتقاء لا يقوم فقط على الصفات الجسدية بل أيضاً على الميزات الأخلاقية . إذ يجب ، للنجاح في حياة الصحراء ، درجة عالية من التضامن يضاف إليها قدر كبير من احترام الشخصية وتقدير قيمة الأشخاص ، وهكذا تنصهر في أتون الصحراء رواسب الأفعال والمواقف المتخاذلة ولا يبقى سوى الأخلاق النقية الصافية التي تقوم على تقليد سام في علاقات البشر ودرجة عالية من الفضائل . ومن الفرضيات التي يقوم عليها هذا الكتاب القول بأن عظمة الاسلام تعتمد اعتماداً كبيراً على صهر هذا العنصر مع بعض النظريات اليهودية والمسيحية .

أ ـ انحطاط الديانة القديمة .

أفضل عرض للديانة القديـــة لجزيرة العرب هو مقال نولدكه عن « العرب القدماء » في « دائرة معارف الدين والأخلاق » .

والعرض المتداول هو :

Reste Arabichen « J. L. Welhausen » Heidentums

الذي يعتمد عــلى كتاب الاصنام لابن الكلبي[2] . ويتم ذلك

---

(١) دراسة التاريخ ج ٣ ص ٧ ـ ٢٢

(٢) يعلق على ابن الكلبي هـ . س نيبرج في *PAIMA Martino* ★

ويصححه « لامنس في كتابه *Le culte des Bétyles et les processions religieuses chez les Arabes préislamites*(١)

وليست نظريات ديتلف نيلسن *Dietlef Nielsen* [٢] المعـــارضة مقبولة . فهي تتحدث عما نعرفه عن عدد كبير من الآلهـــة والآلهات والمراسم المتعلقة بعبادتها .

ولما كانت معارفنا مبتورة تعتمد عـــلى مصادر اسلامية ، ما عدا النقوش ، فهناك مكان كبير للافتراض والتخمين . ولن نعالج هنا هذا الموضوع بتوسع بل يكفي أن نذكر بانه من المتفق عليه عادة أن عبادة الأوثان لم يعد لها تأثير أيام محمد .

كانت تلك الديانة ثمرة تطور طويل . وكانت الحجارة والاشجار ، في الاصل ، من بين أوائل الاشياء المعبودة . وكان ينظر إليها في بعض الأحيان لا على أنها آلهة بل على أنها موطن لآلهة . ثم اضفيت عليها فيما بعد صفات مجردة وربما كان ذلك بتاثير أجنبي . وكانوا يعتقدون أنها على علاقة بالكائنات السماوية . ويبدو أن البدو لم يؤمنوا بها كثيراً وربما كان ذلك لانها كانت في الاصل آلهة مجتمعات زراعية [٣] .

وإذا أخذنا بعين الاعتبار المعارضة التي لقيها محمد في مكة امكننا أن نتخيل بعض الفئات الصغيرة تمارس بعض المراسم الدينية، و لها معتقدات أسمى من معتقدات الاخرين .

---

(1) راجع *P. Nilsson Dédicatum, Lund 1939 346 - 66*

(٢) راجع *Arabie 101 – 79*

(٣) راجع برتون : الأصول السامية والحامية . *Hand buch der altararbischen Altertumskunde 1*

كما استمرت ، من ناحية ثانية ، بعض الطقوس كالحج إلى الاماكن المقدسة في مكة وما حولها ، وكان الحرم ، وهو أرض مقدسة في مكة ، محترماً. ويبدو أن تدنيسه أيام حرب الفجار دليل على انحطاط المعتقدات الدينية . وقد حمل أبو سفيان ، خلال أزمة الدولة المكية ، اللات والعزى في حرب المسلمين في أحد.

ويذكرنا هذا بالاسرائليين يحملون معهم تابوت العهد في القتال ، ويوحي لنا القول بأن بقايا العقيدة الجاهلية في شبه الجزيرة العربيـــة لم تكن ،في ذلك الحين، إلا على مستوى السحر ، وهكذا استمرت كثير من الطقوس القديمة فهي أقرب إلى الخرافات منها إلى الديانة .

ب ـ النزعة الانسانية القبلية .

نجد ما يمكن تسميته « بالنزعة الانسانية القبلية » وهي على عكس الديانة القديمة . كانت تلك ديانة العرب الفعلية أيام محمد ، وإن كانت في طورها الاول أيضاً . هي تلك الديانة التي نجدها عند شعراء الجاهلية. إذ يعتقد هؤلاء الشعراء أن ما يجعل للحياة مغزى الانتساب لقبيلة تستطيع التغني بمآتي الشجاعة والكرم والمشاركة فيها . فإن تحقيق أفضل الصفات الانسانية غاية في نفسها وذلك مع المشاركة في استمرار بقاء القبيلة، وهي غاية سامية أخرى للحياة. نقع هنا على النزعة الانسانية، حيث تجد هذه النظرة معناها في القيم الانسانية الصرفة وفي السلوك الذي يعتمد عـــلى الفضيلة والرجولة ، وهي تختلف مع ذلك ، عن النزعة الانسانية الحديثة في اعتقادها بأن القبيلة هي محل هذه الفضائل وليس الفرد . وسوف نرى (في الفصل الثالث) أنه إذا كان القرآن يمتنع في السور الاولى عن مهاجمة

عبادة الاصنام القديمة فإنه يتعارض مع هذه النزعة الانسانيـــة في مظهرها الديني ★

بينا كان الاعتقاد بشرف القبيلة وامتيازها عصب الحياة البدويـــة فهناك أساس فكري لهذه العقيدة يجب ملاحظته ، وان ايمـــان العرب بالقضاء والقدر معروف ولكن يبدو أنه كان ايماناً محدوداً . ولا يبدو أن العرب كانوا يعتقدون بأن جميع أفعال الانسان كانت مقدرة مسبقاً ، بل بعض جوانب الحياة كانت مقدرة بهذا الشكل . ولقد اشرت في موضع آخر[1] إلى أننا نجد في بعض الاحاديث أفكاراً جاهلية في رداء اسلامي وان ما كان ينسب سابقاً للزمن والقضاء اصبح ينسب لله . فإذا كان الامر كذلك فان النقاط الاربع الرئيسية التي من أجلها كانت الحياة الانسانية محصورة في حدود ضيقة بالقضاء والقدر هي التالية :

الرزق ، الأجل ، وجنس الطفل ، والسعادة والشقاء . وليس ذلك ديانة لان القضاء والقدر لم يكن موضع عبادة . بل كان صورة من العلم لانه في الاساس معرفة للوقائع . ولهذا فان المعطيات السالفة الذكر ، في ظروف الحياة في الصحراء ، هي أبعد من مراقبة لسلامة الرأي والحكمة الانسانيتين. فالمعيشة في الصحراء سريعة العطب إذ يمكن لقبيلة أن تفوز بالامطار الغزيرة والمراعي الخصبة بينا القبيلة المجاورة لا تفوز بشيء من كل ذلك . ولهذا فان الحياة بخيلة بهباتها ، والموت فيها يأتي بغتة أثر حادث طارىء . ونحن حتى الان وبالرغم من تقدم العلم ، يستحيل علينا

★ يجب مع ذلك تمييز الجانب الاخلاقي للنزعة الانسانية ، وهو مثل أعلى أخلاقي يحترمه القرآن .

(١) حرية الارادة والقضاء والقدر في أول الاسلام، لندن ١٩٤٩ ص ٢٥

ان نتنبأ أو نحدد مسبقاً جنس الطفل. مصائب الدهر إذن كثيرة في الصحراء ولهذا كانت تجربة أيوب ليست بعيدة في نظر البدوي .

وهكذا فقد احتلت المروءة مكانة في وسط مستقر ثابت . فكان ينظر إلى صاحب الدم النبيل في العروق على أنه يساعد على اتمام الاعمال النبيلة ، وان كانت صفات المرء الخلقية لا تتعلق فقط بنسبه الارستقراطي. ولم تكن مشكلة الحرية الفردية لتخطر ببال العرب بسبب التضامن القبلي ، وربما أدى نمو النزعة الفردية ، وذلك أيام شبيبة محمد ، إلى انحطاط النزعة الانسانية القبلية كقوة دينية حيوية . فلم يكن الناس، في ذلك الوقت ، يهتمون كثيراً بمسالة مصير الفرد أمام بقاء القبيلة ، وقد أخذوا الآن يتساءلون عن المصير النهائي للانسان . فلم يكن هناك أي سبيل للانتقال من النزعة الانسانية القبلية إلى النزعة الانسانية الفردية بسبب انعدام العقيدة بخلود الانسان فلم يكن هناك أي شيء يخلد الانسان . كان الناس ، بسبب النزعة الانسانية القبلية ، يمكنهم الاعتقاد بخلود القبيلة وأن الدم مصدر الصفات النبيلة في القبيلة ، ويبدو أن المشكلة الرئيسية التي اثيرت أيام محمد ، على المستوى الديني ، كانت عبارة عن هذا الانقطاع في النزعة الانسانية أمام تنظيم أشد فردية في المجتمع .

ظهور النزعات التوحيدية.

نوقشت مشكلة العلاقة بين تعاليم الاسلام و « مصادره » اليهودية والمسيحية . وليس من قصدنا أن نفصل القول فيها هنا .

ولكنه من المفيد أن نشير الى الزاوية التي يجب النظر اليها منها . ذلك أن موقف العلماء الغربيين كان غالباً سيئاً لما يبدو أنه يتضمنه من

انكار لمعتقدات الاسلام الفقهية . ولقد كانت الدراسات الغربيـــة عن القرآن غير موفقة حتى من وجهة نظر أفضل العلماء . فقد جعلت هذه الدراسات من الاقتباس الادبي عقيدة ونسيت ان الاقتباس الادبي ليس سوى جانب من اللوحة ، وان هناك ايضاً فعل الشاعر المبدع والمسرحي والقصصي ، وان الاقتباس الادبي لا يدل على انعدام الاصالة المبدعة وكذلك الشأن ، مع بعض الفروقات ، في ميدان الدين • من السهل ان نظهر ان آموس وأشعيا اقتبسا نظريات عن سابقيهما ، وإذا ما درسنا هذا الاقتباس فقط لم ننتبه لاصالتهما والطابع المميز للوحي الالهي على يديهما .

يعتقد المسلمون السنيون أن القرآن وحي الهي وانه كلام الله . ومع ذلك فإن القرآن يكشف لنا عن أحكام صريحة على معتقدات العرب الجاهليين وعلى بعض الافكار التي تسربت الى محمد والمسلمين ، كما نجد فيه مقاطع أخرى يمكن ان نستنتج منها معتقدات محمد ومعاصريه بشيء من الثقة .

يوحي لنا كل ذلك بمنهج لدراسة التأثيرات اليهودية والمسيحية يرضي البحث الغربي ولا يثير اعتراض المسلمين ، ويمكن ان تكون النقطة الاولى هي التساؤل عما يذكره القرآن او يحتويه حول مسألة معتقدات العرب في عصر محمد . سواء كانت معتقدات التقدميين المثقفين أم المحافظين ، ويمكن التساؤل عندئذ عن مدى التأثيرات اليهودية المسيحية .

نتبين من الآيات الاولى في القرآن[1] ان هذه الآيات نزلت لقوم يعتقدون بالله وان كان ذلك بطريقة مبهمة مختلطة . ويفسر القرآن

---

(١) راجع الفصل ٣ و ١

بعض الكلمات الغريبة التي لم تكن مفهومة بوضوح من الذين يسمعونها : سقر (سورة ٧٤) القارعة (١٠١) الحطمة (١٠٤) الخ . ولكن هذا لا يستدعي تفسير معنى « ربك » أو (الإله) .

توحي لنا جملة « رب هذا البيت » (اي الكعبة) في سورة « قريش » ان المكيين المثقفين كانوا يعتبرون انفسهم يعبدون الله في هذا المكان. ان لفظة «الله» العربية هي اختصار لـ « الاله» التي تعني كلفظة *Ho theos* عند اليونان « الله » ولكنها كانت تستعمل بمعنى « الإله الاكبر » . وربما كان المكيون الجاهليون ، في العصر السابق على محمد ، يستعملون كلمة « الله » للدلالة على الالهة الرئيسية في الكعبة كما كانت آلهة الطائف تعرف باسم « اللات » . واذا صح ان كلمة « الله » كانت تستعمل للدلالة على « الإله » الذي كان يعبده اليهود والمسيحيون فان هذا يؤدي الى الاختلاط وربما كانت الفرضية التالية هي الاقرب للواقع .

بينما كان بعض المكيين يعبدون « الله » فلم يخطر ببالهم ان معتقداتهم القديمة المشركة لا تتفق مع الاعتقاد « بالله » ولهذا لم يرفضوها .

ولا شك ان بذور التوحيد هذه عند العرب قد ظهرت بفعل التأثيرات المسيحية اليهودية[١] ، فلقد اتيحت للعرب مناسبات عديدة للاتصال بالمسيحيين واليهود إذ كانت الامبراطورية البيزنطية ، التي كانوا يعجبون بقوتها ومدنيتها ، مسيحية . كما كانت الحبشة . وكذلك لم تكن المسيحية تفتقد للقوة في الامبراطورية الفارسية . كما ان الحيرة ،

---

(١) راجع ملحق ب

وهي دولة ثانية لفارس ، كانت تربطها بالعرب علاقات مستمرة ، فقد كانت بمثابة طليعة للكنيسة الشرقية السورية او النسطورية . ولا شك ان هذا المزيج من التوحيد يضاف اليه قوة عسكرية وسياسية ودرجة عالية من المدنية المادية قد اثر بشدة على العرب . فاخذت القبائل العربية والجماعات الحضرية المتصلة بهذه الدول تدخل في المسيحية شيئاً فشيئاً ، حتى ان بعض التجار المكيين قد شعروا بهذا التأثير بسبب ما يرونه حين تحملهم تجارتهم الى اسواق المدن المتاخمة، كما وجد بعض المسيحيين في مكة من تجار وعبيد[1] . ولكن تأثير افراد معدودين لا يجب ان يكون له نفس الاهمية .

ولم تكن مناسبات الاتصال باليهود كثيرة كمناسبات الاتصال بالمسيحية ، ولكن ربما كان لبعض هذه المناسبات طابع اشد واقوى ، وهذا ما وقع في المدينة حيث عاش اليهود والعرب الجاهليون جنباً الى جنب. كما كان هناك بعض القبائل اليهودية التي اقامت في واحات شبه الجزيرة وفي مناطق الجنوب الخصبة • وكان هؤلاء اليهود اما لاجئين من اصل عبري ، واما قبائل عربية اعتنقت اليهودية ولم يكن يوجد يهود في مكة[2] •

وحين ناتي للتفاصيل نجد ان الجماعات اليهودية والمسيحية التي أثرت في العرب كانت لها افكار غريبة • ولا نشير بذلك الى النساطرة او السوريين والاحباش الذين يعتقدون بوحدة المسيح **Monophysistes**

---

(١) راجع لامنس *Arabia 1/49*

(٢) نفس المرجع ص ٦٨ خاصة ، و « توري » الاسس اليهودية ص ١٣

وكان ظهور علماء هذه الكنائس معتدلا جداً بالنسبة للافكار العديدة الغريبة التي وصلت الى شبه الجزيرة وهي مقتبسة من الاناجيل الموضوعة وغيرها من الكتب المشابهة ٠

والآية القرآنية القائلة بان الثالوث يتألف من الأب والابن ومريم العذراء هي بدون شك نقد للعرب المسيحيين الذين كانوا يؤمنون بذلك٠ وكذلك فيما يتعلق باليهود فان كثيراً من التفاصيل كانت لاتصدر عن الكتابات المقدسة ولكن عن مصادر ثانوية متنوعة ٠

ولا يمكن استبعاد امكانية تأثير صدر عن جماعات موحدة غير اليهود والمسيحيين ، ولكن هذا التأثير كان ضعيفاً ٠ ويمكن ان يكون قد وجدت جماعات تؤمن بتوحيد قائم على الفلسفة اليونانية كالصابئة مثلا٠ وهكذا نجد تفسيراً لاستعمال كلمة «حنيف[1] ».واقول هنا اننا لا نملك اي دليل على وجود حركة منظمة للتوحيد، ولو وجدت مثل هذه الحركة لما عدمت التأثير السياسي كما حدث في اعتناق عثمان بن الحويرث المسيحية لرغبته في ان يصبح سيد مكة المطلق بمساعدة البيزنطيين . غير ان هناك نصيباً من الحقيقة في وصف الحنفاء بأنهم كانوا يبحثون عن عقيدة جديدة ، ولا شك انه وجد في نهاية القرن الرابع ، اعتماداً على العواطف الدينية في شبه الجزيرة ، ولا سيما في مكة ، عدد كبير من الناس احسوا بالفراغ واخذوا يبحثون عن شيء يرضي اعمق حاجاتهم٠

ويجب ان نشير الى بعض التعديلات في الافكار اليهودية المسيحية لتتفق مع المعتقدات العربية ، ولقد لاحظنا الى اي حد اضيفت الافكار

---

(١) راجع ملحق (ج)

القديمة المتعلقة بالدهر الى الله ·

وبلغ من تسرب فكرة « الله » في التفكير العربي ان الجاهليين كانوا يدعون بأن طقوسهم كانت بأمر الله « وإذا فعلوا فاحشة، قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها » وان تفسير انسحاب ابرهة خارج مكة سابق للقرآن ، كما ان القول بأن هودا وصالحا كانا نبيين في عاد وثمود مثال سابق للقرآن على اقتباس الفكرة اليهودية المسيحية عن النبوة · واذا صح ان مسيلمة[1] اعلن نبوته قبل محمد فان هذا يدل على مدى تأصل فكرة النبوة ·

كما ان تمثل الافكار العربية يظهر في اختيار الافكار اليهودية المسيحية او رفضها وان كان من الصعب عادة ان نبين كيف ان العرب تأثروا بفكرة غير مذكورة وانهم اضطروا الى رفضها ·

وانه لا يكاد يكون ضروريا في دراسة حياة محمد البت في مشكلة الاهمية النسبية للتأثيرات اليهودية المسيحية ولا سيما منذ ان بدا نقاش بعض التفاصيل · يجب قبل كل شيء ان ندرك ان هذه الاشياء كانت « في الجو » قبل دعوة محمد وانها ساعدت على اعداد نفسه وبيئته ، لتبليغ رسالته ·

---

(١) د . ج . مرغوليوث في JRAS ، ١٩٠٣ ، ٤٦٧ ، كذلك راجع . س . ج . ليال ، نفس المرجع ، ص ٧٧١ ، ويل ، محمد ، ص ٩٩ ملاحظة ٩٩ رقم ٢٧٨

الفصل الثاني

الفترة الأولى من حياة محمد ودعوته

١ ـ نسب محمد

كان محمد ابن عبد الله المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب، الخ. وقد حكم قصي، كما أشرنا، مكة في حياته وخلفه ابناؤه واحفاده فورثوا قسماً كبيراً من سلطته وإن انقسموا فيما بعد كلما ازداد عددهم. والمسألة الاولى في حياة محمد هي معرفة ما إذا كان لاجداده هذه المكانة في الحياة العامة في مكة كما تقول الروايات، أم ان مكانتهم قد ضخمت (كما يعتقد بعض العلماء الغربيين). فلقد فخر فيما بعد العباسيون بانهم ينتسبون لهاشم بينما كان الامويون يدعون أنهم يتحدرون من أخيه عبد شمس. وإذا قدرنا أن الامويين قد اسيئت معاملتهم على يد المؤرخين الذين كتبوا في حكم العباسيين لم ندهش، إذا رأينا المؤرخين ينسبون لهاشم وأولاده وأحفاده دوراً أهم من الذي قاموا به فعلا. غير أن نقداً دقيقاً للمصادر ينتهي بنا إلى أن ذلك لم يحدث بدرجة واسعة. إذ أن الحوادث التي نقلتها لنا الروايات عرضت علينا بشكل مناسب للعباسيين، ولكن ليس هناك أسباب

وجيهة تحملنـــا على الشك في الوضـــع أو الاخـــتراع على مستوى واسع .

ونشعر بأن أولاد عبد مناف الرئيسيين قد عملوا كثيراً لازدهار التجارة في مكة . ذهب عبد شمس إلى اليمن ونوفل إلى فارس والمطلب إلى الحبشة وهاشم إلى سورية . وربما كان ذلك سبب غناهم . وإن كان هناك آخرون فعلوا مثلهم . ويمكن أن يكون للقصة القائلة بأن عبد شمس تنازل لهاشم عن حقوقـــه في السقاية والرفد في موسم الحج لان هاشماً لم يكن مشغولا بالسفر لأعماله ، أساس من الواقع .

وربما أدرك عبد شمس أن حظه من الربح بالتجارة عبر المسافات الطويلة أكثر بالتجارة الصغيرة مع الحجاج . ومهما كانت أهمية كل منهما وغناه فإن موت هاشم المبكر في غزة قد اضعف أحفاده وشركاءه من قبيلة المطلب . فوجد أخ هـــاشم وهو المطلب نفسه على رأس القبيلة باجمعها ، ولكن لا يبدو أنه قام بدور رئيسي في شؤون مكة ، حتى اليوم الذي وصل فيـــه مكة ابن هاشم ، عبد المطلب ، بنــاء على طلب عمـه المطلب بعـد أن نشا في المدينـة مع أمه .

ويبدو أن مركز القبيلة قد تحسن بوصول عبد المطلب . إذ أن حفر بئر زمزم على يده بالقرب من الكعبة يدل على عزمه وبأسه . وبالرغم من أن بئر زمزم أصبحت فيما بعد البئر المركزية في مكة وساعدت بذلك على ازدياد مكانة المعبد فإن عمل عبد المطلب لا يدلل على أنه كان زعيم مكة وأن فعل ذلك بموجب حقه في سقاية الحجاج

الذي ورثه عن أبيه بواسطة عمه .

وأفضل دليل لدينا على وضعه في المجتمع أخبار زواج بناته . فقد تزوجت صفية (وكانت امها من زهرة) اولا أحد أبناء حرب بن أمية (شيخ عبد شمس) ثم العوام بن خويلد (أسد) وأما عاتكة (أمها بن مخزوم) فقد تزوجت أبا أمية بن المغيرة (مخزوم) . وتزوجت أمية من جحش ، وهو حليف حرب بن أمية ، كما تزوجت عروة اولا من عمير بن وهب (عبد) ثم من رجل من قبيلة عبد الدار ، وبرة تزوجت اولا أبارهم (عامر) ثم أبا الأسد بن هلال (مخزوم) . وتزوجت أم حكيم قريظا (عبد شمس) . يعني هذا أن عبد المطلب كان يستطيع تزويج بناته من أفضل عائلات مكة وأقواها[1] .

ويشك في القول بانه كان على خلاف مع حرب بن أمية على السلطة في مكة ، لأننا لا نجد تفاصيل ذلك ويبدو أن هذا صدى خلافات لاحقة وتدل روابط الزواج على أنهما كانا على علاقات طيبة .

ويجب الأخذ بالرواية حول لقاء عبد المطلب بأبرهة أثناء معركة الفيل . وان نعتبر مفاوضته من أجل أقليةوليس من أجل مكة باسرها. فهناك تفاصيل عديدة نعثر عليها في مختلف الروايات تدل على أنها محاولات لتبرير سياسة عبد المطلب .بعد أن قضى النسيان على التبريرات السابقة . وذلك بعد فشل هذه السياسة أثر انسحاب الاحباش المفجع .ولا تستطيع

---

(١) راجع ابن سعد ج ٨ ، ص ٢٧ - ٣١

القول ما إذا كان تأثير عبد المطلب في مكة قد تأثر من جراء ذلك لانه توفي بعد وقت قصير.

ويوحي إلينا أتباعه مثل هذه السياسة ان وضع قبيلته كان في طريق التدهور.

انتقلت إدارة شؤون القبيلة، خلال فترة قصيرة، إلى أيدي بني هاشم ثم إلى أيدي الزبير بن المطلب، كان ذلك أيام حرب الفجار وحلف الفضول. ويبدو أن الزبير لم يكن موفقاً. كان حلف الفضول اتفاقاً بين قبائل ضعيفة، وقام فيه بالدور الرئيسي عبدالله بن جدعان (من تيم) فكانت الاجتماعات تعقد عنده، وكان من أشهر رجلات مكة عند بدء حرب الفجار[1].

وكان أخ الزبير، أبو طالب، أكثر شهرة. إذ كان على راس القبيلتين بعد وقت قصر من حلف الفضول حتى وفاته لثلاث سنوات قبل الهجرة. ولم تزدهر شؤون القبيلة خلال زعامته، وإذا كانت رواية تظهره راعياً للابل في الصحراء[2] لانها منتوحاة من غيرة أحفاد العباس. ولهذا تولى محمد تربيه علي بسبب فقر أبي طالب. وسبب ذلك بدون شك افتقار أبي طالب إلى الصفات العاليـة من جهة وانحطاط شان القبيلة الذي حدث قبل وفاة عبد المطلب ونسب إلى ابرهة وفشله من جهة أخرى.

كان والد محمد عبدالله أخا للزبير وابي طالب. وكان كسائر أفراد

---

(١) أ. ب. دو برسفال تاريخ العرب قبل الاسلام ١٨٤٧ – ١٨٤٨

(٢) ١ ص ٣٠٠ كوسين ٥ ٣٠٠٥ من الاغاني.

العائلة يشترك في العمليات التجارية مع سورية وتوفي في سن مبكرة في المدينة أثر عودته من رحلته إلى غزة[1] وقـــد وقع ذلك قبل ولادة محمد .

وكانت أم محمد آمنة بنت وهب من قبيلة زهرة القرشية وكانت أمها من قبيلة عبد الدار وجدتها لأمها من بني أسد . وهكذا كان محمد حليفا لعدد من أشهر العائلات في مكة .

ونشعر على العموم أن قبيلة محمد كانت في الماضي في مقدمة العائلات في مكة . غير أن تأثيرها أضمحل قبل ثلث قرن من دعوة محمد فهي ليست سوى عضو في مجموعة القبائل الفقيرة الضعيفة . ولا شك أن بعض أفراد القبيلة استمروا في الاهتمام بالتجارة مع سورية ولكنهم ربما لم يشتركوا بالمعاملات الواسعة التي كان يقوم بها عبد شمس ومخزوم . وقد أصبحت القبيلة على استعداد لإظهار سوء نيتها نحو هذه القبائل، وان استطعنا العثور على دلائل للتقرب من هذه القبائل، قام بها محمد وأبو لهب إذ تزوجت احدى بنات محمد زينب رجلا من عبد شمس .

٢ - مَولِد محمَّد وطفولته

ولد محمد عام الفيل حين فشل ابرهة في حملته على الكعبة . وكان ذلك نحو عام ٥٧٠ م. وربما ولد بعد وفاة أبيه ونشأ في رعاية جده عبد المطلب. وكان من عادة الطبقات الارستقراطية أن تعهد بابنائهـــا للمراضع من

---

(١) ابن سعد ١ ص ٠ — ٦١

القبائل البدوية لكي ينشأ الأطفال في هواء الصحراء الصافي نشأة قوية . وحدث هـذا لمحمد خلال سنتـين أو أكثر . وكانت مرضعته حليمة وهي امرأة مـن قبيلة سعد بن بكر من قبيلة هوازن الكبيرة .

وقد توالت المصائب على اليتيم . توفيت والدته وهو في السادسة من عمره ثم توفي جده بعد سنتين ، فاصبح بعد ذلك في رعاية عمه أبي طالب، ويقال بانه رحل في ذلك الوقت إلى سورية . وقعت حرب الفجار ومحمد بين الخامسة عشرة والعشرين من عمره ، ويروى بأنه شارك في الحرب إلى جانب أعمامه، وربما حضر أيضاً حلف الفضول، وعبر بعد سنوات عن موافقته عليه ، إذ كان هدف هذا الحلف الوقوف إلى جانب مبادىء العدل ضد عدوان القبائل القوية الغنية ، وكان هذا الهدف قريباً جداً في بعض الوجوه من تعاليم القرآن .

تلك هي الوقائع التي تهيمن على حياة محمد قبل زواجه من وجهة نظر المؤرخ . بعض هذه الوقائع موضع جدل . وهناك مع ذلك عدد كبير من الروايات التي يمكن تسميتها بذات الطابع الفقهي . ولا شك أنهـا ليست حقيقة بالمعنى الواقعي للمؤرخ لأنها تحاول وصف وقائع يمكن نسبتها لفترات لاحقة من حياة محمد . ولكنها تعني مع ذلك مغزى محمد بالنسبة للمسلمين المؤمنين ، فهي بذلك حقيقية بالنسبة إليهم ، وتكون ملحقاً مناسباً لحياة نبيهم . وربما يمكن اعتبارها كتعبير « لمن كان له عيون ترى » فرأى لو كان شاهداً لها ، ويكفي أن نذكر أشهر هذه القصص كما يرويها ابن اسحق .

« كانت حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية أم رسول الله التي أرضعته تحدث أنها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير ترضعه ، في نسوة من بني سعد بن بكر تلتمس الرضعاء . قالت وهي في سنة شهباء لم تبق لنا شيئاً وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذي معنا، من بكائه من الجوع ما في ثديي ما يغنيه وما في شارفنا ما يغذيه، ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج فخرجت على أتاني حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله (صلعم) فتأباه إذا قيل لها: « إنه يتيم » ، وذلك انا إنما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي فكنا نقول يتيم!! وما عسى أن تصنع أمه وجده ؟ فكنا نكرهه لذلك ، فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعاً غيري ، فلما اجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي : والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعاً، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه . قال : لا عليك أن تفعلي، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة. قالت : فذهبت إليه فأخذته، وما حملني على أخذه إلا أني لم أجد غيره . قالت : فلما أخذته رجعت به إلى رحلي ، فلما وضعته في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن فشرب حتى روي وشرب معه أخوه حتى روي. ثم ناما وقام زوجي إلى شارفنا[1] تلك فإذا أنها لحافل[2] فحلب منها ما شرب وشربت معه حتى انتهينا ريا وشبعا فبتنا بخير ليلة . قالت : يقول صاحبي حين أصبحنا : تعلمي والله يا حليمة لقد اخذت نسمة مباركة فقلت: والله إني لأرجو ذلك ، قالت : ثم خرجنا وركبت أتاني

---

(١) الشارف الناقة المسنة .

(٢) حافل : ممتلئة الضرع.

وحملته عليها معي ، فوالله لقطعت بالركب ، ما يقدر عليهـــا شيء من حمرهم حتى أن صواحبي ليقلن لي: يا ابنة أبي ذؤيب ويحك !! اربعي[1] علينا ، أليست هذه اتانك التي كنت خرجت عليها ؟ فاقول لهن : بلى : والله إنها لهي هي . فيقلن : والله ان لها لشانا ، قالت : ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد وما اعلم أرضاً من أرض الله اجدب منها فكانت غنمي تروح علي حين قدمنا به معنا شباعاً لُبناً[2] فنحلب ونشرب وما يحلب إنسان قطرة لبن ولا يجدها في ضرع، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم : ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب . فتروح أغنامهم جياعاً ما تبض بقطرة لبن وتروح غنمي لبناً فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته وكان يشب شبابا لا يشبه الغلمان ، فلم يبلغ سنتين حتى كان غلاماً جفرا[3] . قالت : فقدمنا به على أمه ونحن أحرص شيء على مكثه فينا ، لما كنا نرى من بركته ،فكلمنا أمه وقلت لها:لو تركت بني عندي حتى يغلظ فإني أخشى عليه وبأمكة :قالت :فلم نزل بها حتى ردته معناقالت : «فرجعنا به » فوالله انه ـ بعد مقدمنا باشهر ـ مع أخيه لفي بهم[4] لنا خلف بيوتنا إذ أتانا أخوه يشتد فقال لي ولأبيه : ذلك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما

---

(١) اقيمي وانتظري .

(٢) غزيرات اللبن .

(٣) متينا شديدا ويطلق على الصبي ابن اربعة أعوام .

(٤) الصغار من الغنم واحدتها بهمة .

ثياب بيض فاضجعاه فشقابطنه فهمايسوطانه[١] قالت: فخرجت أنا وأبوه نحوه، فوجدناه قائماً منتقعاً وجهه قالت: فالتزمته والتزمه أبوه فقلنا له: مالك يا بني؟ قال: جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فاضجعاني وشقا بطني، فالتمسا فيه شيئاً لا أدري ما هو، فرجعنا إلى خيامنا. وقال لي أبوه: يا حليمة لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد اصيب، فالحقيه بأهله قبل أن يظهر ذلك به.

قالت فاحتملناه، فقدمنا به على أمه فقالت: ما اقدمك به ياظئر[٢] وقد كنت حريصة عليه وعلى مكثه عندك؟ فقلت: نعم لقد بلغ الله با بني وقضيت الذي علي، وتخوفت الأحداث عليه، فاديته عليك كما تحبين، قالت: وما هذا شانك فاصدقيني خبرك، فلم تدعني حتى اخبرتها قالت: افتخوفت عليه الشيطان؟ قالت: نعم، قلت: كلا، والله ما للشيطان عليه من سبيل، وان لبني لشانا، افلا اخبرك خبره؟ قلت: بلى، قالت: رأيت حين حملت به انه خرج مني نور اضاء لي قصور بصرى من ارض الشام، ثم حملت به فوالله ما رأيت من حمل قط كان اخف ولا ايسر منه، ووقع حين ولدته وانه لواضع يده بالأرض رافع رأسه إلى السماء، دعيه عنك وانطلقي راشدة.

ويقول ابن اسحق: وحدثني ثور بن يزيد عن بعض اهل العلم ان نفراً من اصحاب رسول الله قالوا له: يا رسول الله اخبرنا عن نفسك قال: نعم انا دعوة ابراهيم، وبشرى اخي عيسى ورأت امي حين حملت

---

(١) سطت اللبن والدم اسوطه إذا ضربت بعضه ببعض وحركته.

(٢) أصل الظئر الناقة التي تعطف على ولد غيرها فتدر عليه ثم أطلق على المرأة التي ترضع ولد غيرها.

بي أنه خرج منها نور اضاء لها قصور الشام ، ، استرضعت في بني سعد بن بكر ، فبينا انا مع اخ لي خلف بيوتنا نرعى بهما لنا إذ أتاني رجلان عليهما ثياب بيض بطست من ذهب مملوءة ثلجاً فاخذاني فشقا بطني ، واستخرجا قلبي فشقاه ، فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج حتى انقياه ، ثم قال احدهما لصاحبه : زنه بعشرة من أمته ، فوزنني بهم فوزنتهم ، ثم قال زنه بمئة من أمته ، فوزنني بهم ، فوزنتهم ثم قال : زنه بالف من أمته ، فوزنني بهم فوزنتهم فقـــال : دعه عنك فوالله لو وزنتـــه بامتة لوزنها[1] .

يقول ابن أسحق : ثم إن أبا طالب خرج في ركب تاجراً إلى الشام فلما تهيأ للرحيل وأجمع المسير صب[2] به رسول الله فيما يزعمون فرق له وقال : والله لأخرجن به معي ولا يفارقني ولا أفارقه ابداً ، او كما قال : فخرج به معه . فلما نزل الركب بصرى من أرض الشام وبها راهب يقال له بحيرى في صومعة له ، وكان اليه علم أهل النصرانية ، ولم يزل في تلك الصومعة منذ قط راهب اليه يصير علمهم عن كتاب فيها وفيما يزعمون ، يتوارثونه كابراً عن كابر ، فلما نزلوا ذلك العام ببحيرى ، وكانوا كثيراً ما يمرون به قبل ذلك فلا يكلمهم ولا يعرض لهم ، حتى كان ذلك العام ، يزعمون أنه رأى رسول الله وهو في صومعته في الركب حين أقبلوا وغمامة تظله من بين القوم قال: ثم أقبلوا فنزلوا في ظل شجرة قريباً منه،

---

(١) سيرة النبي . دار الريحاني . بيروت ص : ٦٣ – ٦٦

(٢) كلف به .

فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشجرة وتهصرت[1] أغصان الشجرة على رسول الله حتى استظل تحتها ، فلما رأى ذلك بحيرى نزل من صومعته ثم أرسل اليهم فقال: أني قدصنعت لكم طعاماً يا معشر قريش، فانا أحب أن تحضروا كلكم صغيركم وكبيركم ، عبدكم وحركم ، قال له رجل منهم : والله يا بحيرى إن لك لشأنا اليوم، ما كنت تصنع هذا بنا وقد كنا نمر بك كثيراً ! فما شانك اليوم ؟ قال له بحيرى : صدقت ، قد كان ما تقول ، ولكنكم ضيف ،وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاماً فتاكلوا منه كلكم ، فاجتمعوا إليه وتخلف رسول الله من بين القوم ، لحداثة سنه ، في رحال القوم تحت الشجرة ، فلما نظر بحيرى في القوم ولم ير الصفة التي يعرف بها ويجد عنده قال : يا معشر قريش ، لا يتخلفن أحد منكم عن طعامي ، قالوا له : يا بحيرى ، ما تخلف عنك أحد ينبغي له أن يأتيك إلا غلام وهو أحدث القوم سناً فتخلف في رحالهم ، فقال لا تفعلوا أدعوه فليحضر هذا الطعام معكم ، قال : فقال رجل من قريش مع القوم : واللات والعزى إن كان للؤم بنا أن يتخلف ابن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا ثم قام إليه فاحتضنه ، وأجلسه مع القوم ، فلما رآه بحيرى جعل يلحظه لحظاً شديداً وينظر إلى اشياء من جسده ، وقد كان يجدها عنده من صفته حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا قام إليه بحيرى فقال له : يا غلام أسالك بحق اللات والعزى إلا ما أخبرتني عما أسالك عنه ، وإنما قال بحيرى له ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما. فزعموا

---

(١) مالت وتدلت

أن رسول الله قال: لاتسألني باللات والعزى شيئاً، فو الله ما ابغضت شيئاً قط بغصهما فقال بحيرى: فبالله إلا ما أخبرتني عما أسالك عنه، فقال له : سلني عما بدا لك، فجعل يسأله عن أشياء من حاله، من نومه، وهيئته، وأموره فجعل رسول الله يخبره، فيوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته، ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضع من صفته التي عنده . (قال ابن هشام : وكان مثل اثر المحجم[1]) .

فلما فرغ أقبل على عمه أبي طالب فقال له : ما هذا الغلام منك؟ قال : إبني، قال له بحيرى : ما هو بابنك، وما ينبغي هذا الغلام ان يكون أبوه حياً، قال فإنه ابن أخي، قال : فما فعل أبوه؟ قال: مات وأمه حبلى به، قال: صدقت فارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه يهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغُنّه شرا، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم فأسرع به إلى بلاده، فخرج به عمه أبو طالب سريعاً حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام[2] » .

---

(١) الة يحجم بها .

(٢) سيرة النبي ص : ٦٩ — ٧١

٣ ـ زواج محمد من خديجة

زواج محمد من خديجة بنت خويلد بن سعد مرحلة فاصلة في القسم الأول من حياة محمد. تحدثنا الروايـــة أن خديجة سمعت عن امانة محمد وخلقه السامي وأنه موضع الثقة. إستخدمته كوكيل عنها في قافلة إلى سورية. وكانت قد تزوجت مرتين ـ وكان زوجها الثاني من مخزوم، وكانت تتاجر لحسابها الخاص، ولقد بلغ من رضى خديجة وتأثرها بشخصية محمد أنها عرضت عليه الزواج فرضي. ويقال إنها كانت آنئذ في الأربعين من عمرها ومحمد في العشرين.

وربما كان عمر خديجة فيه شيء من المبالغة. وتذكر المصادر اسماء الأولاد السبعة الذين أنجبتهم من محمد: القاسم، رقيه، زينب، أم كلثوم، فاطمة، عبد الله (الطيب) الطاهر، وتوفى الذكور في طفولتهم[1].

ولو فرضنا أنهم ولدوا بمعدل ولد في كل سنة فتكون خديجة في الثامنة والاربعين من عمرها عند ولادة الأخير، وليس هذا مستحيلا ولكنه غريب يثير التعليق وهو من الامور القابلة لأن تصبح فيما بعد معجزة. ولكننا لا نعثر على أي تعليق بهذا الصدد في كل صفحات ابن هشام وابن سعد والطبري.

---

(١) ابن سعد ج ١ ١ ١ – ٨٥، ج ٢ ص ١٢١، حيث يذكران الطاهر هو اسم لعبد الله.

خطا محمد ، بذلك ، في نظر المجتمع المكي أولى خطواته لارتقاء سلم النجاح ـ وربما لم تكن خديجة بهذا الثراء الذي نسمع عنه ـ غير أن محمداً أصبح يملك راسمالاً كافياً ليشارك نوعاً ما بالأعمال التجارية . وإذا كنا لا نعرف ما إذا كان قد رحل إلى سورية فإن هذا لا يعني أنه لم يرحل ويمكن أن يكون قد كلف رجالا له بالأشراف على أعماله .

ونستطيع الافتراض أيضاً أنه قد أبعد من دائرة التجار والأعمال التي تدر الأرباح الطائلة . ولكن يستغرب ذلك لأنه استطاع تزويج ابنته زينب من أحد أفراد قبيلة عبد شمس وهو أبن أخ خديجة وكان له دور مهم في التجارة كما ان خطوبة ابنتين من بناته لولدين لأبي لهب ، الفتى ربما كان مشهوراً بانه رجل المستقبل في بني هاشم ، يشير إلى أن محمداً كان هو أيضاً ينظر اليه على أنه أحد شباب القبيلة الذين سوف يبتسم لهم المستقبل .

لن ننتظر من تاجرة مكية في القرن السادس أن لا تهتم بالمسائل المادية ، غير أن كل شيء يحملنا على الافتراض أن خديجة قدرت في محمد كفاءاته الروحية . وهي تجعلنا نشعر بأنها قامت بدور مهم في الأوقات الصعبة من حياته وذلك بتشجيعه على المواظبة في طريقه كنبي . كما أن خديجة كانت ابنة عم رجل يدعى ورقه بن نوفل بن أسد وهو رجل متدين اعتنق أخيراً المسيحية[1] .

---

(١) راجع الملحق ج .

ولا شك ان خديجة قد وقعت تحت تأثيره ويمكن ان يكون محمد قد اخذ شيئاً من حماسه وأرائه.

كانت السنوات التي تلت زواجه سنوات اعداد لعمله في المستقبل. ولم يحفظ لنا شيء عنها يسمح لنا باعادة تكوين مراحل هذا الاستعداد. وأفضل ما نفعل هو ان نقوم ببعض الاستنتاجات مما وصلنا فيما بعد. كهذه الآيات من سورة الضحى (٩٣ و ٦-٨) التي يبدو أنها ترجع لتجارب محمد الاولى.

« ألم يجدك يتيماً فآوى، ووجدك ضالاً فهدى، ووجدك عائلا فأغنى ».

يمكن ان نستنتج من هذه الآيات أن احدى مراحل تفتحه كانت إدراكه ان يد الله قد أخذت بيده بالرغم من مصائب الدهر. وسنعرف بعض الاشارات إلى هذه السنوات الغامضة فيما بعد.

٤ ـ رسالة النبي

أ ـ رواية الزهري.

تقول الروايات إن الله دعا محمداً لأداء رسالة النبوة في الاربعين من عمره. وأخذ يتلقى الوحي من الله. وأفضل نقطة للابتداء هي رواية الزهري مصحوبة بشروح نفس المؤرخ عن فترة انقطاع الوحي. وهذه الرواية ليست متصلة كرواية ابن هشام بل هي تجمع مقاطع وصلت إلى

علم الزهري ، والنص كما وصل إلينا لا يحتوي على تقسيمات . وقد أدخلنا بعض التقسيمات هنا للتسهيل ، وهي تظهر في نص الزهري عند تغير الراوي .

(أ) سمعت النعمان بن راشد يحدث عن الزهري عن عروة عـــن عائشة أنهـــا قالت كان أول ما ابتديء به رسول الله (صلعم) من الوحي الرؤيا الصادقـــة ، كانت تجيء مثـــل فلق الصبح .

(ب) ثم حبب اليه الخلاء فكان بغار حراء يتحنث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله ، ثم يرجع إلى أهله فيتزود لمثلها حتى فجاه الحق فاتاه فقال : يا محمد أنت رسول الله .

(ج) قال رسول الله ﷺ فجثوت لركبتي وأنا قائم ثم زحفت ترجف بوادي ثم دخلت على خديجة فقلت زملوني ، زملوني [1] حتى ذهب عني الروع ، ثم أتاني فقال يا محمد أنت رسول الله .

(د) قال : فلقد هممت أن أطرح نفسي من حالق جبل ، فتبدى لي حين هممت بذلك فقال : يا محمد أنا جبريل وانت رسول الله .

(ه) ثم قال : إقرأ ، وقلت . ما أقرأ ؟ قال : فاخذني فغتني ثلاث مرات حتى بلغ مني الجهد ثم قـــال : إقرأ باسم ربك الذي خلق ، فقرأت .

(و) فاتيت خديجة فقلت : لقد اشفقت على نفسي فأخبرتها خبري. فقالت أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا ، ووالله أنك لتصل الرحم

وتصدق الحدث وتؤدي الأمانة وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق : ثم انطلقت بي إلى ورقه بن نوفل بن أسد . قالت : إسمع من ابن أخيك ، فسألني فاخبرته خبري فقال : هذا الناموس الذي نزل على موسى بن عمران ، ليتني فيها جذع ، ليتني اكون حيا حين يخرجك قومك قلت : امخرجي هم ؟ قال : نعم ، انه لم يجيء رجل قط ، بما جئت به الاعودي ولئن ادركني يومك انصرك نصراً مؤزراً » .

(ز) ثم كان أول ما نزل علي من القرآن بعد « إقرأ » ن والقلم وما يسطرون . ما انت بنعمة ربك بمجنون ، وان لك لأجرا غير ممنون وأنك لعلى خلق عظيم ، فستبصر ويبصرون » و « يا أيها المدثر قم فانذر و « الضحى والليل إذا سجى » (الطبري ج ٢ ص ٢٩٨ ــ ٩٠٩ دار المعارف ١٩٦١) .

(ح) عن الزهري قال : فتر الوحي عن رسول الله (صلعم) فترة فحزن حزناً شديداً جعل يغدو إلى رؤوس شواهق الجبال ليتردى منها فكلما أوفى بذروة جبل ، تبدى له جبرئيل فيقول : انك نبي الله فيسكن لذلك جاشه وترجع اليه نفسه .

(ط) فكان النبي (صلعم) يحدث عن ذلك قال : فبينا انا أمشي يوماً إذ رأيت الملك الذي كان يأتيني بحراء على كرسي بين السماء والأرض فجئت منــه رعبا فرجعت إلى خديجـة فقلت : « زملوني » .

(ي) فزملناه ــ أي دثرناه ــ فانزل الله عز وجل : « يا أيها المدثر قم فانذر وربك فكبر وثيابك فطهر » .

(ق) قال الزهري فكان أول شيء أنزل عليه « إقرأ باسم ربك الذي خلق حتى بلـغ « ما لم يعـلم » (نفس المرجـع ص ٣٠٥ _ ٣٠٦) .

ويروي الزهري ، ويعرف باسم ابن شهاب أيضاً رواية أخرى : « ان جابر بن عبد الله الأنصاري قال : قال رسول الله (صلعم) وهو يحدث عن فترة الوحي : بينا أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض » (نفس المرجع ص ٣٠٦) .

تتحاشى هذه الرواية تغير الراوي من (ي) إلى (ق) بقولها « دثروني » . وهذا مهم لأنه طابع مميز للحديث المروى عن جابر والقائل بأن سورة المدثر (٧٤) أول الوحي[١] .

ولربما كانت المقاطع من (أ) إلى (ح) متتابعة عند الزهري ، ولكنها ليست جميعها مروية عن عائشة . ولكن قطع ابن اسحق لرواية عائشة بعد المقطع الأول في (ب) سببه تفضيل ابن اسحق لروايات أخرى يدل على انقطاع المصدر بالضرورة عند هذه النقطة . ولن نفوز بشيء إذا ناقشنا الأسناد . ولهذا اقترح اعتبار شهادة المقاطع الداخلية ، ودراسة ما يمكن تسميته « معالم » الروايات المختلفة.

---

(١) الطبري ، تاريخ ١١٤٧ وما يتبعها .

ب ـ رؤى محمد

لا نملك أي دليل قاطع للشك في الفكرة الاساسية للمقطع (أ) وهي أن دعوة محمد بدأت « برؤيا حقيقية » وهذا يختلف كلياً عن الاحلام . كما نجد « الرؤى » في المقطع (ب) والمقطع (ي) إذا وضعنا جانباً ظهور جبرائيل في (د) و (ط) .

ويؤيد نص المقطع (أ) ما نعلم من سورة النجم ، ولكنه مشتق بصورة مستقلة عن ملاحظات محمد . ويذكر لنا القرآن رؤيين : والنجم إذا هوى ... ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ، علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالافق الأعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى ، ما كذب الفؤاد ما رأى ، افتمارونه على مايرى ، ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاغ البصر وما طغى لقد رأى آيات ربه الكبرى (٥٣ / ١ – ١٨) .

تفسير المسلمين لهذه الآيات يهيء للاعتقاد بانها تتحدث عن رؤيا جبرائيل ولكن هناك أسباب تحملنا على الاعتقاد بان محمداً قد فسرها على أنها رؤيا الله نفسه ، فنحن لا نجد أي ذكر لجبرائيل في القرآن حتى في الفترة المدنية ، وان الكلمات في (٥ / ١٠) يجب أن تعني « عبد الله » كما يعترف به المسلمون . ولكن هذا يجعل الجملة غير مستقيمة إلا إذا كان الله فيها الفاعل الضمني للافعال . والجملة في نهاية المقطع (ب) « حتى فجأه الحق فقال » لها نفس القيمة لأن « الحق » وسيلة للاشارة إلى الله :

ويمكن تفسير المقطع (ج) بنفس الطريقة ، لأن النص هو « ثم اتاني فقال « وكذلك بعض الروايات المتعلقة بسورة المدثر عن جابر تقول عن محمد : « سمعت صوتاً يناديني ، فتلفت حولي فلم أر أحداً فرفعت رأسي فرأيته هناك جالساً « على عرش [1] ».

وربما كان ذلك تفسير محمد نفسه ، ولكننا لا نستطيع الادعاء بانه اتبع ذلك دائماً لانه على عكس (٦/١٠٣) « لا تدركه الانصار » . وإذا كانت سورة النجم يمكن ان تفسر بهذا الشكل ، فإنها يمكن تفسيرها بشكل آخر ، ولا شك ان القول : « لقد رأى من آيات ربه الكبرى » لا يعني رؤيا الله . ولكن يبدو أنه يمكن تفسير ذلك بمعنى ان ماراه محمد كان آية أو رمزاً لجلالة الله . والآية (١١) « ما زاغ البصر وما طغى » (وربما اضيفت فيما بعد [2]) توحي بتطور لاحق لهذه النظرية ، أي حينما كانت الانظار ترى الآية أو الرمز ، كان القلب يدرك الشيء الذي يرمز إليه .

ولو ان محمداً فسر ، في الاصل ، الرؤيا على أنها رؤيا مباشرة لله فإن هذا يعني إذن أنه لم يخطىء في الشيء الاساسي ، وان كان تفسيره لم يكن صحيحاً تماماً ، وربما كان يجب تفسير الاية هكذا : لم يخطىء القلب فيما رآه هو كانسان ، وبهذه الطريقة ، يمكن تجنب جعلها رؤيا جبرائيل ،

---

(١) البخاري ، ٦٥ ، ٧٤ ج ١ ، كذلك الطبري ، تاريخ ١١٥٣ ، ذكره ر . بل دعوة محمد ، في MW ، ٢٤ ، ١٩٣ ص ١٢ — ١٩ ، كذلك نولدكه ، وشفالي ، ١ ، ٢٣ ، واهرلس ، محمد ص ٣٩ .

(٢) بل : تفسير القرآن .

كما تتجنب وجهة نظر المسلمين السنة الذين يقولون بان محمداً لم ير الله[1].

وليس لتفسير الرؤيا الشكلي ، في سيرة محمد ، الاهمية التي نجدها بالنسبة لنموه الديني . وسنتحدث عن ذلك حين نعود للحديث عن « أنت رسول الله » .

ويدعى كارل اهرنس[2] أن « الرسول الكريم » في (٨٧ / ١٩) كان في الاصل يعني « الروح » ويذكر في تأييد ذلك الاسباب التالية : لا نجد ذكراً لجبرائيل في السور المكية بل نجد ذكر « الملائكة » « تنزل الملائكة والروح فيها » (٩٧ / ٤) راجع أيضاً (٢٦ / ١٩٣) « نزل به الروح الامين » .

وهذا يتفق مع النظرة التي شرحناها هنا .

ج- رؤيا حراء ، التحنث

أن زيارة محمد لحراء ، وهو جبل قريب من مكة ، بصحبة عائلته أو بدونها ، ليست مستخيلة ، ويمكن أن يكون ذلك للفرار من اقوات المدينة خلال فصل الصيف للذين لا يستطيعون التوجه إلى الطائف ، ويمكن للتأثير اليهودي المسيحي ولا سيما مثل الرهبان ، أو تجربة شخصية لمحمد أن يكون قد أثار فيه الحاجة للخلوة والرغبة فيها .

---

(١) راجع حديث عائشة ، بخاري ، ٦٥ ، ١ — ٥٣ .

(٢) محمد ، ١ ، ٤

وليس المعنى الدقيق والمشتق « للتحنث » واضحاً . وإن كنا ، بصورة بديهية ، بصدد بعض طقوس العبادة. ولربما كانت أفضل فرضية هي فرضية هـ . هرشفلد[1] بالاعتماد على اللفظ العبري « تحنوث » (tehinnôth) أو « تحنث » (téhinnoth) الذي يعني « الصلاة لله » . ويمكن لهذا المعنى أن يكون قد تأثر بالجذر العربي ، حنث تعني نقض القسم والعهد ، أو العجز عن تنفيذه ، كما تعني بالمعنى العام الخطيئة ، والتحنث يعني « القيام بعمل للفرار من خطيئة أو جريمة » واستعمال كلمة « التحنث » هنا ربما كان دليلا على أن المادة قديمة فهي بذلك صحيحة[2] .

وربما استطعنا أن نتم هذا العرض الموجز بما سبق الدعوة وأول ما نزل من الوحي ، ولا بد أن محمداً قد عرف منذ شبابه بعض المشاكل الاجتماعية والدينية في مكة .ولا شك أن وضعه كيتيم قد أطلعه على القلق السائد في المجتمع ، وربما كانت أفكاره من وجهة النظر الدينية ترجع إلى التوحيد الغامض الذي نلاحظه عند المكيين المثقفين،ولكن يضاف إلى ذلك أنه ولا شك فكر ببعض الاصلاح في مكة ، وكان كل ما يحيط به يساعد على أن يوحي إليه بأن هذا الاصلاح يجب أن يكون أولا إصلاحاً دينياً . ولهذا نرى محمداً يصبو إلى الخلوة للتفكير في الامور الإلهية والقيام ببعض العبادات، وربما كان ذلك للتكفير عن الخطايا ، وربما سبق هذه « العزلة »

---

(١) أبحاث جديدة في تأليف القرآن وتفسيره ، لندن ١٩٠٢ ، ص ١٠

(٢) قابل كايتاني حوليات ، ج ١ ص ٢٢٢ ، رقم ٢

بعض التجارب الدينيه ، ولكننا لا نعرف عنها شيئاً . وتوحي الروايات بان الرؤيا حدثت أثناء العزلة . ولكن تواريخ مختلف جوانب دعوة محمد غير أكيدة . تارة تقول بان الرؤيا كانت غير منتظرة ، وتارة يبدو أن خديجة كانت قريبة منها .

د ـ أنت رسول الله .

تتكرر هذه الكلمات أربع مرات في مقاطع الزهري في ب ، ج ، د ، ط ، في المقطعين الأخيرين يتحدث جبرائيل وفي الاول «الحق» وفي الثاني «هو» وتختلف المناسبات في المقاطع الاولية . ومن ثم أفلا يمكن لهذه الروايات الاربع أن تكون لها علاقة بمختلف جوانب الحادث الذي ترويه ؟

ان ذكر جبرائيل لا يستحق الثقة في البدء ، لاننا لا نجد هذا الذكر كثيراً في القرآن . وتبدو الوقائع ، لاول وهلة ، على نوعين على الاقل : النص (ب) مع النص (ج) يمكن أن يصورا الدعوة إلى النبوة ، بينما (د) و (ط) يبدوان كتاكيد لهذا مع السعي لتطمينه وازالة قلقه .

وإذا كان النص (ب) يرجع للدعوة الاولى فما هي علاقته بالرؤيا ؟ أن وصف الرؤيا الاولى في سورة «النجم» يأتي في مقطع يرد على بعض الاعتراضات التي أثارها المكيون حول حقيقة الوحي الذي نزل على محمد ولا شك أن محمداً كان قد أعلن هذا الوحي مرة أو اكثر . وحديث الرؤيا في هذا النص يدل على أن لها علاقة ما بالوحي . وليس هناك ما يدل على أن

سماع المقاطع كان يصحب الرؤيا ، وفي الحقيقة لو أن أكثر من هذين المقطعين كان موضع التساؤل لاصبح ذلك مستحيلا . ويبدو أن النتيجة العملية للرؤيا هي شيء اكثر شمولاً كالشعور بان هذه المقاطع هي رسائل من عندالله وانه كان على محمد أن يعلنها أمام الناس ، وهذا يفترض أن محمداً كان قد نزل عليه الوحي سابقاً ، ولكنه لم يكن واثقاً من طبيعة الوحي الذي ينزل عليه ، وقد أخبر الآن او انه تلقى تاكيداً بصدده . ويمكن ان تكون الرؤيا ، من ناحية ثانية ، دعوة لطلب الوحي ، كما يمكن أن يكون محمداً قد عرف شيئاً ما عن الوسائل الخاصة لأثارته – والافتراض الاخير هو الأقرب . ويجب أن نلاحظ بصدد هذا أن ما[1] كان يوحى إليه كان « مسلكه العملي » الذي يسير عليه . ومعنى الرؤيا ، في هذه الحالة ، معنى عام ، يتفق تماماً مع النص (ب) ويمكن ان لا تكون كلمات « رسول الله » تعبيراً خارجياً كما يمكن ان لا تكون تعبيراً خيالياً بل تعبيراً فكرياً ، اي انه لم يسمع ولم يخيل إليه انه يسمع ، إذ ان هاتين الكلمتين كانتا تعلنان عن رسالة وصلته بدون كلمات . فصورة الكلمتين لاحقة للرؤيا .

هل يمكن لمغامرة من هذا النوع ان تتكرر ؟

ليس هذا مستحيلا تماماً ، ويتضمن جمع الرؤيين في سورة النجم بعض الشبه في محتواهما . ولا نجد ، من ناحية ثانية ، اي ذكر للوحي في وصف الرؤيا الثانية ، ومن المتفق عليه عادة أننا بصدد إشارة إلى الجنة

---

(١) ر . بل ، « رؤى محمد » في MW ، ١٩٣٤ ، ص ١٤٥ — ٥٤

ولا تساعدنا المقاطع (ج) و (د) و (ط) باي شكل . وليس المقطعان الأخيران نداءاً لمحمد أكثر منهما تاكيداً وتذكيراً بالنداء الأول . ومن الطبيعي الافتراض أن محمداً قد تذكر رؤياه الاولى في ساعات الشقاء .

وربما ساورته الفكرة في ساعة الشدة فنسب ذلك لتدخل خارق . ومهما كانت الوقائع بصدد ذكريات من هذا النوع ، فإنه ليس لها اهمية التجربة الاصلية .

هـ ـ « إقرأ »

تتضمن الرواية المتعلقة بوحي سورة العلق (٩٦) عدة اشكال . ويظهر احد هذه الاشكال من خلال المقطع (هـ) للزهري . ويجب تفسير قول محمد « ما أقرأ » في رده على قول الملك « إقرأ » ، ب « لا أستطيع القراءة » أو « التلاوة » . يتضح لنا ذلك من وجود رواية تقول : « ما أنا بقارىء[1] » وفي التمييز عند ابن هشام « ما اقرأ » و « ماذا اقرأ » حيث التعبير الثاني لا يمكن أن يعني إلا : « ماذا أتلو » وهذا هو المعنى الطبيعي لقوله : « ما أقرأ » ، ويبدو من المؤكد ، تقريباً ، ان المفسرين التقليديين اللاحقين تجنبوا المعنى الطبيعي لهذه الكلمات ليجدوا اساساً للعقيدة التي تريد أن محمداً لم يكن يعرف الكتابة ، وهذا عنصر رئيسي للتدليل على طبيعة القرآن المعجزة ، ويحتوي رواية عبد الله بن شداد في

---

(١) بخاري ٦٥ ، ل : قرآن ٩٦ .

تفسير الطبري يفترض ، إذا كان النص صحيحاً ، ان « ما » بمعنى « ماذا » لانها مسبوقة بالواو .

إن كلمتي « قرأ » و « قرآن » هما من الكلمات الدينية التي ادخلتها المسيحية إلى شبه الجزيرة العربية وتعني قرأ مثلا نصوصاً مقدسة ، بينما « قرآن » هي « كريانا » السورية استعملت للدلالة على « القراءة » ودرس من الكتابات المقدسة[1] . وبينما اصبح معنى اللفظ الثاني « قرأ » فإن له في هذه السورة ، كما يبدو ، معنى « تلا عن ظهر قلب » أي من الذاكرة التي وصلته بصورة خارقة . علا من كان على محمد أن يتلو ، وفي أية مناسبة ؟ لا نجد مناقشة واضحة لهذه المسألة عند القدماء والتفسير الطبيعي ان محمداً كان عليه أن يتلو ما يتبع ذلك كجزء من عبادة الله الشكلية . وهذا يتفق مع استعمال الكلمة في اللغة السريانية وأن المسلمين يسمون تلاوة سورة أو عدة سور في صلاتهم « قراءة » . كما يجب أن نلاحظ ان في رواية عبد الله بن شداد المشار إليها سابقاً ، الجواب على السؤال : ما اقرأ ؟ ، ليس ، « اقرأ باسم من » بل « باسم من » . فهل كان ذلك بداية ل « بسم الله » .

وليس هناك من اعتراض فعلي على رأي فقهاء الإسلام القائل بان هذه السورة هي أول ما أوحي من القرآن . ولا يعارض أي مقطع آخر قول سورة العلق[2] فالامر بالعبادة هو أول ما يمكن انتظار صدوره بالنسبة لمحتوى رسالة القرآن الرئيسية[3] . وكلمة « اقرأ » موجهة إلى محمد

---

(١) بل ، أصول ، ٩٠ وما بعدها ، تولدكه - شفالي ، ج ١ ، ٨٢

(٢) نفس المرجع ٧٨

(٣) راجع الفصل الثالث .

بمفرده، وان لم يكن صعباً جعلها موجهة إلى اتباعه ، لان فكرة الاتباع لم ترد على فكره ساعة الوحي ، أي انها ترجع إلى فترة سابقة على الفترة التي بدأ فيها بدعوة الآخرين ، وليس من المستبعد، طبعاً ، ان محمداً كان قد تلقى دعوات أخرى لم يعتبرها جزءاً من القرآن. نجد مثالا على ذلك في الكلمات « أنت رسول الله » .

و – سورة المدثر ، الفترة .

هناك رواية عن جابر بن عبدالله الانصاري تقول إن الآيات في مقدمة سورة « المدثر » هي أول ما نزل من الوحي وهي الآيات التي تقول : « قم فانذر » وتبدو كأمر للعمل كنبي او رسول، ولكنها لا يمكن أن تكون أول ما نزل من الوحي إلا إذا كان محمد قد نهض بدعوته العامة دون اية فترة في الاعداد . أما إذا كان هناك ، على العكس ، فترة اعداد نزل فيها الوحي ، فإن هذه الكلمات لا يمكن ان تكون أول الوحي . وقد رأينا ان « اقرأ » لا تتضمن بالضرورة رسالة عامة . واستمرار هذه الرواية بالرغم من الرأي العام القائل بأن اول الوحي هو سورة « العلق » يوحي بأنها تتضمن شيئاً من الحقيقة . والأقرب أن تكون تعبيراً عن بداية دعوته للناس .

وفي الروايات أدلة قوية على التمييز بين الرسالة العامة والرسالة الخاصة . يقول ابن أسحق[1] « ثم إن الله امر رسوله ان يصدع بما جاء منه ، وان يبادي الناس بأمره وكان بين ما اخفى رسول الله امره

---

(١) سيرة النبي ص ١١٣

واستتر به إلى ان امره الله تعالى باظهار دينه ثلاث سنين من مبعثه » .

ونسمع في مكان آخر انه قبل السنوات العشر في مكة حين نزل الوحي على محمد بواسطة جبرائيل، مضت ثلاث سنين كان الوحي ينزل فيها على يد اسرافيل[١] . وتوصف بداية هذه السنوات بأنها كانت فترة مجيء النبوة، كما توصف بداية السنوات العشر على انها فترة مجيء الرسالة[٢] .

ونستطيع القول، بالنظر إلى الاجماع الواسع وامكان الحدوث ، بوجود اختلاف بين هاتين المرحلتين في نشاط محمد وان التواريخ المذكورة عادة صحيحة . اما تحديد طبيعة هذا الاختلاف فهو صعب لانهم ، يقولون : بأن المسلمين الاول اعتنقوا الاسلام في الفترة الاولى .

ثم تعقدت القضية بسبب الفترة او انقطاع الوحي كما راينا في (ط) . فإذا قابلنا نصّي (ي) و (ق) ونص الزهري لرواية جابر مع رواية جابر على لسان يحيى بن كثير يظهر بوضوح ان الزهري يدخل الفترة ليجعل هذه الرواية تتفق مع الرأي القائل بأن سورة العلق هي أول ما نزل من الوحى . ونلاحظ دليلا آخر على الفترة . فابن اسحق يجعلها

---

(١) طبري تاريخ ، ١٢٤٨ وما بعدها .

(٢) كايتاني، حوليات ج١ ، ٢١٨ - ٢٠

(٣) طبري ، ١١٥٥ وما بعدها .

(٤) نفس المرجع ١١٥٣ .

(٥) ابن هشام ١٥٦ .

تُسبق بنزول سورة الضحى . وتجربة مثل هذه ممكنة بذاتها . ولكن يستبعد ان تكون قد استمرت ثلاث سنوات . وربما كان ذلك بسبب الخلط بينها وبين فترة الرسالة الخاصة . توحي لنا هذه الاعتبارات بأنه ربما حدث انقطاع في التجربـــة الدينية عند محمد . وقول الزهري انه وقع مباشرة قبل بداية تبليغ الرسالة ممكن .

معنى كلمة « مدثر » عادة « متلفع بدثار أو دثار » فإذا كان ذلك صحيحاً فإن له علاقة بتلقي الوحي ، وذلك إما بتسهيل نزول الوحي أو بحماية الجسد الإنساني من خطر الرؤيا الإلهية[1] . وهناك ، من ناحية ثانية ، بعض الكلمات المشابهة توحي بفكرة التخفي وتطلق على الشخص المغمور . ولهذا اهميته هنا إذا كانت الاسباب التي دعت محمداً للتردد ترجع إلى انه لم يكن سوى شخص لا اهمية له .

الصورة التي تبدو لنا، إذا جمعنا هذه التفاصيل هي التالية : مرت على دعوة محمد كنبي فترة اعداد خلال ثلاث سنوات . فأخذ يتلقى الوحي . ونسمع في الروايات الخاصة باسرافيل ان محمداً « كان يسمع صوتـه دون أن يرى وجهه » .

ويمكن أن يكون الجزء الأول من سورة العلق وسورة الضحى من بين ما نزل آنئذ . وربما نزلت بعض الآيات ذات الطابـع الشخصي فلم يعتبرها محمد جزءاً من القرآن ، وفي نهاية هـــذه السنوات الثلاث جاءت الفترة .

ولقد حدث الانتقال من الدعوة الخاصة إلى الدعوة العامة في الوقت

---

(١) نولدكه شفالي ج ١ ، ٨٧ ، وفلهوزن Re ste ١٣٥ ، رقم ٢ .

الذي ورد فيه في الوحي ذكر لقب « رسول الله » وسورة « المدثر » ، (وان كانت علاقة هذه السورة مع الرؤيا لا تبدو بوضوح في الروايات التقليدية بسبب طابعها التاليفي) فنحن ننتظر من محمد أن يتحدث عن مسائل دينية أمام اصدقائه المخلصين خلال فترة الاعداد، وانه لمن الغريب أن يكون له اتباع قبل أن يعلن أمام الناس أنه رسول الله . ويبقى الشك في أهميـــة المرحلة الأعـــدادية في مكة حسب الروايات التقليدية .

ز ـ خوف محمد ويأسه .

نعثر على عدة إشارات لازمات الخوف عند محمد في مقاطع الزهري . ونستطيع التمييز بين نوعين من الوقائع ، الخوف اولاً من ظهور الله أو حضوره (ج ، و ، ي) وما تملكه من يأس ، ثانياً : حتى ساورته افكار الانتحار (د ، ط) .

والخوف من الاقتراب من الله له جذور عميقة في العقلية السامية كما يشهد عليه العهد القديم. والروايات التي تذكر ذلك (راجع ج ، ي)، كما يبدو، تصدر عن تفسيرات للفظ « المزمل » (٧٣ / ١) وهذا يوحي بان المفسرين اللاحقين كانوا يعتمدون على القرآن في الحديث عن هذا الخوف ولم يكونوا يملكون أية معلومات أخرى بهذا الصدد خارج القرآن ـ والانتقال الفاشل من « زملوني » إلى « المدثر » يـــدل على أن تفسير « المزمل » كان في الأصل لا علاقة له قط بقصة رسالة محمد وأن هذه العلاقة المفروضة قد ادخلت فيما بعد . وربما بدا ، من ناحية ثانية ، من

الطبيعي لهؤلاء المفسرين اللاحقين أن يفسروا « المزمل » على هذه الصورة لأن الخوف أمام الانبثاق الإلهي كان منتشراً فكان على محمد أن يشعر به هذا كل ما يمكننا قوله .

ويمكن مقارنة مشاعر الخوف مع أنبياء العهد القديم وحياة القديسين المسيحيين . ألم تكتب القديسة تيريز دي افيلا تقول :

« كانت الكلمات ،وما لها من قيمة وما تحمله من تأكيد ، تقنع الروح بانها صادرة عن الله . ولقد ولى هذا الزمن الآن . واستيقظ الشك يحمل على التساؤل عما إذا كانت الجمل تأتي من الشيطان أو من الجبال وإن كان السامع لها لا يشعر باي شك حول صحتها التي يود الموت في سبيلها[1] »

ومن الصعب ، مع ذلك ، ان ننسب افكار الانتحار لمحمد ، إلا إذا كان قد صرح بوضوح بما يحمله على ذلك وفي هذا تجاوز لتفسير سورة الضحى • غير أن فترة انحطاط عصبي ، على العكس ، تتفق مع الشواهد المتعلقة « بالفترة » . وهذا يمدنا ، إذن ، بمعلومات حقيقية عن محمد .

ط ـ تشجيع خديجة وورقه :

لا شيء يحملنا على رفض الخبر الذي يروي كيف أن خديجة طمانت

Interior Castle, Sixthe Mansion III. 12 cité d'après Poulain. Graces of Interior Prayer 1304 SV

محمداً . ومن البديهي أنه كان يفتقر إلى الثقة بنفسه في هذه الفترة ، وكان من الصعب عليه أن يخترع ذلك وإن كنا مدينين للاستنتاج والتخيل ببعض التفصيلات التي تدل على ذلك .

وتشجيع ورقة مهم . وليس هناك من سبب للشك في صحة الجملة بصدد الناموس. واستعمال اللفظ ، الذي لا يرد في القرآن ، بدلا من لفظ « التوراة » القرآني دليل على صحة القول .

وأما بقية القصة ، من ناحية ثانية ، فهي تشعرنا بمحاولة لتفسير السبب الذي من أجله لم يصبح ورقة مسلماً . ولسبب آخر مشابه ، فإن النص الذي يجمع بين محمد وورقة أفضل من النص الذي يجعلهما لايلتقيان. وهناك بعض الروايات التي تجعل موته بعد سنتين أو ثلاث على قيام محمد بالرسالة وبعضها يجعله بعد أربع سنوات[1] .

تعتبر كلمة « ناموس » عادة مشتقة من كلمة « ناموس » Nomos اليونانية[2] وهي تعني إذن « الشريعة » أو « الكتب المقدسة » .

وهذا يتفق تماماً مع ذكر موسى. وقد أبدى ورقة ملاحظة بعد أن أخذ محمد يتلقى الوحي وهي تعني أن ما نزل على محمد مماثل لكتب اليهود والمسيحيين المقدسة . كما أن محمداً سمع ما يوهمه بانه مؤسس أمة ومشرع لها ، وإذا كان محمد ، كما يبدو ، متردداً بطبعه ، فإن هذا التشجيع باقامة بناء ضخم عـــلى تجاربـه يرتدي أكبر اهمية لتطوره الداخلي .

---

(١) كايتاني ، حوليات ج ١ ص ٢٣٨ و ٢٦٠

(٢) نفس المرجع ص ٢٢٢ رقم ٦

وتعترضنا صعوبة صغيرة فيما يتعلق بالتواريخ . فالكلمات التي تختتم أول ما نزل من الوحي « علم بالقلم ، علم الإنسان ما لا يعلم » هي من الوحي السابق . ويفسر المسلمون القول السابق بأنه يعني « علم استعمال القلم » وليس لهذا من فائدة إذا كان محمد لا يعرف القراءة والكتابة ، ويبدو ورقة من بين الذين اتصل بهم محمد لسبب معرفتــه بكتب المسيحية المقدسة[1] . ولا شك أن المقطع القرآني ، حين ردده محمد ، قد ذكره بما هو مدين به لورقة .

ومن المغري أن نفكر بان هذا كان نتيجة لملاحظة ورقــة بصدد الناموس ، ولكن هذا يتطلب وحياً سابقاً على مقطع « إقرأ » ليغذي تلك الملاحظة . ولهذا فمن الأفضل الافتراض بأن محمداً كان قد عقد صلات مستمرة مع ورقة منذ وقت مبكر وتعلم أشياء كثيرة . وقد تأثرت التعاليم الاسلامية اللاحقة كثيراً بافكار ورقة . وهذا ما يقود بنا إلى طرح مشكلة العلاقــة بين الوحي الذي نزل على محمد والوحي السابق له ★ .

ق ـ الخلاصة :

يوجد كثير من عدم الاطمئنان حول الظروف التي صحبت دعوة محمد ومن الممكن إذا محصنا أقدم الروايات ان تنتهي إلى رسم صورة عامة جديرة بالثقة ، وإن كانت مختلف التفاصيل ولا سيما التواريخ غير أكيدة .

---

(١) ابن هشام ١٤٣

★هذا رأي خاص بالمؤلف لا يشاركه فيه طبعاً المعرب .

ل - صورة الوعي النبوي عند محمد :

منذ أن قام كارليل بدراسته عن محمد في كتابه « الأبطال وعبادة البطـــل » أدرك الغرب أن هناك أسباباً وجيهــة للاقتناع بصدق محمد[1] .

إذ ان عزيمته في تحمل الاضطهاد من أجل عقيدته ، والخلق السامي للرجال الذين آمنوا بـه ، وكان لهم بمثابة القائـد ، وأخيراً عظمة عمله في منجزاته الأخيرة ، كل ذلك يشهد باستقامته التي لا تتزعزع . فاتهام محمد بأنه « دجال » (*ImPosteur*) يثير من المشاكل أكثر مما يحل . ومع ذلك فليس هناك شخصية كبيرة في التاريخ حُط من قدرها في الغرب كمحمد. فقـــد أظهر الكتاب الغربيون ميلهم لتصديق أسوأ الامور عن محمد وكلما ظهر أي تفسير نقدي لواقعة من الوقائع ممكناً قبلوه . ولا يكفي ، مع ذلك ، في ذكر فضائل محمد أن نكتفي بأمانته وعزيمته إذا أردنا أن نفهم كل شيء عنده . وإذا أردنا أن نصحح الأغلاط المكتسبة من الماضي بصدده فيجب علينا في كل حالة من الحالات ، لا يقوم الدليل القاطع على ضدها ، ان نتمسك بصلابة بصدقـه . ويجب علينا أن لا ننسى عندئذ أيضاً ان الدليل القاطع يتطلب لقبوله أكثر من كونه ممكناً وانه في مثل هذا الموضوع يصعب الحصول عليه . ولا يجب مناقشة نظريات المؤلفين الغربيين الذين افترضوا كذب محمد كنظريات وإن كان يمكن النظر في

---

(١) تور اندره . محمد ، الانسان وعقيدته ، لندن ١٩٣٦ ص ٩٦،٦٣ ، ٢٢٩ ، ٢٣٣، ٢٥٩ ، ٢٦٨ *W.Thomson* في *MW* ٤٤ ، ١٩٤٤ ص ١٢٩.

الحجج التي يذكرونها للتدليل على كذبه .

وإذا اتخذنا موقفاً يقوم على الاعتماد ما أمكن على الثقة بصدقه ، يجب علينا اولا أن نميز القرآن عن الوعي السوي لمحمد لأن التمييز كان شيئاً أساسياً بالنسبة له .

فقد ميز ، منذ البداية ، بعناية ، كما كان يعتقد ، بين ما ينزل عليه من مصدر خارق وبين ما يصدر عن أفكاره الخاصة . اما كيف قام بهذا التمييز فإن هذا لا يظهر بوضوح. أما انه قام بهذا التمييز فإنه شيء مؤكد تاكيد الحوادث التاريخية . ونحن لا نتخيله يدخل آيات من تاليفه بين الآيات التي تنزل عليه من مصدر مستقل عن معرفته (كما كان يعتقد) .

ولا شك أنه قام ببعض الجمع والتأليف للمادة الموحى بها كما عين الآيات المصححة لبعض الامور حيث كان يشعر أن مقطعاً ما يتطلب تصحيحاً . وهذا جزء من النظرية الإسلامية السنية ان بعض الآيات قد نسختها آيات أخرى .

وشرح أن محمداً قام بهذا التمييز وتاويله مسالة أخرى لن تعالج هنا لأن من شانها أن تثير مشاكل فقهية . ووجهات النظر الثلاث الرئيسية هي التالية :

يعتقد المسلمون السنيون أن القرآن في أصله من مصدر إلهي باكمله . هو كلام الله غير المخلوق (وان كانت الأصوات ، والكتابات على الورق الخ مخلوقة) . ويعتقد الغربي المدني (أو ربما اعتقد) ، إذا اخذ بالتمييز الذي قام به محمد) ان القرآن هو من صنع شخصية محمد غير الواعية .

ووجهة النظر الثالثة هي ان القرآن من صنع النشاط الإلهي الذي يظهر من خلال شخصية محمد، وبهذا يجب نسبة بعض صفات القرآن إلى طبيعة محمد الإنسانية. وهذا، على ما يبدو، موقف المسيحيين الذين يعترفون بقسم من الحقيقة الإلهية في الإسلام، وإن كانت هذه الحقيقة لم تتحقق فيه تماماً.

وسأقف موقف المحايد من هذه النظريات الثلاث لأنها تتضمن مشاكل خارجة على ميدان المؤرخ.

ولقد حاولت أن أعبر بصورة لا تنكر أية عقيدة أساسية من معتقدات الإسلام، بعيداً عن كل مجاملة. كما استعملت دائماً كلمات مثل «القرآن يقول» وليس «محمد يقول». ومن جهة ثانية حين اشير إلى مقطع نزل على محمد مثلاً فلا يجب أن يعني ذلك موافقة تامة لوجهة النظر الاولى، فأنا استعين بالرواية الإسلامية تاركاً للقارىء أن يتم ذلك ب «كما يقول المسلمون» أو أية جملة أخرى مشابهة. أقول هذا لتجنب أي التباس.

بعد هذا التمييز الموجز بين الموضوعات التاريخيـــة والموضوعات الفقهية فإن من مهمة المؤرخ أن ينظر في المعالم الدقيقة لوعي محمد لتجربة الوحي. كيف حدثت، وكيف وصفها؟ إنها معطيات تاريخية موضوعية مع أنها تتعلق بوعي محمد، ومع أن أوصافه لها تتأثر بنظرياته السابقة حول موضوعات من هذا النوع. وأول ما يجب أن نلاحظه ان الرؤى الموصوفة في سورة النجم نادرة، ويظهر ذلك بوضوح من الطريقة التي

وصفت بها ، يجب علينا إذن أن نبحث في مكان آخر عن صفات الوعي النبوي عند محمد .

ولعله من المفيد ان نلجا هنا إلى بعض الألفاظ التقنية وتكفينا هنا الألفاظ التي استعملها أبولين في كتابه : نعم الصلاة الداخلية

يميز بولين في حديثه عن مظاهر التجربة الدينية التي يسميها تعبيراً او رؤى في الحالتين بين نموذجين داخلي وخارجي . تتضمن التعبيرات الخارجية الكلام الذي تسمعه الاذن وان كان لم يرسل بصورة طبيعية ، وكذلك الرؤى الخارجية (او النظرية) هي رؤى اشياء مادية او تبدو كذلك ، حين تدركها العين . رؤى سورة النجم هي رؤي خارجية ويقسم بولين التعبيرات الداخلية إلى رؤى خيالية ورؤى فكرية ، تتلقى الاولى مباشرة بدون مساعدة السمع ، واما الثانية فهي عبارة عن مجرد اتصال فكري بدون الكلمات او اي شكل من اشكال الكلام المحدد[1] ويمكن للرؤيء الداخلية ان تكون خيالية او فكرية . نستطيع الآن بواسطة هذه المعطيات ان نعود للقرآن والاحاديث .

كانت كيفيات الوحي موضوعاً للبحث عند فقهاء الإسلام . ويذكر السيوطي في « الاتقان[2] » خمس كيفيات مختلفة . وقد ذكر الفقهاء حتى عشر كيفيات . ولا نجد معظم هـــذه الكيفيات إلا في عدد قليل من الحالات . ولا شك أن الكيفيات الرئيسية هي الـــتي ذكرت في سورة

---

(١) نفس المرجع المذكور ٢٩٩ وما بعدها

(٢) القاهرة ١٣٥٤ ، ص ٤٤ نوع ١٦ .

(٣) نولدكه شفاي ج ١ ص ٢٢ .

الشورى (٤٢/٥٠ ـ ٥٢) : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ، إنه علي حكيم ،وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا » .

« الكيفية » الأولى هي التي يتكلم فيها الله بالوحي . نجـــد الاسم « وحي » والفعل « أوحى » كثيراً في القرآن في نصوص لا يصح فيهـــا تفسير معنى الوحي بالاتصال اللفظي المباشر .

ولقد درس ريشارد بل هذه الاستعمالات وخلص إلى القول بأن « وحي » في المقاطع الاولى من القرآن لا تعني إيصال لفظي لنص الوحي بل تعني إيحاء » و « إلهام » يحدث لفكر إنسان ويأتي من الخارج [١] .

ولقد اعتبر ذلك ، في معظم الفترة المكية على أنه من عمل « الروح » « وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين » [٢] ويبدو أن ذكر الملائكة التي تحمل الرسالة (إلى نبي ؟) متاخر عن ذلك [٣] . ولا نجد في الفترة المكية ـ مع ذلك (إذا صح رأيي) أي ذكر « لسماع » النبي ، وإدراكه أن ذلك يأتي من السماء . وربما وجب علينا عندئذ أن نتخيل « الروح » يوصل الرسالة إلى قلب محمد أو عقله بصورة أخرى غير الكلام . ولا شك أننا أمام تعبير داخـــلي من النوع الفكري أكثر منه من النوع الخيالي . ولربما لم يصحب ذلك أية رؤيا حتى

---

(١) رؤى محمد MW XXIV 1934 145–54

(٢) القرآن ٢٥-١٩٢-١٩٤ ، راجع اهرنس « محمد » ص ٤١ وما بعدها

(٣) ١٥-١ ز ٩٧/٤ .

ولو كانت فكرية ، لأن ذكر الروح يشعرنا بأنه نظرية لتفسير التجربة وليس وصفاً لجانب من التجربة .

وربما كان علينا أن ننظر إلى بعض روايات الحديث على ضوء هذه « الكيفية » الاولى . وهكذا نجد في الحديث الثاني من صحيح البخاري [1] .

تتفق جميع الموضوعات المذكورة هنا ، ما عدا ظهور الملاك في صورة إنسان ، مع « الكيفية » الأولى .

ولا شك ان سماع الجرس خيالي ، ولكننا لا نجد أي إشارة إلى سماع كلام أو لفظ كلمات ، حتى ولو كان ذلك بصورة خيالية . ويبدو ، على العكس ، انه وجد في نهاية التجربة ، كلمات الوحي في قلبه .

ومن الواضح ، حسب ما عرضناه سابقاً ، أننا بصدد تعبير عقلي .

ونلاحظ « الكيفية » الثانية حين يتكلم الله إلى الرسول من وراء حجاب . وأول إشارة لهذا نجدها ـ بصدد تجربة محمد في المقطع (ب) من رواية الزهري التي رأيناها سابقاً ، حيث نجد ، حتى فجاءه الحق فاتاه ، فقال يا محمد أنت رسول الله . وتوحي الينا كلمات « من وراء حجاب » إننا لسنا بصدد رؤية المتكلم ، ولكن يبدو ان هذا الامر ، مضافاً إلى ذكر لفظ الكلمات ، تضمن ان الكلمات قد سُمعت وأننا بصدد تعبير خيالي (أو تعبير خارجي) . ولقد نزلت بعض السور الاولى بهذه الصورة

(١) ج ١ ، ٢

ولكننا لما كنا سمعنا قليلا جداً عن هذه « الكيفية » فيجب علينا أن نفترض أنها نزلت « بالكيفية » الأولى . وبهذا نفهم ان « الكيفية » الثانية هي لوصف تجربة موسى .

ونلاحظ « الكيفية » الثالثة حيث يرسل الله رسولا فيوحي بالوحي إلى النبي . ولقد رأى آخر فقهاء المسلمين ان الرسول كان جبريل ، وان هذا ، على خلاف « الكيفية » الاولى يمثل « الكيفية » النموذجية للوحي ، ولقد لاحظ العلماء الغربيون ، من ناحية ثانية ، ان جبريل لايذكر اسمه في القرآن قبل الفترة المدنية [1] وإننا نجد أشياء كثيرة مناقضة لرأي المسلمين وذلك في القرآن والحديث .

ثم يقولون بأن وجهة النظر الاخيرة تدخل نظريات متأخرة في في الفترة الاولى . ويمكن تفسير ذلك بأن الوحي بواسطة جبريل كان مشتركا خلال الفترة المدنية .

إذا أخذنا بذلك ، فإن الوحي كان عندئذ كما يبدو من نوع التعبير الخيالي ، ولكنه مصحوب بدون شك برؤيا عقلية أو خيالية ، لجبريل ، ويوحي قول الحديث « على صورة إنسان » الذي أشرنا اليه سابقاً بأنها كانت رؤيا خيالية .

وليست طبيعة التجارب التي من هذا النوع ، يجب الالحاح على ذلك ، مهمة بالنسبة للفقيه المسلم او المسيحي والتأكيد بأن رؤى محمد كانت

---

(١) ٩١/٢ ٦٦/٤

« أوهاماً » hallucination ، كما قال البعض ، هو إصدار حكم فقهي دون الاطلاع الكافي على ما حدث وبالتالي التدليل على جهل مؤلم بالعلم والرأي السليم لمؤلفين كبولين (Poulain) ولعلم الفقه الصوفي الذي يمثلونه .

إن معرفة ما إذا كانت الرؤى خارجة أو خيالية أو عقلية لا يكون معياراً للحكم على حقيقتها أو صحتها .

ولا شك ان التجارب « الخارجية » أكثر تأثيراً فيمن يهتم بها ولكن التجارب العقلية أسمى لأن العقل أسمى من الحس .

وللمشكلة اهمية أساسية بالنسبة للاشخاص الذين يدرسون علم النفس الديني ومن المفيد ، ولا شك ، مقارنة تجارب محمد بتجارب القديسين والمتصوفين المسيحيين .

أما بالنسبة للفقيه والمؤرخ فإن الشيء الرئيسي هو أن محمداً قد ميز بين ما يوحى اليه وبين أفكاره الخاصة .

وكذلك فليس للمظاهر الجسدية لتلقي الوحي أية أهمية بالنسبة للفقه وإن كانت مهمة من الناحية التاريخية . ولقد أكد أعداء الاسلام غالباً ان محمداً كان مصاباً بالصرع (épileptique) ،وان تجاربه الدينية لهذا لا قيمة لها . ولكن الاعراض الموصوفة لا تشبه أعراض الصرع ، لأن هذا النقص يؤدي إلى تخاذل جسدي وعقلي بينما ظل محمد حتى آخر حياته مالكاً لقواه العقلية . حتى ولو أمكن ادعاء ذلك فإن الحجة تظل مناقضة لكل رأي سليم إذا لم تقم إلا على الجهل والوهم . لأن المظاهر الجسدية الملازمة لا تثبت ولا تنفي قط بنفسها التجربة الدينية .

ومن المهم أن نعرف إذا كان محمد يستخدم طريقة ما لإثارة الوحي[1] ولا نستطيع التاكيد بانه كان يرتدي دثاراً من اجل هذا الغرض . وكل شيء يحملنا على الاعتقاد ان الوحي كان ينزل عليه في بداية الامر بصورة غير منتظرة . ولكنه من الممكن أن يكون فيما بعد وسيلة فنية تنقية « للسمع » وربما كان ذلك بترتيل القرآن أثناء الليل .

أما في المسائل التي يمكنه أن يشك بان نزول الوحي قد تم فإن هذا يدل على طريقة لاكتشاف الآيات الناقصة . ويجب أن تظل تفاصيل ذلك من ميدان الفرض والتخمين . ولكن يبدو من المؤكد ان محمداً كان يستخدم طريقة لتصحيح القرآن، وهذا يعني (حسب رأيه) أن يجد الصورة الصحيحة لما نزل عليه بصورة ناقصة وغير صحيحة . وإذا كان يحدث لمحمد أن يثير تجارب الوحي بواسطة « الاستماع » فإن « التنويم الذاتي » أو أي شيء آخر ليس من اختصاص حكم الفقيه بالصحة أو الصدق .

٦ - توقيتُ الفترة المكيّة

لم ينتبه أي إنسان للتواريخ الدقيقة في الوقت الذي كانت تقع فيه هذه الحوادث ، الضئيلة للنظرة الاولى ، ولكنها في الحقيقة تحتل المكانة الاولى في الاهمية .

---

(١) راجع اهرنس « محمد » ٣٧ ر.ج.ث. ارثر ، العناصر الصوفية عند محمد نيوهفن ص ٧٢و٧٦ الخ .

حتى إذا ظهر الاهتمام ، بعد سنوات ، بالتواريخ انتشرت روايات مختلفة متناقضة ، ولقي العلماء المسلمون صعوبات للتوفيق بينها . ولقد جهدوا للقيام بذلك في المسائل الرئيسية على الاقل ، مع اعترافهم بالشك والاختلاف في المسائل الاخرى. وليست مشكلة التواريخ الصحيحة أهمية حقيقية لفهم حياة محمد. ولن نستفيد شيئاً إذا حاولنا التوغل أكثر مما فعل الكتاب المسلمون في مؤلفاتهم صراحة او ضمناً بهذا الصدد . فالافضل إذن الاعتماد على ما كتبوه .

يقول كايتاني الذي اهتم كثيراً بالمشكلة لان كتابه الرئيسي في صورة حوليات *Annales* .

١ - عرض محمد رسالته سراً خلال ثلاث سنوات على أصدقائـــه الخلص ولم يبدأ بالدعوة العامة إلا في نهاية هذه الفترة .

٢ - في السنة الخامسة كانت الهجرة إلى الحبشة أي في السنة الثالثة بعد بداية الدعوة العامة .

٣ - بدأت مقاطعة بني هاشم بعد الهجرة إلى الحبشة واستمرت من سنتين إلى ثلاث سنوات .

٥ - توفي أبو طالب وتوفيت خديجة بعد نهايـــة المقاطعة وقبل ثلاث سنوات على الهجرة (٦٢٢م) .

ويقول كايتاني فيما بعد أنه إذا أخذنا بالاعتبار الفترات بين الهجرة والمقاطعة ثم بين المقاطعة وموت أبي طالب فإن هذا يتضمن اثنتي عشرة سنة على الاقل فهو يعتمد موقتاً التواريخ التالية وإن كان يميل للاعتقاد بان الحوادث وقعت في وقت متقدم :

٦١٠ م أول نزول الوحي

٦١٣ م بداية الدعوة العامة

٦١٤ م دخول بيت الارقم

٦١٥ م الهجرة إلى الحبشة

٦١٦ م بداية مقاطعة بني هاشم

٦١٩ م نهاية المقاطعة ، موت خديجة وأبي طالب ، الفرار الى الطائف

٦٢٠ م المسلمون الاول في المدينة

٦٢١ م الاتفاقية الاولى في العقبة

٦٢٢م » الثانية » » الهجرة .

وتؤلف هذه التواريخ في معظم الحالات ، دليلا وثيقاً كافياً وربما كانت اهميتها في انها تعلمنا انه بالرغم من الشواهد القليلة التي تدفعنا إلى أن نرى الحوادث تتطور بسرعة ، فإن نمو الاسلام في مكة قد جرى بصورة بطيئة .

الفصل الثالث

الرسالة الأولى[1]

١ - تاريخ القرآن

لا نكاد نضع هذا السؤال، ما هي رسالة القرآن الاولى ؟ ، حتى نجد أنفسنا أمام مشكلة أجزائه الاولى . لا شك أنه يجب علينا أن نعتمد على العلماء الاول في الاسلام ، ومجموع المواد ، التي نملكها حول الظروف التي نزلت فيها آيات القرآن ، ضخم . ولكنه للاسف ناقص من ناحيتين : فهو غير كامل ويحتوي على تناقضات . وهذا القسم الاخير - الذي رأينا مثالا له في مسالة السورة الاولى - ليس ضخما كالقسم الاول ولاسيما فيما يتعلق بالسور المكية . ولقد توصل علماء الاسلام اللاحقون إلى بعض الاتفاق حول معرفـــة السور والايات التي نزلت في مكة والسور والايات التي نزلت في المدينة ، ولكن لا يوجد أي حديث عن القسم الاكبر من السور المكية حول اسباب النزول وزيادة على ذلك . فإن عدداً كبيراً من هذه هذه الظروف ليست حوادث يمكن تحديد تاريخ معين لها . وهكذا نجد

انه بينما يجب قبول معطيات الحديث عن أسباب النزول فإنها لا تكفي بنفسها للاجابة على الاسئلة العديدة التي أثارها العلماء الغربيون .

ولقد تقدم العالم الالماني ثيودور نولدكه في كتابه « تاريخ القرآن » الذي نشر لاول مرة سنة ١٨٦٠ بمعيار متمم ، فلقد وجد انه اذا درسنا طول الآيات وقارناه مع معطيات الحديث حول اسباب النزول وجدنا أن السور الاولى تتألف من آيات قصيرة وان السور اللاحقة تتألف من آيات طويلة في أغلب الاحيان . فعرض عندئذ هذه القرضية وهي الايات تكون قديمة أو حديثة إذا كانت طويلة أو قصيرة ، وقد اعتمد نولدكه على هذا المعيار وجعل السور في أربعة فترات : ثلاث مكية وواحدة مدنية . وقد اتبع العلماء الغربيون هذا المخطط على الاجمال .

والتقدم الرئيسي الذي حدث منذ نولدكه يرجع لريشار بل ونجده في كتابه « ترجمة القرآن » الذي نشره سنة ١٩٣٧ — ٣٩ [١] .

ولقد أقر الحديث الاسلامي دائماً ان معظم السور تحتوي على آيات نزلت في أوقات مختلفة . فهو يحاول في « ترجمته » ان يعيد للسور تأليفها الأصلي وأن يعين تاريخاً للآيات المنفصلة . ومهما يكن الحكم النهائي على التفاصيل ، فان هذا العمل هو نقطة انطلاق لكل دراسة خاصة حول تأريخ القرآن . فهو يرضى بمعيار نولدكه على أنه صحيح في مجموعه ولكنه

---

(١) راجع بل « اسلوب القرآن » في :

Transactions of the glascow University Oriental Society XI. 19 - sp. 14 sv

يجب تغييره فيما يتعلق بآيات خاصة باعتبار تاليفها . وتبدو هذه النظرة صحيحة ولا سيا فيما يتعلق بالفترة المدنية . ولكن كثيراً من النتائج التي توصل اليها ليست أكيدة تماماً وإن كانت ممكنة .

ويجب علينا ، عنـــد النظر في الرسالة الاصلية للقرآن ، ان نكون حذرين في استعمال معيار المضمون . فلو انتهينا إلى القول ، بأن السور س ، ي ، ز لا يمكن أن تكون في عداد السور الأولى لأنها تحتوي على فكرة الحساب بعد الموت » ثم نضيف « وفكرة الحساب بعـد الموت ليست في عداد الأول لأننا لا نجدها في أية سورة من السور الأولى ، فإننا ندور في حلقة مفرغة ، ولكي أصل إلى أعلى درجة من الموضوعية فقـــد اعتبرت السور وأجزاء السور المذكورة على أنها تنتمي « للفترة الأولى المكية » وعلى أنها ، في نفس الوقت « سور أولى » أو سور أولى مكية . وقـــد تركنا جانباً الآيات التي يمكن أن نلاحظ فيها ، تصريحاً او تلميحاً ، معارضة محمد والقرآن ، ومن ناحية ثانية ، الآيـــات التي لا نرى فيهـــا أية معارضة . والمبدأ المتبع هنا هو أنه قبل ظهور المعارضة يجب إعـــلان الرسالة التي تثير المعارضة .

والايات المعنية هي : ٩٦/١ـ٨ ، ٧٤/١ـ١٠ ، ١٠٦ ، ٩٠/١ـ١١، ٩٣، ٨٦/١٠ـ١٠ ، ٨٠/١ـ٣٢ (٢٣ محذوفة) ٨٧/١ـ٩ ، ١٤ـ١٥ ، ٨٤/١ـ٢ ، ٨٨/١٧ـ٢٠ ، ٥١/١ـ٦ ، ٥٢ آيات ٥٥ [1] .

ومن المفهوم أن بعض هذه الايات يجب تاريخها بعـــد أول ظهور

---

(١) بعض الآيات التي لحقتها إضافات لاحقة ، في بل ، المرجع المذكور ، قد اهملت .

للمعارضة ولكنها لما كانت سابقة عليها ، منطقياً ، فقد قررت ان أهمل هذه الامكانية ، وتبدو مختلف جوانب الرسالة التي تحتوي عليها الآيات المذكورة سابقاً متناسقة . أؤكد إذن أن هذه الآيات تمثل الرسالة الاولية للقرآن . وأنتقل الآن لدراسة المقـــاطع الرئيسية في هـــذه الرسالة *kerygma*

٢- مضمون الآيات الأولى

أ ـ رحمة الله وقدرته

ان موضوع السورة ١/٩٦ـ٥ هو خلق الانسان على يد الله وظهور قدرة الله وربما رحمته وإرسال الوحي للانسان (أي الوحي المنزل عـــلى اليهود والنصارى) وأسرار الغيب .

إقرأ باسم ربك الذي خلق

خلق الإنسان من علق

إقرأ وربك الأكرم

الذي علم بالقلم

علم الإنسان ما لم يعلم

وتشير آيات عديدة إلى خلق الإنسان وهدايته « لقد خلقنا الإنسان في كبد ... ألم نجعل له عينين ، ولساناً وشفتين ، وهديناه النجدين ؟ » . (٤/٩٠ ، ٨ـ١٠) .

ونجد فكرة الخلق في ٨١/١٧_٢٢)

« من أي شيء خلقه ، من نطفة خلقه فقدره ، ثم السبيل يسره ، ثم أماته فاقبره ، ثم إذا شاء نشره » .

وشبيه بذلك مطلع السورة ٨٧ « سبح اسم ربك الاعلى ، الذي خلق فسوى ، والذي قدر فهدى » .

وتجمع سورة ٥٥/١_٣ بين الخلق والهداية « الرحمن علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان ، ونجد رحمة الله الخاصة بمحمدفي ٩٣/٣-٨ ، ويبدو ان الاشارات تعود إلى حوادث وقعت في الفترة الاولى من حياته :

« ما ودعك ربك و ما قلى ،
وللاخرة خير لك من الأولى
ولسوف يعطيك ربك فترضى
ألم يجدك يتيما فآوى
ووجدك ضالا فهدى
ووجدك عائلا فأغنى

يشبه ذلك التاكيد في ٨٧/٦_٨ :

« سنقرئك فلا تنسى ... ونيسرك لليسرى »

تدعو سورة « قريش » (١٠٦) القبيلة إلى عبادة رب الكعبة « الذي يطعمهم » و « ينجيهم » من الجوع .

وتصف لنا سورة ٨٠/٢٥-٣١ كيف يرسل الله الماء يخصب الأرض فينبت الحب والمرعى والعنب والزيتون والنخل الخ . ولو ان الايتين ٢٤ و ٣٢ اللتين تلحان على أن الإنسان والحيوان يستخرجان منه حياتها

قد أضيفتا فيما بعد [1] فإن هذه الفكرة كانت ضمنية ، وتبدو بوضوح في ٥٥/٩_١١ « و الارض وضعها للأنام »

« فيها فاكهة والنخل ذات الاكمام »

« والحب ذو العصف والريحان »

وكما ان ان الله يقسم الموت والحياة فإنه الذي « أنبت المرعى فجعله غثاء أحوى » (٨٧/٤) .

وتتحدث أخيراً سورة ٨٨/١٧_٢٠ عن الله خالق الإبل ورافع السماء وناصب الجبال وساطح الارض ، بينما الأجزاء الاولى من سورة ٥٥ [2] تذكر الاجسام السماوية والبحار وتبلغ الذروة في التناقض بين فناء الحياة الدنيا وبقاء الخالق (٥٥/٢٦) « كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » .

هناك إذن عدد مهم من الايات التي تعرض موضوع رحمة الله وقوته وهذا هو الجانب المهم ، من حيث العدد ، في رسالة الايـــات الاولى . ونلاحظ أن القرآن لا يذكر وجود الله على أنه شيء يجهله محمد أو الذين كان عليه أن يبلغهم رسالته . ويبدو أنه يعترف بفكرة غامضة عن الله ثم يوضحها بتأكيده ان هذه المعطيات المشتركة المتعددة يجب أن تنسب اليه وهذا يميل إلى التأكيد بان فكرة « الله » قد تسربت إلى العرب مـــن التوحيد اليهودي المسيحي . ولما كانت السلطات التي اعترف بها العرب

---

(١) بل ، المرجع المذكور .

(٢) حسب تاريخ بل . المرجع المذكور .

لآ لهتهم محدودة جداً فان التفكير بالله على مستوى آلهتهم مع شيء من التعظيم لا يعني تكوين فكرة مناسبة عن سيطرته المطلقة في الشؤون الانسانية وبهذا نقدر أهمية تصحيح هذه الفكرة الخاطئة .

ومما هو أدعى للدهشة أنه ليس هنـــاك أي ذكر لوحدانية الله . والاستثناء الوحيد في قوله « ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر » (٥١/٥١) ربما أضيف فيما بعد[١] وتبدو الجملة ترديداً لفكرة سابقة ولو أنها كانت حديثة لقيلت بنبرة أشد . ولا يوجد طبعاً في الآيات الاولى من قائمة السور التي نحن بصددها شيء مناقض لفكرة وحدانية الله . ومن المهم ملاحظة أنه لا شيء يؤكد هذه الفكرة أو يحارب الكفر . وهذا يعني ان غرض الآيات الاولى محدوداً وهو عرض بعض جوانب العقيدة الغامضة في الله الموجودة عند عرب مكة الميالين للتامل ، وذلـــك بصورة موضوعية ، دون الإشارة بصورة واعية للتناقض بين هذه العقيدة (وما نسمع عنه من وجود آلهة ثانويين) وبين العودة إلى الله من أجل الحساب .

نستطيع مرة أخرى أن نبدأ بسورة العلق (٩٦) من الايــة الثانية « إن إلى ربك الرجعى » وهـــذا يتضمن أننا بصدد « حساب بعـــد الموت »[٢] .

وتتحدث السورة ٧٤ أيضاً عن الحساب (أنظر ٨ـ١٠) « فإذا نقر في الناقور ، فذلك يومئذ يوم عسير ، على الكافرين غير يسير » .

وإذا كانت لفظة « رجز » في الاية الخـــامسة مشتقة من « رجزا »

(١ و ٢) بل المرجع المذكور

(*rugza*) السريانية وتعني « الغضب »[1] التي استعملت لتفسير الجملة « الغضب المقبل » في ماتيو ٧/٣) وربما تتضمن هذا « الاصل معنى » عن نهاية العالم . وكذلك نجد الاشارة إلى الحساب الاخير في الاية التي تتحدث عن الانسان الذي ينهض ليعيش من جديد (٢٢/٨٠) وفي الاية : « ان كل نفس لما عليها حافظ » (٤/٨٦) سواء كان معنى الحافظ الله أو ملاكاً حارساً » .

ونجد وصفاً كاملا للحساب الاخير في هذه الايات (١/٨٤ ـ ١٢) : إذا السماء انشقت ، وأذنت لربها وحقت ، وإذا الارض مدت ، وألقت ما فيها وتخلت ، وأذنت لربها وحقت ، يا أيها الانسان إنــك كادح إلى ربك كدحاً فلاقيه ، فاما من أوتي كتابه بيمينه ، فسوف يحاسب حساباً يسيراً ، وينقلب إلى أهله مسروراً ، وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبوراً ، ويصلى سعيراً » .

وإذا وضعنا جانباً السورة ٥/٥١ ، والسورة ٧/٥٢ اللتين ستراهما فيما بعد ، فلن نجد أية إشارة مباشرة للحساب الاخير في قائمة الايات الاولى ، وإن كان وصف محمد بانه « حارس » *veilleur* يتضمنها .

وأول ما يجب ملاحظته هو أننا أكثر من مجرد نظرة لواقع الحساب وإن الانسان سيحاسب فيجزى او يعاقب ولا نجد « شيئاً من التفضيل المخيف » الذي يثير عليه في الصور اللاحقة لليوم الاخير[2] . نستطيع من ثمة أن نرفض بدون تردد كل رأي من أمثال راي فرانتس بهل وتور

---

(١) نفس المرجع ، راجع بل اصل ٨٨

(٢) بل ، اصل ٨٥

اندراي اللذين يريان في الخوف مـــن عذاب الجحيم الفكرة الاساسية في حياة محمد الدينية خلال الفترة الاولى المكية . وإذا نظرنا في جميع سور الفترة الاولى والثانية المكية حسب نولدكه يمكن القول « إن فكرة آلام العذاب التي تملكت محمداً كانت فوق كل شيء وعنها نشأت الحركة الروحية التي أدت إلى نتائج مهمة »[1] .

وإذا قصرنا بحثنا على العدد القليل من الايات التي ثبت انهـــا أقدم الايات ، لم يعد ذلك ممكناً .

ويبدو ، من ناحية ثانية ، انه من الخطأ القول إن اقدم الاشارات إلى الحساب الاخير لاتغني شيئاً عن نهاية العالم ، وإنها بذلك لا تعرض إلا لكوارث زمنية . وتحتوي مجموعة الآيات التي نحن بصدد دراستها على أمثلة عديدة لأفكار نهاية العالم ، ولكن لا نجد أية آية تتعلق بالضرورة « بالكوارث التي وعدت بها الشعوب الملحدة »[2] . وإذا كانت الآيتان ٦/٥١ ، ٧/٥٢ تفسران بان « الحساب قريب » و « عقاب ربك قريب » يمكن أن تشيرا إلى حادث زمني ، ولكن النص « إنما توعدون لصادق » ، و « ماله من واقع » (٥/٥١، ٨/٥٢) حيث يمكن أن يكون معنى واقع « قريب الوقوع » يبدو أنها لا تشيران إلى قرب وقوع الحساب الأخير ، أو العقاب في مستقبل قريب ، ولكن تشيران إلى وقوعه والتأكد مـــن ذلك في مستقبل غير معين .

---

(١) بل « محمد » ١٢٧

(٢) بل ، ترجمة القرآن ، ٦٩٠

لا شك انه يوجد شيء كثير في السور المكية حول الحساب بصورة كارثة زمنية تهدد سكان مكة كما أصابت الذين عارضوا الأنبياء السابقين . ولكن بقدر ما تمثل هذه الكارثة ،من هذا النوع ،عقاباً على رفض رسالة نبي فانها تتفق على الأرجح مع الوضع في مكة بعد نمو المعارضة أكثر من اتفاقها مع بداية رسالة محمد . وتبدو الآيتان ٥١/٥ و ٥٢/٧ في الحقيقة، وتاكيدهما عــلى الحساب وانه لا مفرمنه ، إنهما تتعلقان بفترة الانتقال للمرحلة الثانية، في الوقت الذي أخذت فيه المعارضة بالظهور ونشأ الشك حول حقيقة الحساب . ولربما كان من المفيد ان نلاحظ أننا نسمع غالباً عن كوارث زمنية، أي عــن العقاب فقط ، بينما الحساب الاخير ينتهي بالثواب كما ينتهي بالعقاب كما نجــد في سورة الانشقاق (٨٤) السابقة الذكر .

جـ ـ جواب الانسان ـ اعتراف بالفضل وعبادة .

يجب على الإنسان ، أمام الرحمة الالهية ، أن يكون شاكراً عابداً لله والشكر هو شعور الانسان الداخلي الذي يدل على ثقته بالواحد القوي الرحيم ، والعبادة هي التعبير الشكلي عن هذه الثقة ، عن الرحمة والقوة الالهية . وتشير الاية ٨٠/١٦ إلى كفر الانسان أمام رحمة الله في خلق الانسان وتدبير معاشه « ما أكفره » ثم أصبح اسم الفاعل لهــذا الجذع « كافر » يدل عــلى الملحد، والكافرون بالله هم الذين يرفضون رسالته . وهكذا فإن الاية ٧٤/١٠ التي تعلن أن يوم الحساب سيكون عسيراً « على

الكافرين « ربما كانت تعني عند سماعها لأول مرة أنـــه عسير على « الجاحدين » .

والموقف المعارض للشكر تحدده الكلمتان « طغى » و « استغنى » كما في ٩٦/٦ .

« كلا إن الانسان ليطغى ، أن رآه استغنى »

ويبدو أن المعنى الاساسي لـ « طغى » هو أن السيل أو الماء قد ارتفع حتى جاوز الحد العادي له [١] ثم أصبحت تعني مجازاً الوقح الذي يتجاوز حدوده ، ثم ظهرت فكرة الرجل الذي يتقدم غير عابئ بالحواجز ولا سيما الاعتبارات الأخلاقية والدينية ، لا يوقفه شيء ويثق ثقـــة مطلقة بقوته .

وهكذا يمكن تفسير هذا اللفظ في القرآن بـ « مدع » أو يعمل بادعاء وغرور ، فهو لا يعرف اعتدال المخلوق وتعتريه كبرياء الخالق مع احتقار أو رفض الخالق .

وهكذا يتحدد موقف سكان المدينة الاغنياء ، وهو موقف ، كما تدل عليه الاية الثانية المذكورة ، يقوم على الاطمئنان للثروة . ويصعب ترجمة كلمة « استغنى » لأنها تعني في نفس الوقت الغنى والاستقلال ، ويجعل لاين (*Lane*) للجذر معنى أساسياً وهو « التحرر من الحاجة » وهو في القرآن يدل في نفس الوقت على امتلاك الثروة وموقف أغنيـــاء مكة

---

(١) E.W. Arabic English Lexion

الروحي . ويمكن ترجمته في ٨/٩٢ ، بالاستعلاء بالثروة [1] فكان المكيون يعتمدون على قوتهم المالية ليشعروا باستقلالهم عن كل سلطة عليا .

ويجد الشكر تعبيراً عنه في العبادة . ومن هنا كانت مختلف الوصايا بالعبادة في الايات الاولى ، وبعضها موجه إلى محمد نفسه « وربك فكبر وثيابك فطهر » (٣/٧٤) .

وفي أول سورة قريش (١٠٦) دعوة إلى المكيين عامـــة « لإيلاف قريش ، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت ، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » .

وهناك آية أخرى ، وربما كانت لاحقة تقول : « قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى » (١٤/٨٧) .

كانت العبادة ، منذ البداية ، طابعاً مميزاً للامة الاسلامية . وكان محمد يحمل نفسه على القيام بطقوس العبادة قبل نزول الوحي ، وقد واظب المسلمون الأول ، بعض الوقت ، على القيام بصلاة الليل [2] . وكانت المعارضة في أول الامر ضد العبـــادة « أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى » (٩/٩٦) . كما نجد في الروايات التقليدية عن « الايات الابليسية » التي دست في سورة النجم (٥٣) أن الدليل على اعتراف المكيين بمحمد كنبي يظهر في انهم انضموا إلى أعمال العبادة التي يقوم بها ، ويجب علينا ، في كل هذا ، أن نحاول أن لا ننظر إلى فكرة العبادة التي نجدها عادة في

---

(١) بل ، المرجع المذكور .
(٢) راجع سورة المزمل (٧٣)

الغرب والتي تعتبر جوهر العبادة كعاطفة ذاتية توصف على أنها إحساس بحضور الله . والعرب يهتمون أكثر بالجوانب الموضوعية للعبادة وخاصة بمغزاها .

أما أن يسجد المكيون مع محمد أمام رب الكعبة فهو شيء يشبه الرجل المحافظ المترمت الذي يرفع شارة حمراء يوم الانتخـــاب او الاشتراكي شارة زرقاء . ومع أن المغزى سياسي هنا فليس غرضنا أن نوحي بان الإسلام ليس ديناً . ويمكن أن تكون بعض المفاهيم الغربية للديانة بالية.

د ـ استجابة الانسان لله ـ الكرم و الطهارة :

لا يؤدي شكر الله على رحمته فقط إلى العبادة ، بل يؤدي أيضاً إلى بعض أنواع النشاط الخلقي [1] . وإنـــه لمن المفيد والمهم أن نكتشف الأخلاق التي يعلمها القرآن .

نجد في بعض الآيات الأولى كلمة « تزكى » الغريبة نوعـــاً ما . ويؤخذ على محمد في سورة « عبس » (٨٠) اهتمامه بالغني أكثر من الاعمى ، فلربما الأعمى « تزكى » حتى أن الغني إذا لم « يتزك » فإن هذا لن يعد ضد محمد وأيضاً « قد أفلح من تزكى » [2] .

الموضوع معقد نوعاً ما ، وسوف نعالجه في الملحق (د) . ويكفي

---

(١) راجع ٨٠/٢٣

(٢) ٨٧/٤ . راجع ٩١/٩ وربما فيا بعد

هنا أن تقدم النتائج . وتمدنا ملاحظة مفسر ، ابن زيد [1] ، بدليل مفيد. فهو يرى ان « التزكي » من أول القرآن لآخره يعني الاسلام » أي إن معنى « تزكى » في هذه الايات « استسلم لله » أو « أصبح مسلماً » . ولربما كان هناك اتصال بين الأمرين في الحياة العملية ، ولكن المسالة المشار اليها تختلف عن ذلك قليلا . تزكى في الايات المكية (وربما في بعض الايات الاولى المدنية) ترجع إلى الاستعمال المشابه للجذر في العبرية والارامية والسريانية . فهي تعني إذن الطهارة الاخلاقية التي تخيلها الذهن العربي بشكل غامض بسبب التأثير اليهودي المسيحي ، وهي طهارة تختلف عن طهارة الجاهلية العربية والطهارة الجسدية ، فهي ذات دلالة أخروية وتذكرنا بالفضائل الأخلاقية في الحياة التي يستطيع بواسطتها الانسان أن يكون واثقاًمن أن ينال الجزاء الأبدي ، وهذا ما نعنيه تقريباً بالاستقامة . وهي لا تعني أحياناً ، وربما غالباً ، تطبيق الاستقامة بقدر ما تعني اتخاذ الاستقامة هدفاً أو مبدأ في الحياة . وهكذا نصل إلى وصف متفهم لما يجري عند محمد في أوائل الفترة الاولى مع إلمام خاص بالجانب الأخلاقي .

ماذا يعني هذا بالتفصيل ؟ ماهو المضمون الأخلاقي للرسالة الاولى ؟ لا نجد شيئاً كثيراً في قائمة الايات الاولى يساعدنا على معرفة ذلك . وإذا وضعنا جانباً « مهمة اقتحام العقبة » (٩٠/١١) فلا نجد سوى حض محمد نفسه (وإن كان هذا الحض يطبق على الاخرين)

فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر

وأما بنعمة ربك فحدث (٩٣/٩ـ١١)

---

(١) في الطبري تفسير ٧٩/١٨

ولهذا كان ضرورياً أن نتوغل في البحث . ويجب علينا أن نأخذ الأمثلة التالية من هـــذه السور التي تنتمي للفترة الاولى حسب رأي نولدكه والتي هي من « السور الاولى المكية » أو من « السور المكية » حسب رأي بل . ولما كان من الضروري أن ندرك المعنى التام لهذه السور فلسوف نتوسع بذكرها .

السورة الاولى حسب رأي نولدكه هي سورة الهمزة (١٠٤/٣)

ويل لكل همزة لمزة

الذي جمع مالا وعدده

أيحسب أن ماله أخلده

والسورة التالية هي أيضاً من إحدى السور الاولى ويمكن تسميتها « النهجين »[١] .

فاما من أعطى واتقى

وصدق بالحسنى

فسنيسره لليسرى

وأما من بخل واستغنى

وكذب بالحسنى

فسنيسره للعسرى

ومايغني عنه ماله إذا تردى (٩٢/٥ـ١٠) .

---

(١) راجع بل المرجع المذكور

وأما مثل أصحاب الجنة (٦٨/١٧ــ٣٣) فهي قصة جماعة من الرجال أرادوا ذات يوم أن يجنوا ثمر بستانهم دون أن يقسموا نصيباً للفقراء حتى إذا ما سعوا في الصباح وجدوا الثار قد اختفت فلاموا أنفسهم على أنهم كانوا طاغين . وتسمى سورة النجم (٥٣/٢٤) « الذي تولى ، وأعطى قليلا وأكدى » وتعلن أن الجاهل سوف يعاقب .

وسورة العاديات شبيهة بها :

« إن الإنسان لربه لكنود

وإنه على ذلك لشهيد

وإنه لحب الخير لشديد

أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور

وحصل ما في الصدور

إن ربهم بهم يومئذ لخبير ؟

وفي سورة الفجر (٨٩/١٨ــ٢١) توبيخ للانسان على سلوكه :

« كلا بل لا تكرمون اليتيم

ولا تحضون على طعام المسكين

وتأكلون التراث أكلا لما

وتحبون المال حباً جما » .

ويعرض لنا الوصف التالي في سورة الحاقة (٦٩/٣٣ــ٣٥) إنساناً حكم عليه يوم الحساب الاخير :

« إنه كان لا يؤمن بالله العظيم »

« ولا يحض على طعام المسكين »

« فليس له اليوم ههنا حميم »

بينما تجد سورة الذاريات المتقين

« كانوا قليلا من الليل يهجعون »

« وبالأسحار هم يستغفرون »

« وفي أموالهم حق للسائل والمحروم »

كما أن نار جهنم !

« تدعو من أدبر وتولى »

« وجمع فأوعى »

وإذا تركنا جانباً الكفر بالله فإن مضمون هذه الآيات يقول ببساطة ان الخير هو إطعام الفقير والمسكين وإن الشر هو جمع الاموال ، زد على ذلك ان هذا هو المضمون الاخلاقي الوحيد للسور المذكورة ، إذا استثنينا الغش في الكيل (٨٣/١ ـ ٣) والاسراف في (٧٠/٢٩ - ٣١) وربما كانت هذه الآيات الاخيرة من الآيات المكية والمدنية المتأخرة [١] والاشارة إلى وأد البنات في ٨١/٨ تبدو في شكل تقريري أكثر منها في صورة أخلاقية فإذا بنا نجد أنفسنا أمام ظاهرة مدهشة تثير القلق ، ولها أهمية عظمى لفهم طبيعة الرسالة القرآنية ، وهي أن الناحية الاخلاقية من من الوصايا العشر تكاد تكون تماماً مجهولة . فلا نعثر على ذكر لاحترام الآباء والحياة والزواج والملكية ولا الصدق في الشهادة ، بل نجد الحض على

(١) بل المرجع المذكور

عدم البخل ، بل تقتصر الاخلاق الاولى القرآنية على مسائل الكرم والشح أو ما يسميه الغرب بأعمال (*surérogation*) .

هـ ـ رسالة محمد الخاصة

بعض الآيات التي رأيناها كانت أوامر موجهة لمحمد شخصياً « فسبح بحمد ربك » ويمكن أن توجه أيضاً لتابعيه ، وهناك آيات أخرى لا تحدد إلارسالته الخاصة « قم فأنذر » « فذكر إن نفعت الذكرى » وهذه المسالة وإن كانت موجودة فإنها ليست مسالة مهمة في الايات الاولى في قائمتنا ولم يصبح وضعه كنبي موضوعاً أساسياً إلا فيما بعد .

كلمة أنذر تدل على أن يخبر شخصاً بشيء خطر أو مضر يخشاه ويحذره ، واستعمال الكلمة في الاية السابقة يدل على أن فكرة الحساب في صورة من الصور موجودة منذ البداية .وإذا ما اعتبرنا اهمية الحساب الاخير والعقاب الزمني في الفترات الاخيرة المكية فليس من المدهش أن نجد كلمة « نذير » أكثر من أربعين مرة في القرآن ، بينما نجد كلمة مذكر مرة واحدة ، أما فيما يتعلق باستعمال « ذكّر » في القرآن فإن لين (*Lane*) يذكر المعنى التالي « حض على الطاعة ، أعطى رأياً سديداً ، وذكر نتائج الأعمال ، ذكر ما يؤثر في القلب بعرض الثواب والعقاب »[1] .

معنى كلمةذكر يضمنأنالاشخاص المسؤولين لم يكونوا بدون معرفة

---

1 *Arabie English lexion,*

شيء ما عن الله واليوم الاخر ، لكن الكلمة العربية تحتمل عدداً أوسع من الاستعمالات الممكنة ، وتفسير اللغويين الذي اقتبسه لين يشير إلى انه لا يمكن تحميله معنى الكلمة الانجليزية *remind* .

يقتصر إذن ، دور محمد ، في الايات الاولى على تنبيه الناس للموضوعات المذكورة في المقطعين أ و ب .

٣ - صلة الرسالة بالعصر

يعتمد ما نقوله هنا بواسطة تأويل رسالة الايات الاولى من القرآن على التأكيد المعقول جداً ان هذه الرسالة تطبق أولاً على مكة في ذلك العصر . المسالة إذن هي أن ندرس كيف ان دراسة الفصل الاول القت بعض الضوء على حياة مكة ، ولكن ما نعلمه من التاريخ القديم للجاهلية ومن الشعراء يجب أن يتم تشخيص القلق الذي أرسلت من أجله رسالة القرآن ، ويهم أن نناقش التشخيص والدواء في نفس الوقت في النواحي التالية : الناحية الاجتماعية ، الاخلاقية ، الفكرية والدينية .

أ ـ الناحية الاجتماعية :

كانت النزعة في ذلك العصر ، كما رأينا في الفصل الاول ، تميل إلى ضعف التضامن الإجتماعي واشتداد النزعة الفردية ، وكان لا يزال التنظيم القبلي قوياً نوعاً ما ، ولكن الناس من جهة ثانية ، لم يكونوا يعبأون بروابط القربى . كذلك كان الحال في مكة خاصة ، حيث كانت الحياة

التجارية تشجع النزعة الفردية ، وحيث كانت المصالح المالية والمادية أساساً لمجتمعات كالقربى والدم . ويدل على هذه النزعة الفردية نشوء اهتمام الناس بجمع الاموال ، كما يشير القرآن على أنه الهم الوحيد عند كثير من المكيين . ومثل أصحاب الجنة (١٧/٦٨) يعرض عمليات نقابة لضمان الاحتكار في ميدان من الميادين والقضاء على أعداء غير محظوظين . ولا شيء يدل على أن أصحاب الجنة كانوا أقرباء . وإذا كان لا يبدو أن هناك فقراً مدقعاً نشأ في مكة فمن الممكن أن تكون الهوة بين الأغنياء والفقراء قد اتسعت في السنوات الخمسين الأخيرة . ويشير القرآن إلى هذا الاختلاف بين الأغنياء والفقراء ، أو على الأصح بين الأغنـــياء والمتوسطين والمعدمين . ويظهر أن الأغنياء كانوا لا يهتمون بالفقراء حتى ولو كانوا من ذوي قرباهم . وتدل الإشارة إلى اليتامى على أنهم لم يكونوا يعاملون معاملة حسنة من أقربائهم الأوصياء عليهم . وتقدم لنا سورة عبس (٨٠) صورة لمحمد وقد ضل لحظة وهو يتصرف حسب الفكرة السائدة بأن الأغنياء وأصحاب النفوذ لهم الشأن وليس للآخرين .

ولا شك أن هذا يعني فقدان اللحمة الاجتماعية . فالانسان حيوان اجتماعي قلق إذا لم يجد الجماعة التي ينتمي اليها ، وقد نشأت مع المصالح المادية أسس جديدة للحياة الاجتماعية ، ولكن هذا الاستبدال لروابط القربى بالدم لم يكن عرضاً ، وكان يمكن أن يؤدي الى تحالف واسع كما حدث في الحملة لحصار المدينة في السنة الخامسة للهجرة . ولكن الوحدة كانت معرضة باستمرار للتحلل في كل فرصة تصبح فيها منفعة خاصة مباشرة مناقضة

للمصلحة العامة الدائمة ، وإذا كانت هذه الوحدة تأتي بالفوائد في قضايا الأعمال وفي السياسة فإنها لم تكن مرضية تماماً في حياة الناس اليومية . ولهذا فإن الإحساس بالأمن النسبي الصادر عن روابط القربى في القبيلة أو العائلة كان في طريق الزوال فترك فراغاً وراءه .

ولا تقدم آيات القرآن الاولى سوى بداية للمعالجة العملية لهذا الوضع وما يجب اقتباسه في الدين من أسس جديدة للتعاون الاجتماعي . وكان الإلحاح على وجوب الكرم قد خفف نوعاً ما من حدة هذا القلق إذ كان يجب مساعدة الفقراء مادياً (وإن لم يكن هذا الدافع الاول للكرم) كما كان يجب أن لا يظل المال عامل انقسام اجتماعي وحمل الاغنياء على الاعتراف بأنهم وكلاء أكثر منهم ملاكاً لثرواتهم . ونجد مبدأ « الوكالة » هذا كما نسميه في الغرب ، وهو يعني أن الانسان يكسب الثروة ليس فقط من أجل متعته بل كوكيل عن المجتمع ، نجده في سورة المعارج (٢٤/٧٠) حيث نجد وصف المتقين « الذين في أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم » .

ولا يحاول القرآن « من ناحية ثانية ، إعادة النظام القديم السابق . فلا يشير إلى إمكانية العودة إلى العصبية القبلية القديمة . فلقد تولد عند الانسان الشعور بالذات كفرد فكان لا بد من قبول هذا الشعور واعتباره. ويبدو ذلك خاصة في مفهوم الحساب الاخير في القرآن ، إذ هو في الاساس حساب للافراد، فيوم الحساب « يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً » (١٩/٨٢) كما نجد عزلة الفرد عن أهله في (١٨/٣٥) (وإن كان يمكن

أن يكون ذلك لا علاقة له بالحساب الأخير) « وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى » .

أضف إلى ذلك أن واجبات الانسان نحو أقربائه لبناء الامة الاسلامية الجديدة تتأكد في السور المدنية كما في (١٧٢/٢) .

ب ـ الناحية الاخلاقية ،

لم يعد للمثل الاعلى عند البدو وهو المروءة أي معنى في مجتمع تجاري، ولم تعد الفضائل المؤدية للنجاح هي « الشجاعة في القتال والصبر على الشدائد ، والمواظبة على الثار ، وحماية الضعيف وتحدي القوي » .

ويمكن أن يكون لفضيلة الشجاعة علاقة بقيادة القوافل ، كما يمكن لفضيلة الصبر أن تستمر ، ولكن إذا نقلنا فضيلة المواظبة على الثأر إلى ميدان مواظبة الانسان لنيل حقوقه ، فإن هناك مرحلة يصبح فيها من غير مصلحة التاجر أن يفعل ذلك ، فالنجاح في التجارة والاعمال المالية يقوم على احتقار الضعفاء والسعي لكسب صداقة الأقوياء. ولا شك أن فضيلة المحافظة على الامانة مهمة ، كما أن القليل من الشرف في الاعمال ضروري ليوحي بالثقة التي هي زيت عجلة التجارة ويبدو ان أصل حلف الفضول كان وسيلة للاحتجاج على عدم الاستقامة وفقدان الضمير . ولا ينفي الانغماس في الاعمال المالية الكبرى بالضرورة الكرم ، ولكنه يحد ولا شك من هذا الكرم ، لأن هدف رجل المال هو زيادة ثروته (كما يدل عليه القرآن) وتنشأ الحاجة إلى الصدقة في مدينة كمكة كما هو الحال في

الصحراء .

وكان جزاء المثل الاعـــلى ، المروءة ، مفهوم شرف القبيلة أولا ثم شرف الافراد الذين تتالف منهم ثانياً . وكانت قوة هذا الجزاء تعتمد على الرأي العام الذي تنبع منه . وكان تكوين الرأي العام من عمل الشعراء . ويمكننا ، في ظروف الحياة الصحراوية ، أن ننتظر من القبائل الشديدة البأس أن تقدم الدليل على المروءة ، وكان عليها ، إذ لم يكن فيها الشعراء أن تلهم الشعراء المشهورين الآخرين لتخليد مآثرها . ولكن الرأي العام لم يعد له تأثير بسبب ازدياد الثروات الضخمة في مكة حتى الرأي العام في العالم العربي عامة . وكان بإمكان المال أن يشتري مديح الشعراء عند الحاجة ، ونشعر بان ذلك لم يكن ضرورياً . ولم يكن للشعر تقدير كبير في مكة . ولقد بلغ من انتشار قوة الاغنياء في مكة وتفرعها أن نشا رأي عـــام قوي مستعد لمدحهم (أو الامتناع على الاقل عن انتقادهم) وإن لم تكن مدائحهم موفقة .

نستنتج مما قلناه أن أعمال الكرم (التي يتهم القرآن أهل مكة بأنهم يهملونها) كانت أفعالا تدل على فضيلة سامية في رأي العرب البدو . وفضيلة الكرم التي يناقضها عيب البخل عنصر قديم مـــن المثل الاعلى العربي القـــديم . وكما يقول لامنس[1] « يبدو الغني في نظر البدوي مجرد مستودع ، أو مالك موقت لثروته الخـــاصة » ومهمته أن يوزعها على المحتاجين في القبيلة ، ويستخدمها للقيام بواجب الضيافة ، وفداء

---

(١) مهد الاسلام ٢٣٥ ، أيضاً ٢٠٩،٢١١

الاسرى ودفع الديات» . ونستطيع أن نلاحظ أن هذا النص لا يذكر أن مكانته كسيد تتيح له ، في قبيلته ، فرصاً لزيادة ثروته ، وفي هذا شبه لتعاليم القرآن . ولهذا فإن إلحاح القرآن على هذه الامور يدل على فتور في تطبيق المثل الاعلى القديم . وربما كان تصرف الاغنيـاء في مكة مناقضاً للشرف في الصحراء ، أما في المدينة فلم يكن هناك ما يشعرهم بالخزي إذ أن المثل الاعلى القديم قد ترك بصورة هادئة .

وكان جواب القرآن على هذا الوضع متعدد الجوانب فهو في إلحاحه على أعمال الكرم يحيي جانباً من المثل الأعلى العربي القديم ويبني على أسس ماثلة في أذهان العرب . ولم تكن أعمال الكرم ، مع هذا ، بعيدة عن حالة مكة .

كما قدم في نفس الوقت جزاء جديداً لهذه الافعال وهو عبارة عن جزاء أو عقاب في الآخرة ، فلسوف يعاقب البخلاء عقاباً أبدياً . وليس لهذه العقوبة ، طبعاً ، أي تاثير ما لم يؤمن أصحابها بالحساب الاخير . و لكن على كل حال قد عُرض شيء جديد يمكن أن يسد الثغرة التي سببها انقطاع الجزاء كما يمكن تقديرها في مجتمع فردي .

وليست المشكلة مع ذلك مجرد إعادة المثل الاعلى البدوي بل هي تحديد مثل أعلى أخلاقي جديد يتفق وحاجات الحياة الحضرية ، وكان إنقاذ ما يمكن إنقاذه جزءاً من هذه المهمة ، ولكنه الجزء الاصغر . وقد عولج القسم الاكبر من هذه المهمة في الآيات الاولى مـن القرآن ، التي تقدم مصدراً لخلق هذه الاخلاقية الجديدة ، وهي الوصايا التي أوصى

بها الله والنبي الذي أوحي بها اليه ، وهكذا تكون المشكلة قد حلت مبدئياً ، وإن لم يحدث ذلك تفصيلا .

ولما كان المثل الاعلى الاخلاقي أمر إلهي فهو جزء آخر يقوي الايمان بالحساب ويحل محله في بعض الحالات .

وتبدو لنا صعوبة المهمة إذا ما نظرنا إلى مصير مفهوم التزكي. ويبدو أن هذا اللفظ كان يعني ما يشبه الاستقامة ، وربما أطلق على الرجل حين يعترف بالمبدأ الذي يقول إن المصير الابدي لشخص من الاشخاص يعتمد على قيمة حياته الاخلاقية، ولم يكن ذلك خاصاً بالعرب ، ثم أخـذ يقل شيئاً فشيئاً ذكره في القرآن إذ حل محله مفهوم جديد هو مفهوم الاسلام أو الخضوع المطلق إلى الله . حتى ولو لاحظنا الإلحاح المستمر على الجانب الأخلاقي لفكرة التزكي وقولنا انها تعني الاستقامة ، فإن زوال هـذه الفكرة مثال على صعوبة إيجاد مفاهيم جديدة نستطيع تطعيمها بنجاح على الاصول القديمة العميقة الجذور [1] .

جـ ـ الناحية الفكرية :

لعل الجانب الفكري للمشاكل التي اعترضت سبيل المكيين في عصر محمد هو أقلها أهمية ولكن ذلك لا يبرر إهماله تماماً . ويشير إلى مسألتين أساسيتين:

المسألة الاولى هي أن المكيين قد بلغوا درجة من الإيمـان بقدرة

---

(١) راجع الملحق « د »

الانسان جعلتهم ينسون أن المخلوق مصيره إلى الزوال . ولم يكن البدوي لا يشعر بقوة الانسان ولكن الايمان بالقضاء والقدر قد خفف من حدة هذا الشعور . وإذا ما عدنا إلى أحاديث الاسلام لنعثر فيها على بعض الاشارات لمشاعر الجاهلية ألفينا [1] فيها أربعة أشياء لا تخضع لسيطرة الانسان :

حياته (أو معاشه) ، ساعة أجله ، سعادته أو شقاؤه (في هذا العالم) وجنس ولده . يؤلف ذلك إطاراً ثانياً لحياة الانسان ، يظل داخله حراً في ممارسة المروءة ويتعلق قيامه بها، أو عدم قيامه، به شخصياً أو بوراثته ، ولم تكن هذه الوراثة محددة بوضوح وثابتة ثبوت الاشياء الأربعة المذكورة سابقاً فهي بإمكانها أن تساعد أو تحول دون ممارسة الفضيلة ، ولكنها لا تستطيع تحديدها بصورة مطلقة .

ولم تكن الحدود التي يعترف بها البدوي لارادة الانسان بديهية في مكة إذ أن قوة المال تستطيع أن تفعل شيئاً كثيراً للتخفيف من النتائج السيئة لسقوط الامطار الضئيلة في شبه الجزيرة وذلك بواسطة الاستيراد الذي يستطيع دائماً معالجة آثار المجاعة ، كما شاع الاعتقاد لجيل أو جيلين ان امتلاك ثروة واسعة هو السعادة وان الثروة تستطيع أن تؤخر الأجل ونهاية الحياة الانسانية ، وهكذا أصبحت المغالاة في تقدير قوة الانسان وقدرته الاعتقاد الفكري السائد في مكة .

والمسألة الاخرى الاساسية مرتبطة أشد الارتباط بالاولى . وسبب

---

(١) راجع ما سبق الفصل الاول ، ٤ ب

ذلك أن زعماء مكة الذين كانت بأيديهم السلطة السياسية لم يكونوا نماذج رائعة للمروءة فساورتهم الشكوك الفكرية حول مصير المروءة كمثل أعلى، وحول تأثير الوراثة وقدرتها على نقل المروءة أو القيام بها بدرجة عالية. وكان من شأن الافكار من النوع الاخير أن تهدم الاسس النظرية للتضامن القبلي وأن تشجع نمو النزعة الفردية.

وليس لدينا إلا القليل نقوله، حول المسألة الأخيرة، بصدد الآيات الاولى من القرآن ما عدا ما نجده فيه من علاقة الكرم خاصة بقرار الله في اليوم الأخير. وهذا أكثر مما يجب عمله مع المروءة. فأعمال الحيـــاة الانسانية التي ينسبها الجاهليون إلى الدهر أصبحت تنسب لله كما تظهر قوة الله ورحمته قادرتين على بذر البذور التي سوف تنمو وهذا هو الرزق

وتتضمن قوة الله على خلق الانسان تحديد الجنس، وإن لم يُذكر ذلك صراحة. والله هو الذي يقرر موت الانسان كما يقرر في اليوم الأخير سعادته أو شقاءه الابدي هكذا تعالج المشاكل الفكرية الصرفة.

د ـ الناحية الدينية :

يتعلق الجانب الديني لمشاكل مكة قبل الاسلام بما يحيي الناس ويستمدون منه مغزى الحياة. وكانت الديانة القديمة البدوية تستمد مغزى الحياة من الشرف ومن خلود القبيلة بدرجة أقل لأن الشرف كان يتجسد في القبيلة ولقد تحطم هذا الموقف الديني في مكة بسبب النزعة الفردية المتزايـــدة وضعف الرأي العام الذي كان يقوم بدور سجل للشرف ، وعدم توفر

الظرف الملائم للمروءة التي كانت أساس الشرف . ولقد نشأ في مكة مثل أعلى جديد أصبحت فيه الثروة تحتل المكانـة الاولى بدلاً من الشرف . وكان مثلا أعلى أو ديانة يمكن أن ترضي بعض الناس لجيل أو جيلين ، ولكن لا يمكن أن ترضي زمناً طويلا أمة كبيرة ، ثم اكتشف كثير من الأشخاص أن هناك أشياء لا يستطيع المال شراءها وهم لا يستطيعون الوصول إلى استمداد معنى للثروة أو مغزى لها إلا إذا أغمضوا عيونهم عن رؤية المناظر المؤلمة كالمرض والموت ولا سيما الموت المبكر . ولا يمكن إلا أن تظهر المناظر المؤلمة في مجتمع ، مهما كان حجمه ، على حساب بعض الأغنياء دون أن تمس الفقراء الذين يجدون مشقة لنسيان نقصهم المالي . ولربما أحس بالازمات الناشئة عن الفراغ، في ديانة الثروة والازدهار المادي هذه، أولئك الذين كانوا يملكون بعض الثروة ولكنهم كانوا في الحقيقة على حافة الثروة الحقيقية . إذ لديهم بعض الوقت للتفكير وعندهم فكرة عن حدود قوة المال .

ولقد رأى القرآن في هذه الثقة بالمال ، وتشهد على ذلك الآيات الاولى، خطيئة القرشيين المسيطرة وانها ستؤدي بهم إلى العذاب . وتتضمن الثقة بالمال المغالاة في الانانية مما يحمل الانسان على نسيان ، وربما نكران ، تعلقه بالله .

ويحاول القرآن ، كي يعيد الانسان إلى معنى طبيعته كمخلوق ، أن يفهمه كيف أنه مدين لله بأكبر عدد من النعم التي يتنعم بهـا حقاً . فهو يتحدث عن قوة الله كيف خلق الانسان ويسر له كل ما يجعل حياته

سعيدة . ويذكر الإنسان بأن « إليه المصير » . والحض على الشكر والعبادة هو حض على الاعتراف بتعلق الإنسان بالله، وأن عليه أن يتخلى عن كل ثقة مغالية بالثروة ، وذكر اليوم الأخير هو إنذار بأن مصير الإنسان النهائي هو بين يدي الله وليس بين يدي الإنسان ، وان الله يقرر ذلك حسب شرائعه وليس حسب شرائع الإنسان .

يجب علينا أن نحاول فهم الإلحاح على الكرم على ضوء كل ما قلناه وللكرم نتائج اجتماعية واقتصادية ولكن ليس هذا هو الجانب الأهم من المشكلة . الكرم من ناحية تأكيد مجدد للمثل الأعلى في المروءة ، ولهذا أهميته ، ولكنه شيء آخر أيضاً . فهو تمرين عملي للابتعاد عن الثروة وتعبير خارجي عن الموقف الداخلي الجديد الذي يمكنه أن يقويه . ربما كان هذا كل شيء في أول الأمر ولكن بمرور الزمن أصبح الكرم مرتبطاً بشيء متأصل في قلوب العرب ، أصبح نوعاً من التضحية التي يستميل بها الإنسان القوى المسيطرة عليه ويتجنب نتائج غضبها ويأمل في اكتساب عطفها في المستقبل وذلك بطريقة مشابهة للطريقة التي كان يستخدمها أجدادهم لاكتساب رضى الآلهة في الجاهلية وذلك بتضحية الحيوانات .

ومن الصعب التأكيد إلى أي حد وجدت هذه الفكرة عند المسلمين الاول ، لأنه من الصعب إدراكها ، ولكن لا نستطيع القطع بأنها لم تكن موجودة إذا ما نظرنا للتطورات اللاحقة ، كما أن القرآن يشجعنا على ذلك . وإذا كان الكرم يرجع إلى نزعة تقديم الاضاحي الكامنة في قلوب أوائل المسلمين فإنه بذلك يصبح تعبيراً أكمل عن تعلق الانسان بالقوى

العليا .

ومهما يكن الأمر فإن تعـــاليم الآيات الاولى للقرآن تبلغ الذروة في رحمة الله وقوتـه (كخالق وقاض) وفي حض الانسان على الاعتراف بتعلقه بالله والتعبير عن ذلك .

٤ ـ أفـكار أخـرى

أ ـ الظروف الاقتصادية والدين

إن استعراض حالة مكة بواسطة القرآن يهيئنا للاعتقاد بأن قلاقل العصر كانت دينية مثل كل شيء . ولقد قلنا سابقاً إن ظهور الاسلام له علاقة بالانتقال من اقتصاد بدوي إلى اقتصاد تجاري . فهل هنـــاك تناقض ، أم أن النظرتين يمكن أن تلتقيا ؟

يؤدي هذا السؤال إلى نتائج أساسية ، ولكن يمكن من وجهة النظر الدينـية ، وضع النقاط التالية :

لا يحدث التغير الاقتصادي في الفراغ ولكن في جماعة لهـــا تكوين اجتماعي وأخلاقي وفكري وديني وسبب هذا القلق هو التفاعل بين هذا التغير الاقتصادي والعوامل القائمة سابقاً ، فهو نتيجة عجز الانسان عن مسايرة التغير الاقتصادي بسبب بعض المواقف السابقة وتقود الظروف الاقتصادية الجديدة الانسان إلى ازدياد ثقته بنفسه دون التعويض عن الشعور بطبيعته كمخلوق ، كما تقود إلى نزعـــة فردية في الشؤون

الاجتماعية دون التعويض بمثل أعلى أخلاقي أو نظرة دينية جديدة تجعل للفرد مغزى جديداً .

تقوم المشكلة إذن على التوفيق بين الناس وبين ظروفهم الاقتصادية المتغيرة. ويتطلب هذا تعاوناً واعياً من جانب البشر ويفترض أن نقدم لهم تحليلا للوضع يقومون على ضوئه بالتوفيق الضروري . ويعرض لنا القرآن تحليلا للوضع ليس كاملا ولكنه كاف لتحقيق الأهداف المعروضة - كما يقدم دليلا للعمل - والقلاقل الظاهرة مباشرة كانانية بعض الرجال التي تدفعهم إلى استغلال الظروف الجديدة وتوطيد مكانتهم الخاصة على حساب زملائهم ، تنبع من كبرياء السلطان البشري والتقاعس في الاعتراف بالله . ويذكر القرآن الانسان انه توجد في الوضع العام ، الذي يجب أن يعمل فيه ، عوامل أهملها وهي أن حياته ووسائل عيشه تتعلق بقوة عليا وهناك الموت والحساب الاخير وهناك دائرة تتعدى دائرة الزمان والمكان .

يعتبر القرآن إذن قلاقل العصر نتيجة أسباب دينية بالرغم من الاسباب الاقتصادية والاجتماعية والاخلاقية وأنه لا يمكن تقويمها إلا باستخدام الوسائل الدينية مثل كل شيء - وأنه لمن الجرأة الشك في حكمة القرآن نظراً لنجاح جهد محمد .

٥ - اصالة القرآن

يجب علينا في رأيي ، مهما كان موقفنا الديني ، أن نعتبر رسالة

القرآن انبثاقاً خلاقاً في الوضع المكي. ولاشك انه كانت توجد مشاكل تتطلب الحل، وأزمات حاول البعض تخفيفها، ولكن كان يستحيل الانتقال من هذه المشاكل وتلك الازمات إلى رسالة القرآن بواسطة التفكير المنطقي. ويمكن القول من وجهة النظر الغربية العامة إنه حينما ترددت على مسامع محمد بعض الافكار بواسطة الطرق العادية (كفكرة الحساب الاخير مثلا) أدرك أن هناك أجوبة على هذه المشاكل، وهكذا عـــن طريق نظام التجربة والخطأ أقام بالتدريج نظامه. ولكن هذا حتى من وجهة النظر الدنيوية لا يفسر بصورة مقنعة مجرى الحوادث. ولا شك أن رسالة القرآن تحل مشاكل اجتماعية وأخلاقية وفكرية، ولكن لا تحلها جميعاً دفعة واحدة وليس بصورة بديهية. ولربما قال مؤرخ دنيوي إن محمداً وقع صدفة على أفكار كانت بمثابة المفتاح لحل المشاكل الاساسية في زمانه. وليس هذا ممكنا. ولا يمكن للمحاولات التجريبية ولا للفكر النافذ أن يفسر لنا كما يجب رسالة القرآن.

ولا شك أن محمداً لم يقم بتحليل تجريدي للوضع كالذي نقوم به نحن هنا. وأفضل صورة بالنسبة للكاتب الدنيوي هي صورة حدس الخيال المبدع أو ما يشبه ذلك، وأحاول أن أبقى محايداً بين هذا الرأي ورأي المسلمين القائل بانبثاق الله في حياة محمد، سأحاول إذن إيجاد حل وسط بالقول «بانبثاق مبدع» ولهذا الانبثاق صلة بالبيئة التي ظهر فيها.

فقد تلاءم، كما رأينا في المقطع السابق، خاصة مـــع ظروف مكة حوالي سنة ٦١٠ م، وهو لم يظهر باللغة العربية فقط بل اتخـــذ شكلا

أدبياً عربياً صرفاً وإن لم يوجد أدب عربي آخر مشابه له تماماً . وهو فوق كل شيء يتنق ونظريات عرب ذلك الزمان وطريقة تقليدهم . كما يتفق مع شعور أهل مكة . فمن غير العربي يفكر في ذكر الجمل بين أعمال الله ؟ [1] .

وهناك صفات ترد في وصف قوة الله من أجل أن تنال رضى العرب. كما أن أعمال الكرم التي يحض الناس على القيام بها هي من جملة المثل العليا البدوية القديمة .

وإنه لمن نافلة القول أن على كل مصلح أن يتوجه للناس كما هم في أول الأمر .نجد شاهداً سلبياً على ذلك إذا رأينا أن السور المكية لا تحتوي على أي نقد المربا فإذا كان النظام المالي القائم في مكة هو الواقع الرئيسي للقلاقل فلماذا لا نجد نقداً له في أول رسالة القرآن ؟ ولو اننا قبلنا مقدمة هذه الجملة الشرطية فإن من السهل الجواب على ذلك بتساؤلنا : كيف يمكن للربا أن يصبح موضع النقد ؟ وكيف يمكن لأقل النقد أن « يجد طريقه » إلى المكيين ؟لم يكن لأحد أن يقول أن الربا شر ، لأنه لم يكن يوجد مفاهيم تجريدية عن الخير والشر عند العرب، وأقرب المفاهيم هو مفهوم المشرف ، وغير المشرف ، ولكنه كان مرتبطاً أشد الارتباط بالمثل العليا الأخلاقية التقليدية لم يكن الربا في نظر هذه المثل شيئاً معيباً بنفسه ، حتى ولو كان كذلك فإن المثل الأعلى القديم عن الشرف

---

(١) قرآن ٧/٨٨ .

كان قد فقد كثيراً من قوته في مكة . لا شيء إذن كان يمكن الاعتماد عليه في مكة لنقد الربا . ولا يمكن تصور الأمر بالامتناع عن الربا في مثل هذه الظروف كقاعدة تنفذ إلا يوم تتكون أمة جديدة على أساس الوصايا الإلهية المنصوص عليها في القرآن ، ولن يكون ، حتى وقتئذ ، من السهل ضمان تنفيذه .

ولربما بدا الهدف من إظهار الاستمرار بين القرآن وطرق التفكير القديمة عند العرب مناقضاً لفكرة الفصل الأول الشهير مـــن كتاب « دراسات محمدية » لجولدزيهر عن « المروءة والدين » وليس من السهل معارضة أراء جولدزيهر . وليس التناقض مع ذلك تاماً . ومن الواضح وجود بعض التناقض بين تعاليم محمد على أساس القرآن وطرق التفكير العربية القديمة . ولو لم يكن الامر كذلك لما قامت المعارضة الشديدة له . ويمكننا مع ذلك أن نميز بين الجانب الديني والجانب الأخلاقي الصرف للمروءة . الجانب الديني هو ما سميته بالنزعة الإنسانية وهو يقوم على اعتزاز الإنسان بنفسه وبمآثره والإحساس بأن معنى الحياة يجب البحث عنه في التفوق الإنساني . وهذا ما يهاجمه القرآن بقوة وبدون ابهام . وأما الجانب الاخلاقي الصرف (وهذا ما أفكر به عادة حين أتحدث عن المروءة) فهو المثل الأعلى الاخلاقي الذي يقوم على الشجاعة والصبر والكرم والوفاء وغيرها من الفضائل المشابهة ، وهذا ما يمتنع القرآن دائماً عن مهاجمته ويأخذ على المكيين أنهم لا يعملونه . وإذا ما تتبعنا بدقة فصل جولدزيهر وجدنا نقاط ضعف كثيرة . فهو يقدم ثلاثة أمثلة على الفرق

بين المروءة والدين . دعا محمد إلى العفو ضد واجب الثار . فرض الاسلام حدوداً للحرية الشخصية مثلا فيما يتعلق بالخمر والنساء . أقـــام الإسلام طريقة للصلاة تتنافى وحب الاستقلال عند البدو ولا مجال للنقاش بصدد المسالة الأخيرة ، فنحن بصدد الجانب الديني للمروءة . وأمـــا الأمثلة الأخرى فهي غير مرتبطة . لأن التغييرات التي طرأت فيما يتعلق بالزواج وشرب الخمر ليست نتيجة القرآن خاصة بل هي نتيجة للفرق بين ظروف الحياة البدوية والحضرية، بينما العفو عن الأعـــداء الذي يذكره جولدزيهر ليس سوى عنصر ضئيل من رسالة القرآن وليس هناك سوى آية واحدة (٢٢/٢٤) تتعلق بالتسامح بين الأقرباء وآية أخرى (١٢٨/٣) تتعلق بالتسامح بين أفراد الامة الاسلامية . ولو أردنا القيام بمقارنة مع المواقف العربية القديمة لوجب افتراض حالة أعداء غرباء على الامة الإسلامية إذ أن هذه قد حلت محل القبيلة كوحـــدة اجتماعية . وافتراض هوة واسعة وعميقة بين الإسلام والجاهلية أمر لا يقوم على أساس متين .

تأتي أخيراً مشكلة الصلات بين القرآن والمفاهيم اليهودية المسيحية فلنحاول وضع المشكلة في حدودها الحقيقية . القرآن هو انبثاق مبدع في حياة مكة . والبحث عن « مصادره » هو تقريباً كالبحث عن «مصادر» هملت لشكسبير تحدد مصادر شكسبير من أين استقى شكسبير بعض ملامح العقدة . فهي لا تفسر اصالة شكـسبير المبدعة ولا تمنع من تفسيرها وليس هذا الشبه تاماً من كل الوجوه لان المقارنـــة يجب أن تقوم حول علاقة « المصادر » بعمل محمد ساعة التكوين غير أن هذه النظرة مناقضة

للمعتقدات الاسلامية ولهذا وجب استبعادها . ولما كان القرآن اعتماداً على صدق محمد ، ليس ثمرة وعيه الخاص فإنه من الافضل النظر في علاقـــته بعقلية الذين أرسل إليهم ولمن أعد ، أي لمحمد والمسلمين الاول وسائر المكيين .

ويمكننا التساؤل من هذه الزاوية ، إلى أي حد تتضمن المقارنـة بين القرآن والمفاهيم اليهودية المسيحية علاقات بينه وبين الافكار الكامنة في أذهان هؤلاء الناس قبل أن يرسل القرآن اليهم .

يحمل هـــذا الموضوع العالم الغربي، الذي تهمه مناقشة مشكلة المصادر ، على مناقشة كل النقاط التي يريد مناقشتها وأن لا يناقض عقيدة الإسلام . يجب أن نبحث على انفصال ١ ـ الافكار الاساسية . ٢ ـ والمعطيات المفسرة والافكار الثانوية .

أما فيما يتعلق بالافكار الرئيسية كفكرة الله والحساب فإن القرآن والعالم الغربي يؤكدان معاً أن أفكار القرآن على العموم مماثلة لأفكار اليهودية والمسيحية . فهل يجب أن يعني هذا أن القرآن ليس عملا أصيلا ، وليس انبثاقاً مبدعاً ؟

كلا . ينبع التماثل - إذا كان هناك تماثل ـ من أن القرآن مرسل لاناس (ومحمد منهم) اتصل بعضهم بهذه الأفكار وإن كان هذاالاتصال بصورة مبهمة غامضة ، فالقرآن هنا وهناك يتوجه للناس كما هم . ولم

يكن بمقدور أي يهودي أو مسيحي يتكلم اللغة العربية أن يبلغ النجاح الذي بلغه محمد في مكة للدعوة لافكاره اليهودية أو المسيحية إذ يكون التعبير غريباً جـــداً . فالقرآن يخرج أفكاره اليهودية المسيحية في صورة « معربة » كانت تكمن بها في أذهان الفئة المستنيرة من أهالي مكة ، وتقوم اصالته على أنه وضح هذه الافكار وفصلها وقدمها بصورة قوية بإلحاحه على ناحية منها أو أخرى ، وجعل منها مركباً متناسقاً ، وأخيراً جمع كل شيء حول شخص محمد وحول رسالته الخاصة كرضول لله . ولا شك أن الوحي والنبوة فكرتان يهوديتان مسيحيتان وليس القول بأن الله يظهر نفسه بواسطة شخص محمد مجرد ترديد بسيط للماضي بل هو جزء من انبثاق مبدع .

وتعالج الآيات الأُولى التي عرضناها سابقاً أفكاراً أساسية وليس من واحـــدة منها لم تراود فكر محمد ومعاصريه المثقفين . وتزداد الصعوبة حين نأتي للمعطيات المفسرة كقصص الأنبياء . هناك أوجه شبه متينة بين القرآن والنصوص اليهودية المسيحية وليس بينه وبين الكتب المقدسة العادية كالتوراة والإنجيل بل بينه وبين كتب الربانيين والأناجيل الموضوعة . ويتردد في مثل هذه الحالة ، العالم الغربي، قبل أن يستخلص بان القرآن هو من صنع محمد وأنـــه يردد القصص المعروفة . ورأي المسلمين هو التالي :

« حينما اعترف المسلمون الاول بمحمد نبياً بدأوا (ومحمد معهم) بالاهتمام بالأنبياء السابقين فاكتشفوا منهم من استطاعوا اكتشافه وأخذت معلوماتهم تزداد تدريجياً ونجد أثر ذلـــك في القرآن وهناك جمل عديدة في القرآن تدل على أن المـــادة المفسرة لم تكن غريبة عنهم مثال :

« هل أتاك حديث الجنود ، فرعون وثمود » ؟ (١٧/٨٥) .

وكذلك قوله : « ذلك من أنباء الغيب » (٤٤/٣) . يدل على أن التفاصيل لم تكن جميعها معروفة من محمد نفسه . ويجب مع ذلك أن نذكر هنا بأن التمييز الغربي بين الواقعة المجردة ومغزاها ليس مفهوماً تماماً في الشرق . وربما اطلع محمد على الوقائع المجردة ، في الآيات المذكورة تتعلق القصص بمريم وعيسى ، وزكريا ، وحنا الذين كان محمد يعرف عنهم بعض الأشياء . لكنه ربما لم يقدر مغزى هذه الوقائع المجردة فكان بحاجة لإدراك هذا المغزى تماماً أن يزيد معلوماتـــه عنها . ومهمة هـــذه المعلومات ، في نظر الغربي ، ان تعبر عن المغزى وليس أن توضح الواقعة المجردة . أمـــا في الشرق العربي ، حيث لا يقيم الناس مثل هذا التمييز فيكفي القرآن أن يقول : « أنباء » .

هذا ما يمكن التقدم به من مسلم يحاول إقناع غربي لا يؤمن

بالمعجزة ، بأن القرآن أصيل وليس ترديداً لأقوال سابقة .
وربما كان هذا القول أفضل من النظرة الغربية المعتادة . والمشكلة
مع ذلك فقهية أكثر منها تاريخية . وعلى المؤرخ أن يلاحظ
أن في القرآن شيئاً اصيلا في استخدامه للقصص وفي اختياره الموضوعات
التي ينبه اليها .

الفصل الرابع

المسلمون الأول[٢]

١ - روايات الحديث عن المسلمين الأول

لما كان النبل يقوم مبدئياً في الاسلام على الاخلاص لقضية الامة الاسلامية فقد استغل المسلمون حقوق اجدادهم في النبل والكرامة. ولهذا يجب معالجة أخبار المسلمين الاول بحذر . فاذا ما وجدنا ان احفاد شخص ما أو المعجبين به يعلنون أنه كان بين المسلمين العشرة الاول فمن الحذر الافتراض أنه كان على الأغلب الخامس والثلاثين بينهم .

وهناك إجماع على أن خديجة كانت الاولى التي آمنت بزوجها وبرسالته ولكن قامت مناقشة حامية حول الرجل المسلم الأول . ولقد كان بين يدي الطبري[١] عدد كبير من المصادر وهو يترك

---

(٢) تاريخ ١١٥٩ – ٦٨

للقارىء أمر الاختيار بين ثلاثـــة أشخاص : علي ، أبو بكر ، وزياد بن حارثة . ولربما كان علي جدير أبذلك ولكن هذا لامعنى له في نظر المؤرخ الغربي لأن علياً كان آنئذ في التاسعة أو العاشرة من عمره وكان أحـــد أفراد عائلة محمد ، وليس أبو بكر باقل جدارة من علي ولكن بمعنى آخر وهو أنــه كان أعظم المسلمين شأناً أيام قضية الحبشة ، بعـد محمد . ويبدو دوره الكبير الذي قام به فيما بعد في الروايات الاولى ، وربما كان زيد بن حارثة هو الاجدر باعتباره أول مسلم ذكر لأنه كان عبداً حرره محمد وكانت صلتهما متينة، غير أن حقـــارة أصله تعني أن اسلامه لم يكن له نفس مغزى إسلام أبي بكر [1] .

وقول الطبري [2] انه بعد هؤلاء الثلاثة ياتي عدد مهم من المسلمين الذين جاء بهم أبو بكر موضع شك . لأن هؤلاء الرجال المذكورين هم في الحقيقة الخمسة الذين أصبحوا القادة مع علي حين وفاة عمر فقد عينهم لتامين انتخاب الخليفة . وإنه لمن الصعب القول بان هؤلاء الخمسة أنفسهم قد جاءوا معاً إلى محمد قبل عشرين سنة عند بدء الاسلام . وأسماؤهم هي : عثمان بن عفان ، الزبير بن العوام ، عبد الرحمن بن عوف ، سعد بن أبي وقاص ، طلحة بن عبيد الله ، ويقولون ان عبد الرحمن بن عوف كان قد اعتنق الاسلام مع جماعة كان زعيمها عثمان بن مظعون [3] . ويروي

---

(١) راجع ملحق هـ ، نولدكه ZDMG ٥٢/١٨ – ٢١

(٢) ١١٦٨ ، راجع ابن هشام ١٦٢

(٣) ابن هشام ج ٣ ، ٢٨٦/١

الطبري فيما بعد أخباراً عن ابن سعد مفادها أن أربعة أشخاص آخرين كل واحد منهم يدعي أنه « الرابع أو الخامس » من بينهم أمثال خالد بن سعد ،أبو ذر ،وعمر بن عبسة ، الزبير .

وبالرغم من وجود أسباب تدعو للشك في استحقاق لقب المسلم الاول فإن قائمة المسلمين الاول التي نجدها عند ابن اسحاق[1] يمكن اعتبارها صحيحة على الاجمال . ونلاحظ أن هذه القائمة تحتوي أسماء أشخاص لم يقوموا بدورمهم فيما بعد وإن كانوا في مقدمة المسرح في الفترة الاولى . و من هؤلاء خالد بن سعد بن العاص الذي كان والده رجل المال النافذ في مكة ، وسعد بن زيد بن عمر وكان والده أحد الباحثين عن الديانة قبل ظهور محمد ، ونعيم النهام الذي ربما كان شيخ قبيلة عدي ولكن لم يأت إلى المدينة إلا في السنة السادسة للهجرة . ولقد أشرت إلى أن جميع الذين يذكرهم ابن سعد على أنهم أسلموا قبل دخول محمد إلى بيت الارقم مذكورون في هذه القائمة ، وهناك اثنان أو ثلاثة آخرون يذكرهم عادة ابن سعد على أنهم « قدماء في الاسلام » ولما كان ابن اسحق لا يذكر بيت الارقم فلربما كان يستعين بمصادر مختلفة ،وهكذا تمثل هذه القائمة اتفاق سلسلتين مختلفتين من الحديث .

ومن المفيد أن لا ننسى قول الزهري[2] حين نبحث في سير المسلمين الاول .

---

(١) ابن هشام ، ١٦٢ – ٥ ، كما نجدها في كايتاني حوليات ج ٢٢٦/١

(٢) ابن سعد ج ١ ، ١٣٣/١

ويجب أن يكون أحد أهداف البحث أن نحاول اكتشاف المعنى الصحيح لهاتين الجملتين « احداث الرجال » و« ضعفاء الناس » وهكذا نهتم خاصة بأعمار المسلمين الاول ومكانتهم الاجتماعية . ويجب قسمتهم إلى طبقتين متميزتين .

ويتحدث ابن سعد عن عدة أشخاص من بين « المستضعفين » وهذا يعني طبقة صغيرة اخرى ، وكان بعض الشباب ، من ناحية اخرى ، الذين التفوا حول محمد ، ينتمون لأعظم عائلات مكة ولايمكن أن يوصفوا « بالمستضعفين » .

٢ - المسلمون الأول

نكتفي هنا بالنقاط المهمة ، ولما كانت مكانة الرجل الاجتماعية تتعلق بمكانته في قبيلته ومكانة قبيلته في مجموعة القبائل فمن المهم النظر في كل قبيلة على حدة . فحيثما تعتمد الاشارات على قوائم كايتاني (حوليات ١ ، ص ٥١٢ – ١٧) أو هي مستمدة من طبقات ابن سعد لا نشير إلى أي مرجع خاص ويعتمد ذكر تسلسل القبائل على الملاحظات المشار إليها في الفصل الاول ٢ – أ .

هاشم :

عرضنا لمكانتها في المجتمع المكي (الفصل الثاني ، ١) وأشرنا إلى أن القبيلة فقدت من مكانتها بقيادة أبي طالب وأهم الذين اعتنقوا الاسلام ، عدا محمد وأفراد عائلته ومن بينهم علي وزيد بن حارثة ، هم جعفر بن

أبي طالب وحمزة بن عبد المطلب .

وكان حمزة ، وهو عم محمد ومن سنه ، محترماً كمحارب ولكن ربما لم يكن له وزن كبير في مجالس القبيلة . وتظهر مكانة حمزة وجعفر المتواضعة في قبيلتهما في أنهما تزوجا من قبيلة قحطان البدوية بينما تزوج[1] أبو لهب، الذي ربما أصبح سيد القبيلة عند وفاة أبي طالب ، وكان من أشد مناوئي محمد ، فتاة حرب بن أمية سيد قبيلة عبد شمس ، لفترة من الزمن ، وهو من أقوى الشخصيات في مكة .

المطلب :

يبدو أن هذه القبيلة قد أصبحت ضعيفة جداً وكانت تعتمد كثيراً على القبيلة السابقة . وكان لعبيد الله بن الحرث عشرة أولاد انجبهم جميعهم من جواريه . وكان مسطح فقيراً وقد توفي والده فنال مساعدة ابي بكر الذي كانت امه اختاً لوالدة ام مسطح .وكان عبيدة ، ويكبر محمداً ببضع سنوات ومن اقدم المسلمين ، اول من اعتنق الاسلام في قبيلته . وكان المسلمون الآخرون في بدر اخوته وابن عمه مسطح الذي ربما تأثر بقرابة امه لأبي بكر . وقد قاتل بعضهم كمشركين في بدر ، ولكن لم يشتهر أي منهم .

تيم :

لم يكن لهذه القبيلة اي شان في إدارة أعمال مكة ، وكان سيدها ،

---

(١) ابن سعد ج ٤ ، ١/١ ؛

خلال شباب محمد، عبد الله بن جدعان . وقد تم اللقاء عنده لتكوين حلف الفضول، كما يقولون ان محمداً اجتمع بأبي جهل [1] عنده أيضاً ، وربما مات أثناء ذلك . ولم يكن لابنه ، الذي قتل في بدر مع المشركين، مكانة أبيه . وكان لأبي بكر تأثير في قبيلته ، كما يبدو ، حين اعتنق الاسلام، ولكن لم يكن من القوة بحيث يحمل كثيراً من الناس على اعتناق الاسلام معه .وكانت ثروته ، التي تبلغ ٤٠٠٠٠ درهم حين أسلم، ثروة تاجر صغير [2].

والمسلم الآخر الذي كان أول من أسلم من القبيلة هو طلحة ،وكان شاباً وينحدر من فرع آخر ،وقد قتل أحد أعمامه وأحد أبناء عمه في معركة بدر.

وكان يتاجر مع سورية كما كان صديقاً حميماً لأبي بكر الذي جاء به إلى محمد.

وكان إسلام سهيب بن سنان لا علاقة له بهذين الآخرين .وكانت ثقافته بيزنطية والعلاقة الوحيدة التي تربطه بتيم هي أنه كان عبداً لعبد الله بن جدعان . وكان صديقاً لعمار بن ياسر حليف بني مخزوم الذي كان على علاقة ببيزنطية . وكانت ثروته كافية لإثارة جشع الكفار ، ولم ترد تيم أو لم تستطع حمايته .

زهرة :

يبدو أن قبيلة زهرة كانت أكثر ازدهاراً من قبيلتي تيم والمطلب وكانت بعض فروعها على علاقة في العمل بعبد شمس. وقدتوطدت هذه

---

(١) ابن هشام ٨٥/٤٥١ ، راجع أيضاً ص ٥٧

(٢) لامنس ، مكة ، ٢٢٦ – ٨ (٣٢٢– ٤)

العلاقة بسبب الزواج ، وكانت أم سعد بن أبي وقاص حفيدة أمية بن عبد شمس. كما أن عبد الرحمن بن عوف ، قبل إسلامه ، كان قد تزوج من ابنتي عتبة بن ربيعة بن عبد شمس وأخيه سهيب . وكان مهرمة بن نوفل من زهرة مع أبي سفيان أحد زعماء القافلة التي سببت معركة بدر . وقد وجدت القبيلة نفسها في وضع غريب حين كان سيدها - منذ زيارة محمد للطائف (طلباً لحمايته) حتى بدر - حليفاً وهو الأخنس بن شريق : ولا شك أن الأسود بن عبد يغوث الذي قام بدور مهم سابقاً كان قـــد توفي حينئذ .

والشخصية الرئيسية التي أسلمت هي شخصية عبد الرحمن بن عوف وكان عمره ثلاثاً وأربعين سنة عند الهجرة واشتهر بانه رجل أعمال ماهر وكان سعد بن أبي وقاص في السابعة عشرة من عمره حين اعتنق الاسلام وهو ينتمي لفرع آخر من القبيلة (إلى بني عبد مناف بن زهرة) وتقول إحدى الروايات إن كليهما قد جاء بهما إلى محمد أبو بكر ، بينما تقول رواية أخرى ان عبد الرحمن قد جاء به عثمان بن مظعون . وجاء على أثر سعد أخواه عامر وعمير وحليف هو مسعود بن ربيعة . ولكن يجب أن نشير أن أخاً آخر لسعد ، هو عتبة بن أبي وقاص ، كان أحد الاشخاص الأربعة الذين أقسموا في أحد أن يقتلوا محمداً أو يموتوا . وقد تبع عبد الله بن مسعود ، حليف بني عبد بن الحارث بن زهرة ، وهو الفرع الذي ينتمي اليه عبد الرحمن بن عوف ، عبد الرحمن في اعتنـاق الاسلام[1] ، او أصبح مستقلا ، ويقولون انه التقى بمحمد وأبي بكر وهو يرعى قطعان عقبة

بن أبي معيط (من بني أمية بن عبد شمس) . وربما كانت ممارسته للرعي دليلا على شبابه أكثر منها على فقره لأنه لم يكد يبلغ العشرين من عمره عند الهجرة، ولا يجب أن ننسى علاقته بعبد شمس . ولقد قام بدور رئيسي في الإسلام، ويعتبر زعيم الجماعة التي تألفت من أخيه عتبة، حفيد عبد شمس ، وعبد الله بن شهاب وقريب له عمير بن عبد عمرو ذو اليدان . ولم يكن للحليف خباب بن الارت أي صلة قربى بأي منهم . كان رجلا فقيراً ، وكانت أمه تمارس مهنة الختانة وكان هو حداداً . ويفسر لنا افتقاره للحماية ما لقيه من عذاب في سبيل عقيدته . وكان جد المطلب بن أزهر وأخيه طليب هو جد عبد الرحمن بن عوف وكانت أمهما من قبيلة المطلب ، وكان المدقاق بن عمر ، حليف الاسود بن عبد يغوث وربيبه ، في الحبشة كمسلم ، ولكنه لم يترك المكيين إلا بعد هجرة محمد وقبل بدر على كل حال[1] وربما كان غنياً ، ويقال إنه كان يمتطي حصاناً في بدر . وقد انفصل عنهم جميعاً شرحبيل وكان حليفاً لسفيان بن معمر وقبيلة جمح .

عدي :

ارتبطت قبيلة عدي سابقاً بالاحلاف . ونلاحظ ان امهات المسلمين من عدي كن من سهم وجمح بينما أم عمر نفسه من مخزوم وقد غير عدي موقفه خلال تلك الفترة لأن عبد شمس قد اقتربت من مخزوم

---

(١) ابن هشام ٤١٦

والأحلاف [1] بسبب خصومة حادة نشبت بينهما . وكانت حالة عدي العـــامة آخذة بالتدهور . وتقول إحـدى الروايات أن معمراً بن عبد الله كان أول من ناصر الحديث الذي يحرم أعمال الاحتكار . وهذا يدل على أن عدياً، وقد وقع بين نارين ، كان في طريق الافول .ولايبدو أي شخص آخر غير عمر قد قام بدور في مكة . وكان والده وجده (الخطاب ونفيل) رجلين خطيرين إذا نظرنا في عدد حلفائهما ومعاملة زيد بن عمرو للخطاب [2] . وأخيراً كان للخطاب زوجة على الاقل من مخزوم . وكان أول من أسلم من القبيلة بلا شك سعيد بن زيد بن عمرو الذي كان أبوه أحد الباحثين عن الدين الحقيقي ، ومارس بعض أعمال الزهد . ولربما أثر في الحلفاء الستة الذين أطلق عليهم اسم « مسلمي الساعة الأولى » . وهناك مسلم آخر هو نعيم بن عبد الله النهام ،الذي كان يوزع في نهاية كل شهر، الطعام على فقراء القبيلة ، وربمـــا كان سيد القبيلة خلال السنوات الست الاولى من الاسلام ، لأنه بالرغم من اعتناقـــه الاسلام مبكراً فإنه لم يتبع محمداً في الهجرة . وربما كان عمر بن الخطاب قائد القبيلة ، أو أحد قادتها بالتأكيد ، وكان اعتناقه الاسلام ، بالرغم من تاخره عن الذين اعتنقوه حسب قائمـــة ابن اسحاق ، خطوة كبيرة في بناء أمة الاسلام . ولا شك انه تاثر بقدوة سعد بن زيد ، ابن عم أبيه ، وامرأة سعد، اخت عمر ، وعثمان بن مظعون ، صهره، وباحلاف العائلة،

---

(١) راجع ص ٢٨
(٢) ابن هشام ١٤٧

وأخيراً ربما قام التدهور الاقتصادي بدور وإن كان ذلك بصورة غير واعية .

الحارث بن فهر :

كانت هذه القبيلة على الحد الفاصل بين قريش البطاح وقريش الظواهر وربما كانت حالتها في تقدم ولكنها لم تصبح في الدرجة الاولى من الأهمية ، فلا نسمع عن أي رجل نافذ منها بين المشركين ، وأحلافها كانت أحلافاً مع قبائل ضعيفة كعامر وزهرة . وكان أهم المسلمين فيها: أبو عبيدة بن الجراح وسهيل بن بيضاء ، وكان الاول صديقاً لعثمان بن مظعون والثاني صديقاً لابي بكر .

عامر :

وهي قبيلة أخرى تقيم على الحد الفاصل بين قريش البطاح وقريش الظواهر ويبدو انها حسنت وضعها ايام الهجرة واستطاعت عقد احلاف مع هاشم ، ونوفل ومخزوم . وكان العضو الرئيسي ، الذي ذهب إلى بدر، هو سهيل بن عمرو . ونلاحظ ان الممثلين الوحيدين للقبيلة في قائمة المسلمين الاول هما أخواه حطيب وسليط . وكان المسلم المشهور من القبيلة فيما بعد ابن ام كلثوم الذي كانت امه من مخزوم .

أسد :

زادت اهمية قبيلة أسد وقد تركت حلفاءها القدماء في حلف الفضول وانتقلت إلى دائرة « الاعمال الضخمة » . وقد قام زمعة بن الاسود ،

وابو البختري ونوفل بن خويلد وحكيم بن حزام بدور مهـــم بين المشركين في مكة ،وكان زمعة قد تزوج امرأة من مخزوم ونوفل من عبد شمس . وكان الزبير ، كما يبدو ، اول من أسلم ، وكان في السادسة عشرة آنذاك ، وربما لم يكن له اي تأثير في القبيلة ، ولا في فرع خويلد ومن الممكن ان تكون قرابته لخديجة من ناحية ابية ، ومحمد من ناحية امه ، قد سهلت اعتناقه الاسلام . اما الاشخاص الآخرون الذين هاجروا إلى الحبشة فيبدو أنهم كانوا من شباب أهم العائلات .

نوفل :

لا يبدو ان قبيلة نوفل كانت قوية بالعدد ، ولكن زعماءها كان لهم تأثير كبير . ولربما كان ذلك بسبب تحالفهم مع عبد شمس فعملوا سوية مع مخزوم دون أن يكونوا تابعين لهم لانهم ساروا شوطاً مع أسد (وعامر) . والمسلم الوحيد منهم الذي يذكره ابن سعد — وليس من الاول — كان حليفاً للقبيلة وطليقاً .

عبد شمس :

كانت قبيلة عبد شمس تنافس قبيلة مخزوم على المكانة الاولى في مكة، ولكنهما كانتا تدركان اتساع المصالح المشتركة بينهما ولذلـــك لم تكن العداوة بينهما مريرة .

وقد أصبح أبو سفيان بن حرب ، بعـــد معركة بدر ، المواطن الاول في مكة ، بعد مقتل عدد من رجالات مخزوم . ولكن ابا اهيهة ،

سعيد بن العاص ، كان له نفوذ [1] كبير في أول الدعوة الإسلامية ، كما أن عقبة بن أبي مؤيث وابني ربيعة ، عتبة وشيبة ، كانوا في مقدمة المسرح حتى وفاتها في بدر . وكان أول المسلمين من هذه القبيلة : عثمان بن عفان، أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، خـــالد بن سعيد (أبو أهيهة) وعائلة المتحالفين من جحش : عبيد الله ، عبد الله ، وابو احمد . وكان أبو حذيفة وخالد ولدا زعيمين ، ولكن إذا علمنا أن أميهما كانتا من كنانة ، وهي قبيلة كانت بمثابة « العنزة الجربانة » في قريش ، أدركنا أنهما كانا شخصين غير خطيرين في عائلتيهما. ولم يقم أجداد عثمان بدور مهم مما يحملنا على الاعتقاد بانه كان يحسد أقرباءه الذين يفوقونـــه في الغنى والسلطان . وكان أبو حذيفة وعثمان ، لعشر سنين قبل الهجرة ، في الثلاثين من عمريهما، وهي سن بدا فيها المستقبل لا يبشر كثيراً بالخير . ولما كانت جدة عثمان لأمه عمة محمد فإن ذلك قد مهد السبيل أمامه فيما بعد . وكانت عائلة جحش غير متحالفة مباشرة مع أي واحد من السابقين بل كانت جزءاً من حلفاء حرب ، والد أبي سفيان ، وكانت أمهم إحدى بنات عبد المطلب . وكانوا من المسلمين الاول وقد هاجروا إلى الحبشة حيث اعتنق عبيد الله المسيحية . وربما تأثر عدد كبير من أحلاف عبد شمس الذين اعتنقوا الاسلام قبل بدر ، بهذه العائلة

مخزوم :

كانت قبيلة مخزوم أقوى الجماعات السياسية في مكة خلال السنوات

---

(١) لامنس ، مكة .

العشر قبل بدر ، وكان أبو جهل زعيم المعارضة لمحمد . وكانت القبيلة كثيرة العدد وكان أحفاد المغيرة (جد أبي جهل) أقوياء . وأول من أسلم هما أبو سلمة والأرقم وهما حفيدان لاخوة المغيرة . ويبدو ان الارقم بالرغم من صغر سنه، كان على رأس عائلته لأنه استطاع أن يجعل من منزله مقراً للمسلمين وقد قتل أخو أبي سلمة في بدر ، ولحق به إلى الحبشة ابنا عمه . ومن الصعب ، ما عدا ذلك ، ان نحدد الاتجاهات داخل القبيلة . ثم هناك مسلم ثالث هو عياش وكان ابن عم أبي جهل ، ومع أنه جاء إلى المدينة عند الهجرة فقد أقنعه أبو جهل بالعودة إلى مكة . وكان شماس ، الذي هاجر أيضاً إلى الحبشة وحارب في بدر ، ينتمي إلى فرع منفصل من القبيلة . وينسب إلى مخزوم أيضاً عمار بن ياسر حليف أبي حذيفة بن المغيرة . وقد أقام والده في مكة ففقدا بذلك الصلة بالقبيلة .

وقد تعرف على المسيحية بواسطة الزوج الثاني لأمه، وهو عبدطليق من أصل يوناني ، وربما كان مسيحياً. ويبد أن العائلة كانت متدينة صادقة في تدينها .

سهم :

كانت قبيلة سهم من أقوى القبائل . وقد أنشيء حلف الفضول ضدها ، كما استعان عدي بسهم حين عجز عن الوقوف في وجه عبد شمس [1] ويذكر العاص بن وائل والحارث بن قيس بن عدي على أنهما من الأعداء

---

(١) الازرقي ٧٢ ٤

الرئسيين لمحمد . ويبدو أن زعيمي بدر كانا المنبه بن الحجاج وأخاه نبيه والمسلم الوحيد الذي يذكر اسمه هو خنيس بن حذافة بن قيس الذي تزوج من ابنة عمر بن الخطاب . ويبدو أن عائلته كانت من أقل فروع القبيلة أهمية ، ولم يكن هو نفسه شخصية بارزة . ومن المهم أن نلاحظ موقف أبناء الحارث بن قيس . فقد هاجر ستة منهم إلى الحبشة كمسلمين، ثم انضم واحد منهم على الأقل وهو الحجاج إلى الدين المسيحي ،وحارب المسلمين في بدر وأسر وأخيراً اعتنق الاسلام من جديد مرة ثانية .

ونستطيع الافتراض بأن العائلة بعد وفاة الحارث شق عليها المحافظة على مكانتها .

جمح :

كانت هذه القبيلة قوية أيضاً ، ولكن لم تكن كسهم وكانت إدارة شؤون القبيلة بين يدي عائلة خلف بن وهب . كانت أولا بين يدي امية بن خلف ثم بين يدي وهب بن عمير بن وهب بن خلف . وكان عثمان بن مظعون من أهم المسلمين الأوائل ، وربما كان على رأس عائلة حبيب بن وهب أخي خلف . والأشخاص الذين نجدهم في قائمة المسلمين الاول هم : أخواه عبدالله وقدامة وابنه السائب وأولاد أخيه معمر بن الحارث وحطيب وخطاب (أو حطاب) . ويبدو أن عثمان ، الذي سوف نتحدث عنه فيما بعد ، قد مال إلى التوحيد والزهد قبل أن يلتقي بمحمد .

عبد الدار :

كان عبد الدار مرة في مقدمة أبناء قصي و قد استفاد أحفاده بسبب بعض الامتيازات كحمل اللواء ولكنهم فقدوا مكانتهم فيما بعد في مكة . ولم يكن مصعب (الخير) من عمير من بين أوائل المسلمين . وقدساعدته صداقته لعامر بن ربيعة حليف إبي الخليفة عمر . وقد أسر أخوه في بدر بينما كان يحارب في صفوف الكفار .

يبقى علينا أن نوجز بعض النقاط المهمة في هذا العرض يمكن أن نقسم أهم « المسلمين الاول » إلى ثلاث فئات :

١ ـ شباب من أفضل العائلات :

خالد بن سعيد أفضل ممثل لهذه الفئة . ولكن هناك آخرون غيره . وكانوا ينحدرون من أقوى العائلات وأشد القبائل ، تربطهم روابط متينة بالرجال الذين يملكون السلطة في مكة، وكانوا في مقدمة أعداء محمد. ومن المهم أن نشير إلى انه وجد في معركة بدر أمثلة على الاخوة والآباء والأبناء والعم وابن الأخ الذين كانوا يقاتلون في صفوف كلا الحزبين .

٢ ـ رجال سائر العائلات :

لا تتميز هذه الفئة بوضوح عن الفئة السابقة . ولكن كلما انحدرنا في سلم القبائل والفروع الصغيرة لأهم القبائل وجدنا بين المسلمين رجـــالاً يتمتعون بنفوذ أكبر من نفوذ قبيلتهم أو عائلتهم ونجد بينهم شخصاً أو شخصين كهلين كعبيدة بن الحارث الذي بلغ الواحدة والستين يوم الهجرة،

ولكن معظمهم لم يبلغ الثلاثين عندما أصبح مسلماً وواحد منهم أو اثنان تجاوزا الخامسة والثلاثين .

٣ ـ رجال مستقلون عن كل قبيلة .

وحوت فئة، قليلة العدد نسبياً ، من الرجال الخارجين على نظام القبيلة وإن كانوا بالاسم ينسبون إلى قبيلة أو أخرى . أو ان القبيلة لاتعترف بحق الشخص في الانتساب إليها (كما كان الحال مع خباب وبني زهرة) أو ان القبيلة كانت ضعيفة لا تستطيع القيام بحمايته . ولهذا فليس من المستغرب ان بني تيم رفضوا حماية العبيد الذين أطلقهم أبو بكر لأنها كانت عاجزة عن حماية أبي بكر نفسه وطلحة . أما الآخرون الذين يذكرهم ابن سعد على أنهم من المستضعفين فهم سهيب بن سنان وعمار ابن ياسر اللذين كانا حليفين لبني تيم وبني عبد شمس . ولا يكون الحلفاء طبقة مستقلة . لأن مبدأ الحلف والتحالف ينفي التميز بين الأعضاء ويفرض ، قبل كل شيء ، المساعدة والحماية . ولما كانت قريش تتمتع بمكانة عالية بين العرب فإن حلفاءها كانوا يتلقون حين إقامتهم في مكة من المساعدة أكثر مما يقدمون. ومع ذلك فإن مكانة الفرد في المحالفة كانت تتعلق كثيراً بما يمكن أن يقدمه لها حسب كفاءته . وكان المتحالفون عادة من مستوى العائلات المتواضعة في قبيلة من القبائل ، غير ان الأخنس بن شريق كان زعيما لبني زهرة ، بعض الوقت ، بينما كان الآخرون على شيء من السعة . وكانوا يعقدون محالفات مع قريش .

ونجد عدداً كبيراً من الحلفاء الذين أسلموا في الطبقة الثانية . وأما الذين نجدهم في الطبقة الثالثة فهم فيها لظروف طارئة .

ونستطيع بذلك تفسير المعنى المقصود بـ « شباب » و « مستضعفين » وهو أن الأولين ينتسبون للطبقتين الاوليين ، والآخرين إلى الطبقة الثالثة ، ويعرف ابن سعد « المستضعفين » بأنهم اولئك الذين ليست لهم قبيلة تحميهم »[1] وعنى بذلك الزهري . ويمكن اعتبار المستضعفين انهم اولئك الذين ينتمون لقبائل وعائلات ضعيفة النفوذ . وبهذا تطلق كلمة « المستضعفين » على الطبقة الثانية والثالثة .

وأهم فكرة نستخرجها من هذا العرض هو ان الاسلام الفتي كان في الاساس ، حركة شباب (كما قال كاتب مصري هو عبد المتعال الصعيدي)[2] . إذ أن معظم الذين نعرف اعمارهم لم يتجاوزوا الاربعين عند الهجرة (وبعضهم كانوا أصغر كثيراً) وكثير منهم كانوا قد اعتنقوا الإسلام منذ ثماني سنوات . ولم يكن الإسلام ، من جهة ثانية ، حركة رجال من طبقة مستضعفة من حثالة الناس أو من طفيليين صعاليك حطوا رحالهم في مكة . ولم يستمد الإسلام قوته من رجال الدرجة السفلى من السلم الاجتماعي بل من اولئك الذين كانوا في الوسط وأدركوا الفرق بينهم و بين اصحاب الامتيازات في الذروة فاخذوا يقنعون أنفسهم بأنهم أقل امتيازاً منهم . فنشا صراع ليس بين « الملاكين » و « المعوزين » بل بين « الملاكين » والذين هم أقل منهم .

---

(١) ٣ ، ١ ، ١٧٧-١٢   (٢) شباب قريش ، القاهرة ١٩٤٧

٣ - صدى رسالة محمد

نعرف الآن نوع الرجال الذين لبوا نداء محمد . فلننظر الآن عن قرب في الأسباب التي دفعتهم إلى ذلك . يحدثنا ابن اسحق [١] ، في نص معروف ، عن أربعة رجال يبحثون عن « الحنيفية » « دين ابراهيم » ، كما ان الفصول السابقة تمدنا بقاعدة لنتبين انتشار نزعة نحو التوحيد [٢] .

و مع ان القرآن لا يذكر هذه الموضوعات ، فإن الإسلام الوليد يتصرف وكأنه مركز التقاء لهذه النزعات الغامضة . و قد أسلم أحد هؤلاء الأربعة الذين يذكرهم ابن اسحق وهو عبيد الله بن جحش ، واشترك في الهجرة إلى الحبشة (وإن اعتنق المسيحية فيما بعد) ، كما أن ابن احد الثلاثة الآخرين ، وهو سعد بن زيد بن عمر ، كان من بين أوائل المسلمين ، يضاف إلى ذلك ان عثمان بن مظعون ، وإن لم يكن على علاقة مع الأربعة المذكورين ، فقد أخذ بالزهد والتقشف في الجاهلية .

وتوحي الرواية التي تتحدث عن الصعوبات التي نشأت بين محمد وعثمان أنه كان يصعب عليه توحيد آمال اتباع هذا التوحيد السابق وافكارهم [٣] .

---

(١) ابن هشام ١٤٣ (٢) راجع ايضاً ملحق ب . ج .
(٣) راجع الفصل الخامس ٢

وأما معرفة كيف أن العوامل الاقتصادية والأفكار الدينية قد اجتمعت فهذه مسألة تتعلق بهذه النزعة السابقة على نزعة التوحيد، ولسوف نبحثها في علاقتها بالرجال الذين لم يفعلوا اي شيء نهائي لقطع صلاتهم بالالحاد قبل اعتناق الإسلام .

ولم يدرك أحد من بين شباب الفئة الاولى، الذين كانوا ينتمون لأفضل العائلات ،تدخل العوامل الاقتصادية والسياسية فيما يقومون به . ولم يخطر ببال خالد بن سعيد مثلا إلا الأسباب الدينية حين اعتنق الإسلام . ويبدو أن إقامته الطويلة في الحبشة [1] تشير إلى أنه كان على خلاف مع محمد في سياسته، وأنه لم يكن يوافق على التوجيه السياسي المتزايد للاسلام ولا على أهمية الدور السياسي لمحمد بسبب نبوته . ولو أن خالداً اهتم بالنواحي السياسية للرسالة لدفن خلافه مع محمد وعاد إلى مكة قبل السنة السابعة للهجرة .

ومع أن خالداً قد اتجه نحو الاسلام لأسباب دينية فإن الحالة الاجتماعية والسياسية ، ولا سيما تجمع الثروة المتزايد بين أيدي فئة قليلة، سبب له القلق وأعده لإدراك حاجته إلى العقيدة الدينية .

ويمثل خالداً نموذجاً نادراً وصلتنا عنه تفاصيل الظروف التي جعلته يعتنق الإسلام . فلقد رأى نفسه في المنام واقفاً أمام النار . وكان والده يحاول دفعه إلى لهيب النيران ، بينما رجل آخر - في رأي أبي بكر أنه كان محمداً - أمسك به ومنعه من السقوط فيها [2] .

---

(١) الفصل الخامس

(٢) ابن سعد ج ٤ ، ١/٦٧

يبدو ذلك صحيحاً ، وإن سجل فيما بعد ليتفق مع أفكار لاحقة. غير أن جهلنا بتاريخ ذلك يجعل تفسيره صعباً . ويمكن أن نرى فيه إشارة إلى وضعه بعد أن اكتشف والده أنه يتجه نحو محمد ، وذلك قبل أن يقطع كل صلة تربطه بعائلته نهائياً . غير أن التفاصيل توحي بأن ذلك وقع قبل لقائه مع محمد. يعني الحلم في مثل هذه الحالة ان والده كان قد أرغمه على الدخول في عاصفة المعاملات المالية في مكة ، وكان يرى ذلك مضراً لروحه لأنه يتطلب أعمالا دنيئة في نظره . ومهما كانت حقيقة ذلك الموضوع ، فيبدو أن تفكيره الواعي قد اتجه كلياً إلى المسائل الدينية .

ولدينا وثائق تتحدث عن الظروف التي اعتنق فيها كل من حمزة وعمر الاسلام . هناك روايتان مختلفتان عن إسلام عمر [1] وإذا صدقنا الروايات فإن إسلامهما قد حدث بتأثير عاملين : فقد أثر فيهما سلوك محمد خاصة والمسلمين عامة . وقد أسر عمر بكلمات القرآن وقيمة العقيدة الجديدة من الناحية الدينية ، ويتدخل الولاء نحو العائلة أو القبيلة في كلتا الحالتين ولكن بطرق مختلفة .

فقد كان على حمزة أن يرد على الشتائم التي قيلت عن محمد في قبيلة أخرى ، كما أحس عمر بالعار الذي يلحق بقبيلته حين علم أن اخاه واخته قد اعتنقا الاسلام . (الرواية الاولى) ولا نجد أية اشارة إلى العوامل الاقتصادية . ومع ذلك فإن عمر ، وإن كان واثقاً من مكانته في القبيلة ، أحس بالضيق بسبب مكانة قبيلته في مكة . ولا يستبعد أن يكون

---

(١) ابن هشام ١٨٤ ، ٩١-٢٢٥

شعوره بالضيق قد ضاعف حقده على زملائه الذين كانوا يتولون قيادة القبيلة خشية أن يؤدي اعتناقهم للاسلام إلى تدهور حالة القبيلة العامة .

وكان أفراد الطبقة الثالثة ، الذين كانوا يعتبرون « مستضعفين » ، قد تأثروا بقلقهم الخارجي والداخلي أكثر من تأثرهم باي نفع اقتصادي أو سياسي . وإذا كانت قد نشات آمال صريحة بالاصلاح عند المسلمين الاول ، فإننا نجدها عند الفئة الثانية ، وتعالج آيات القرآن الاولى موضوعات من هذا النوع كما تتحدث عن عظمة الله . وللرسالة باجمعها علاقات ، كما رأينا سابقاً ، مع الوضع العام للمكيين في ذلك الوقت . ولهذا فليس غريباً أن بعض الاشخاص قد دفعهم إلى الإسلام النواحي السياسية والإقتصادية فيه . ولا يبدو مع ذلك أن عددهم كان كبيراً . ولم يكن محمد قط مصلحاً اجتماعياً بل كان مؤسس ديانة جديدة [1] .

ونستطيع تحديد الموقف بقولنا انه ، ولو كان محمد على علم واسع بالأمراض الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية في عصره وفي بلاده ، فإنه كان يعتبر الناحية الدينية أساسية ولهذا حصر اهتمامه بهذه الناحية .

وهذا ما حدد اخلاق الامة الجديدة . فقد اهتم المسلمون الأوائل بعقائدهم وطقوسهم الدينية اهتماماً شديداً ، حتى لو أن رجلا يهتم خصوصاً بالسياسة خلال الفترة المكية لما ارتاح إلى العيش

(١) راجع عرض س ، سنوك هورجرونج عن « محمد » ل هـ . جريم

بينهم ، لا سيما حين اشتد النضال مع المعارضين وأصبحت نبوة محمد موضوع الخلاف الرئيسي ، فقد اتجهت أفكارهم أولا إلى الدين ولهذا دعي الناس إلى الاسلام على أساس ديني ، ولا يكاد يكون للأفكار الواعية الاقتصادية أو السياسية أي دور في اعتناق الاسلام .

نقول هذا ونحن نعتقد بان محمداً والمتنورين من أتباعه قد أدركوا الاهمية الاجتماعية والسياسية لرسالته ، وأن مثل هذه الآراء كان لها أثر بالنسبة إليهم في إدارة شؤون المسلمين .

الفصل الخامس

المعارضة

ا - بداية المعارضة والآيات الابليسية

يحق لنا الاعتقاد بأن محمداً ، في أول دعوته ، قد لقي بعض النجاح . ولكن المعارضة مع ذلك لم تعتم ان ظهرت ثم اصبحت ضخمة . ويعترضنا هنا سؤالان : متى وكيف ظهرت هـــذه المعارضة ، وعلى أي أسباب رئيسية اعتمدت ؟ والسؤال الثاني هو الأهم . ومن ذلك علينا أن نحاول الإجابة أولا على السؤال الأول .

أ ـ رسالة عروة :

حفظ لنا الطبري نسخة عن وثيقة كتبت منذ زمن بعيد وتبدو عليها مظاهر الصحة [1] :

قال حدثنا هشام بن عروة عن عروة انه كتب إلى عبـــد الملك بن

(١) الطبري تاريخ ١١٨٠ ، راجع كايتاني تاريخ ج ١ س ٢٦٧

مروان : أما بعد فإنه - يعني رسول الله (صلعم) ـ لما دعا قومه لما بعثه الله من الهدى والنور الذي نزل عليه ، لم يبعدوا منه أول ما دعـــاهم وكادوا يسمعون له ، حتى ذكر طواغيتهم . وقدم ناس من الطائف من قريش لهم اموال ، انكروا ذلك عليه واشتدوا عليه ، وكرهوا ما قال لهم وأغروا به من أطاعهم فانصفق عنه عامة الناس ، فتركوه إلا من حفظ الله منهم ، وهم قليل فمكث بذلك ما قدر الله ان يمكث . ثم ائتمرت رؤوسهم بأن يفتنوا من تبعه عن دين الله من أبنائهم وأخوانهم وقبائلهم ، فكانت فتنة شديدة الزلزال على من اتبع رسول (صلعم) من أهل الاسلام ، فافتتن من افتتن وعصم الله منهم من شاء ، فلما فعل ذلك بالمسلمين أمرهم رسول الله (صلعم) أن يخرجوا إلى أرض الحبشة. وكان بالحبشة ملك صالح يقال له النجاشي ، لا يُظلم أحد بأرضه ،وكان يثني عليه ، مع ذلك صلاح ، وكانت أرض الحبشة متجراً لقريش يتجرون فيها ، يجدون فيها رفاغاً من الرزق وأمناً ومتجراً حسناً ـ فأمرهم بها رسول الله (صلعم) ، فذهب اليها عامتهم لما قهروا بمكة ، وخاف عليهم الفتن ، ومكث هو فلم يبرح ، فمكث بذلك سنوات يشتدون على من أسلم منهم . ثم أنه فشا الاسلام فيها ودخل فيه رجال من أشرافهم .»

وتشبه رواية أبي العالية تقريباً الرواية السابقة ، ولكنها لا تحتوي على بيت الشعر الثالث . ولكنهـا مع ذلـك تذكرنا ، كبعض الروايات الاخرى ، كيف امتنع كبار القرشيين ، بسبب اعمارهم ، عن السجود

فمسحوا جباههم بالتراب عوضاً عن ذلك، وهي عـلى عكس الروايات الاخرى، تضيف ان ابا اهيهة، سعيد بن العاص، لاحظ قائلا: بأن أبن ابي كبشة اشاد بآلهتهم. يمكن أن تكون الملاحظة صحيحة ونجـد اشارة مشابهة لمحمد في ملاحظة اخرى تنسب لهذا الرجل [1] .

وإذا قارنا مختلف الروايات وحاولنا أن نميز بين الوقائع الخارجية التي تتفق معها والدوافع التي يستخدمها المؤرخ لتفسير الوقـائع ، نلاحظ واقعتين نستطيع ان نعتبرهما اكيدتين . اولا رتل محمد في وقت من الأوقات الآيات التي اوحى بها الشيطان على أنها جزء من القرآن لأنه لا يمكن أن تكون القصة قد اخترعها مسلمون فيما بعد أو دسها غير المسلمين . ثم أعلن محمد فيما بعد أن هذه الآيات لا يجب ان تعتبر جزءاً من القرآن ويجب استبدالها بآيات تختلف عنها كثيراً في مضمونها . والروايات الاولى لا تحدد الوقت الذي حدث فيه ذلك . والأقرب أن يكون ذلك قد وقع بعد بضعة اسابيع او اشهر .

وهناك واقعة ثالثة او مجموعة وقائع نستطيع أن نكون واثقين منها . وهي أنه كان يجب على محمد ومعاصريه المكيين أن يشير في القرآن للآلهة اللات التي كانت معبودة في الطائف والعزى المعبودة في نخلة بالقرب من مكة ، ومنات التي كان معبدهـا بين مكة والمدينة . كانت العزى معبودة عند القرشيين أولا ، ولكن العائلة

---

(١) ابن سعد ، ٤ ، ١ ، ٦٩-٣ راجع ٢-١ ، ٢٧-١٤٥

الكهنوتية كانت تنتمي لبني سليم وكنانة وخزاعة وثقيف . كما يذكر بعض أفراد من هوازن على انهم كانوا يعبدونها . ونسمع عن أشراف المدينة الذين كانوا يملكون في بيوتهم [1] تماثيل من الخشب تمثل مناة ، ولكن العرب في مجموعهم في ذلك العصر ربما لم يفكروا بأية عبادة سوى المراسيم التي تقام على معابد خاصة . وهذا موقف يختلف تماماً مثلا عن تقديس المسيحيين الكاثوليك لمريم العذراء ويمكن للمسيحي ان يقول : « السلام عليك يا مريم » في أي مكان . بينما مناة ، حسب الرأي السائد عند العرب ، لا يمكن ان تفيد إلا في معبدها [2] . ما تعنيه إذن الآيات الابليسية ان الاحتفالات مقبولة في المعابد الثلاثة حول مكة . وأما معنى الآيات التي تقول بأن العبادة في هذه المعابد غير مقبولة فهي لا تحرم العبادة في الكعبة .

ويجب أن نعترف بأن الآيات التي صححت سورة النجم تمجد الكعبة على حساب المعابد الاخرى ، إلا إذا افترضنا وجود آيات أخرى كانت تحرم ذلك ثم رفعت فيما بعد من القرآن . ولكن ليس لدينا أي سبب يمكن الأخذ به . ومن المهم أن نتذكر بهذا الصدد ان هذه المعابد قد هدمت عند صعود نجم محمد [3] .

---

(١) ابن هشام ٣٠٣ ، ١١

(٢) ابن الكلبي ، كتاب الاصنام ١٣–١٩ ، فلهوزن ٢٤–٤٥

(٣) ابن هشام ٨٣٩ العزى ، ٩١٧ اللات ، طبري ١٦٤٩ ، مناة الخ .

جـ ـ الآيات الابليسية ، الأسباب ، التفاسير :

اعتبر الفقهاء المسلمون ، الذين ظلوا بعيدين عــن المفهوم الغربي الحديث للنمو التدريجي ، محمداً على أنه قد أخبر منذ البــدء بالمضمون الكامل لعقيدة الاسلام ، فكان مــن الصعب عليهم أن لم ير محمد خروج الآيات الابليسية على عقيدة الاسلام . والحقيقة هي أن توحيده كان في الاصل ، كما كان توحيد معاصريه المثقفين ، غامضاً ولم ير بعد أن قبول هذه المخلوقات الإلهية كان يتعارض مع هذا التوحيد ، لا شك انه يعتبر اللات والعزى ومناة على أنها كائنات سماوية أقل من الله ، كما اعترفت اليهودية والمسيحية بوجود الملائكة . ويتحدث القرآن عنها في الفترة (الأخيرة ؟) المكية باسم الجن [1] . وإن كان يتحدث عنهــا في الفترة المدنية على أنها مجرد أسماء [2] ، إذا كان ذلك فليس من الضروري اكتشاف سبب خاص للآيات الابليسية فهي لا تدل على أي تقهقر واعٍ للتوحيد بل هي تعبير عن النظريات التي دافع عنها دائماً محمد .

وهكذا فإن قيمة الآيات السياسية مهمة . فهل اعترف محمد بصحتها لأنه كان يهمه كسب الأنصار في المدينة والطائف وبين القبائل المجاورة ؟ هل كان يحاول التخفيف من تأثير الزعمــاء القرشيين المعارضين له باكتساب عدد كبير من الأتباع ؟ ذكر هذه المعابد دليل على ان نظرته اخذت في الاتساع .

---

(١) ١١٠-٦ ، ٤٨-١٨ ، ١٥٨-٣٧ (٢) ٢٣-٥٣

تشير الرواية عن أبي العالية ، المذكورة آنفاً ، ان القرشيين عرضوا على محمد إدخاله في دائرتهم إذا رضي بذكر آلهتهم . ونجـــد روايات أخرى بهذا الصدد . ويقولون انهم قدموا إليه الثروة والزواج من غنية ، ومكانة عالية . كما عرضوا عليه أن يشركوه في عبادتهم ومصالحهم [1] .

ويبقى علينا أن نعرف ما إذا كانت كل هذه القصص قد اخترعت للتعظيم من شان محمد في هذه الفترة . فهل عظم شانه ليعامله زعماء مكة معاملة الند للند؟ إن وصف مكانة محمد ، على الإجمال ، كما نجده في الأخبار قريب من الحقيقة . ويجب أن نتذكر أن هناك من حاول التقليل من أهمية الانتصارات الأولية التي حازها محمد لأن أحفاد الذين تبعوه لفترة من الزمن ثم تركوه كانوا لا يودون تذكر هذه الامور .

نرى محمداً في رواية أبي العالية شخصية كبيرة بين زائري مكة ، وإن لم يستقبله زعماء مكة استقبالا حسناً ، فلو أن الأمر كان مجرد اختراع لما لوحظ هذا التناقض بشكل قوي . فلنفترض إذن ان زعماء قريش عرضوا على محمد عرضاً من هذا النوع وذلك بأن ينال بعض الامتيازات المادية مقابل أن يعترف بآلهتهم . ويؤكد القرآن ذلك كما سنرى . ولا نستطيع أن نكون مطمئنين إلى التفاصيل . وإعلان الآيات القرآنية مرتبط بهذه القصة .

وتبعاً لهذا الرأي فإن نسخ الآيات مرتبط أيضاً بفشل هذه التسوية . ولا شيء يسمح لنا بالاعتقاد أن محمداً قد استسلم لخداع المكيين . ولكنه

---

(١) الطبري تاريخ ١٨٩١ راجع تفسير ١٥ ، ٨٢ ص ٧٧–٧٥–١٧

انتهى به الأمر إلى إدراك ان الاعتراف ببنات الله (كما كانت تسمى الآلهة الثلاث وغيرها) يعني إنزال الله إلى مستواها . وعبادة الله في الكعبة ، لم تكن في الظاهر تختلف عن عبادتها في نخلة والطائف وقديد ، وهذا يعني ان رسول الله لم يكن يختلف كثيراً عن كهانهم وأنــه لم يكن يرى نفسه مدعواً لأن يكون تأثيره أعظم من تأثيرهم. ينتج عن ذلك ان الاصلاح الذي عمل له من كل قلبه لن يتحقق .

وهكذا لم يرفض محمد عروض المكيين لأسباب زمنية بل لسبب ديني حقيقي . ليس لأنه لم يكن يثق بهم ، مثلا ، أو لأنه لم يبق شيء من مطامحه الشخصية بل لأن الاعتراف بآلهتهم يؤدي إلى فشل قضيته والمهمة التي تلقاها من الله . ولا شك ان الوحي قد نبهه إلى ذلك ، كما انه من الممكن ان يكون قد شعر بخطئه بهذا الصدد قبل نزول الوحي .

وإذا نظرنا إلى الوضع بصورة مجردة يبدو ان هناك قليلا من الاسباب للاعتراض على الاعتراف باللات والآلهة الاخرى على أنها مخلوقات سماوية ثانوية . ولا يتعارض الاعتراف بالملائكة مـــع التوحيد ، ليس فقط في اليهودية والمسيحية بل في الاسلام . وهناك مع ذلك عاملان حالا دون الاعتراف بذلك في مكة . أولا كانت العبادة في الكعبة ، التي كانت في السابق متعددة الآلهة ، آخذة بالطهارة ، وكانت في نظر المسلمين تسير في طريق التوحيد .

فإذا كانت عبادة مماثلة تمارس في معابد عديدة ، فلسوف يخيل لشعب الحجاز ان آلهة متساوية تقريباً تعبد فيها . ثم ان جـــملة « بنات الله »

تتضمن نتائج خطيرة حتى ولو لم نفرض تفسيراً حرفياً [١] . تستعمل كلمة « بنات » وغيرها من الكلمات غالباً مجازاً في اللغة العربية . وهكذا « بنت الشفة » اي « الكلمة » و « بنت العين » أي الدمعة ، و « بنات الدهر » أي المصائب . يمكن عندئذ أن تكون هذه الجملة « بنات الله » لم تكن تعني في الأصل سوى « مخلوقات سماوية أو خارقة » لأن « الله » هو مجرد « إله » وليس الآله الواحد العلي ، أي الله . ولما كانت كلمة « الله » أو كلمة « الإله » لم تعد تستعمل إلا للتدليل على « الله » يجب تفسير الجملة على انها تعني وجود مخلوقات مساوية لله تقريباً فلا يتفق ذلك مطلقاً مع التوحيد .

ويتفق الرأي القائل بأن قطع العلاقـــات بين محمد والمكيين نتيجة لنسخ الآيات الابليسية (مع رفض العروض التي قدمت اليه) ، يتفق مع النقطة الثانية المشار إليها سابقاً في رسالة عروة أي يتفق مع القول بأن القرشيين الموسرين في الطائف هم الذين تزعموا المعارضة الفعالة ضد محمد . وهناك تفسيرات متعددة ممكنة لهذا الامر ، وسوف نرى بسهولة التفسير الأقرب . وهو ان بعض القادة المكيين المهتمين بتجارة الطائف نجحوا في جعل النشاط التجاري في الطائف يصبح خاضعاً لنفوذ مكة المالي ، ولا شك ان رفض الاعتراف بمعبد اللات قد هدد بشكل مـــا مشاريعهم وأثار غضبهم على محمد .

ويؤكد القرآن الاشارة الواردة في رسالة عروة بان « ذكر الآلهة »

---

(١) فلهوزن ٢٤ Reste

دل على المرحلة الحاسمة في العلاقات بين محمد والقادة المكيين ، تتحدث آيتان ، تذكر ان عادة بصدد الحوادث التي نحن بصددها ، عن إغراء كاد محمد يقع فيه . و تبقى طبيعة الاغراء غير محددة في إحداهما (٧٧_٧٥/١٧) وأما الاخرى (٦٦-٦٤/٣٩) فهي بصدد الاعتراف « بشركاء » لله . و تقر هذه الايات أيضاً أن نتائج هذه التسوية ربما كانت خطرة بالنسبة لمحمد سواء كان من الناحية الأبدية أو الزمنية . ربما كانت هذه الايات من أوائل الايات المدنية »[1] ، ولكن يبدو ، مهما كان تاريخ نزولها ، انه ليس من سبب وجيه لرفض علاقتها بالايات الابليسية ونسخها . كما يمكن ذكر آية أخرى (٦/١٣٧) بصدد هذه الحوادث ، فهي تقرر بان الكفار ولو اعترفوا بالله شكلياً فإنهم لا يعترفون به عملياً اعترافهم بالالهة والاصنام. ذلك ما أظهر لمحمد ان التسوية لا تجدي .

وتقول الرواية ، ان سورة الكافرين (١٠٩) هي السورة التي ذكرها محمد رداً على الزعم بانه سيعقد هذه التسوية ، « يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم ، لكم دينكم ولي دين » . وهذا بمثابة قطع كامل لكل علاقة مع الشرك مما يجعل كل تسوية مستحيلة في المستقبل .

وهناك آيتان شبيهتان وإن كانتا أقل عنفاً (٦/٥٦و٧٠) . و تتحدث الثانية عن عبادة الاوثان قائلة « أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ، ونرد على أعقابنا بعد أن هدانا الله » . ويحملنا وقوعنا على

---

١ بل ، ترجمة القرآن .

ثلاث آيات منفصلة على الاعتقاد بأن محمداً عانى من إغراء التسوية مدة طويلة .

ويجب أن نلاحظ تعاليم القرآن الدقيقة خلال الفترة المكية عـــن الاصنام .وهدفه الرئيسي هو أن يظهر ان عبادة الاصنام لم يعدلها مبرر، لأن الأصنام عاجزة عن مساعدة الانسان او الاساءة اليه [١] . ولا يمكنها أن تشفع له [٢] وسوف يتضح كل ذلك يوم الحساب حين يدعو المشركون الاصنام فلا يستجيبون لهم [٣] .

تشعرنا هذه الايات انها موجهة إلى جماعة أخذت نظراتهـــا الدينية بالتطور إذ يرى المشركون في الاصنام « وسطاء » (١٠/١٩) وهذا يعني انهم يعترفون بكائن أعلى وربما آمنوا بعقيدة القرآن عن يوم الحساب ، وهذه المسألة الاخيرة لا يمكن الوثوق منها لأن التحذير من موقف الاصنام في اليوم الأخير كان له تأثير حتى على الذين كانوا على استعداد لعـــدم قبول العقيدة بأكلها .

ولما كان المشركون يجعلون من « الجن » شركاء الله ، فإن هذا لا يعني بالتأكيد ان المشركين يعتبرونها « جناً » . يمكن للقرآن أن يعبر هكذا عن القضية لأن ذلك كان شعور محمد في ذلـــك الوقت وشعور الذين تركوا عبادة الاصنام . ولم يكن هجوم القرآن على الاصنام في ذلك الحين

---

(١) ٤٦-٦ ، ٧٠ ، ١٩-١٠ ، ٣٥ ، ٥٨-١٧ ، ٤٤-٢١

(٢) ١٩-١٠ ، ٩٠-١٩ ، ١٠٠-٣٠

(٣) ٨٨-١٦ ، ٥٠-١٨ ، ٨٦-٨٤-١٩ ، ٦٣-٦٢-٢٨ ، ٧٤

شديداً ، فهو لا ينكر وجودها كمخلوقات خارقة . وربما كان ذلك كافياً لاثارة الشك في نفوس الذين كانت نظراتهم إلى الدين تجتاز مرحلة اضطراب شديد .

وجلة « بنات الله » موضوع انتقاد قبل كل شيء. ولنلاحظ الحجة التي تذكر مرات عديدة بصدد نسخ الايات الابليسية وهي انه يستحيل أنلا يكون لله إلا البنات بينا أهالي مكة ينجبون البنين والبنات اللواتي يعتبرن أقل من البنين [1] . ولا يمكن أن يكون لله ذرية لأنه ليس له زوجة [2] .

ويميز القرآن تمييزاً دقيقاً بين « الاولاد » و« العباد » الذين « بأمره يعملون [3] » وهكذا تعني كلمة « البنات » ، او يمكن أن تعني ، ان الاصنام كانت شبيهة الله . وهذا ما نفاه نسخ الايات الابليسية .أما النقاط الاخرى فقد أضيفت فيا بعد مع حجج مختلفة لم تذكر آنفاً .

وهكذا يتفق القرآن مع ما علمتنا إياه الاحاديث . فلا شك ان محمداً قد نال نجاحاً أمام زعماء قريش ليهتموا بأمره فظهرت المحاولات لحمله على الاعتراف بصورة أو اخرى بالعبادة في المعابد المجاورة . وكان في أول الامر مستعداً لذلك بسبب المنافع المادية ، ولأنه كان يشعر ان ذلـــك يساعده على تحقيق مهمته بسهولة . ثم أدرك شيئاً فشيئاً ، عـــن طريق النصح الالهي ،ان ذلك كان تسوية مميتة فاعد مشروعاً لتحسين وسائله

---

(١) ٦٠–٥٩–١٦ ، ١٤٩–٣٧ ، ١٥–٤٣ ، ٢٢–٢١–٥٣ :
(٢) ١–١٠٠–٦ ، ١١١–١٧ (٣) ٢٨–٢٦–٢١
(٤) ٧١–٥٢–٢١

بالمحافظة على الحقيقة كما كانت تظهر له . فأعلن رفض الشرك ، بالفاظ شديدة تغلق الباب في وجه كل تسوية .

يميل الغربيون إلى الاعتقاد بأن المسلمين يخلطون بين الدين والسياسة بصورة غير مستحبة (وإن كان ذلـــك ليس مقصوراً على المسلمين بل يجاريهم في ذلك المسيحيون الشرقيون وغيرهم) . وربما كان الأصح القول ان المسلمين يدركون بصورة أوضح من الغربيين الاساس الديني للمسائل السياسية. وكان محمد يهتم بالاحوال الاجتماعية والسياسية و الدينية في مكة وكان يعتبر الناحية الدينية انها هي الرئيسية . ومع ذلك فإن قراراته الدينية ، لأن نتائجها كانت حيوية ، كانت تتضمن نواحي سياسية .وإذا كانت قصص العروض من قبل زعماء قريش صحيحة فكان يجب تنبيه محمد عـــلى الجوانب السياسية لقراراته ولا سيما إقرار الآيات الابليسية والآيات الناسخة . ولقد أنذر (بترديده سورة الكافرين فرفض نهائـــياً التسوية) بأن كل سلام أصبح مستحيلا مع القرشيين طالمـــا أنهم لا يعترفون بصدق رسالته . ويعني هذا من ثم ، حسب الافكار العربية حول سلطة الحكمة ، قبوله كنبي أي كزعيم سياسي . ولكن ربما لم يقدر محمد كل هذا في بداية الأمر . فهو يقبل وجهة النظر القرآنية القائلة بأنه لم يكن سوى رجل ينذر ، ولم يكن يفكر بأي دور غير الدور الديني . ومعذلك فلم يكن يمكن استمرار الفصل بين رسالة النبوة ووظيفة القائد السياسي في الظروف المشار اليها ، أي في مثل نظرة العرب لما يحدد صفات الفضل والكفاءة الضرورية للحكم . فاي إنسان كان باستطاعته فيما بعد انتهاج

سياسة تكذيبها كلمة من الله أو حتى من نبيه . وهكذا تكون الاشارة إلى الآلهة بداية معارضة القرشيين العنيفة ، كما أن سورة الكافرين ، وإن بدت دينية صرفة ، فهي حث لمحمد على فتح مكة .

٢ ـ قضيّة الحبشة

إذا كانت التواريخ المذكورة بصدد الحوادث الواردة في رسالة عروة مقبولة ، فيجب الاعتقاد بأن الهجرة إلى الحبشة تقع بعد تلاوة سورة الكافرين مع الآيات المنسوخة ، وهـــذا يتفق مع النتائج حول مغامرة الحبشة التي نصل إليها الآن .

أ ـ الرواية التقليدية :

يروي لنا ابن هشام القصة كما يلي[١] :

عن محمد بن اسحاق المطلبي قال: فلما رأى رسول الله ما يصيب أصحابه من البلاء ، وما هو فيه من العافية ، لمكانه من الله ، ومن عمه أبي طالب وانه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء قال لهم لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه ، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة ، وفراراً إلى الله بدينهم فكانت أول هجرة كانت في الإسلام .

---

(١) ابن هشام ٢٨

وكان أول من خرج من المسلمين (يلي ذلك اسماء عشرة أشخاص ومن تبعهم) .

فكان هؤلاء العشرة أول من خرج من المسلمين إلى أرض الحبشة . قال ابن هشام : وكان عليهم عثمان بن مظعون – فيما ذكر لي بعض أهل العلم . قال ابن اسحق : « ثم خرج جعفر بن ابي طالب ، وتتابع المسلمون ، حتى اجتمعوا بأرض الحبشة فكانوا بها ، منهم من خرج بأهله معه ، ومنهم من خرج بنفسه لا أهل له معه (يلي أسماء ٨٣ شخصاً ومن بينهم أشخاص القائمة الاولى) .

يقول بعض المؤرخين المسلمين فيما بعد ، استناداً على هذه الرواية ، أنه حدثت هجرتان إلى الحبشة ، وان بعضهم ، أي رجال القائمة الاولى ، قاموا بالهجرتين . وعاد عدد صغير منهم إلى مكة واشترك في الهجرة إلى المدينة ، بينما ظل الاخرون حتى السنة السابقة للهجرة حين التحقوا برسول الله في خيبر .

ب – تفسير القائمتين :

ناقش المؤرخون الغربيون الرأي القائل بوجود هجرتين إلى الحبشة ولا سيما كايتاني [1] الذي ندين له بالشيء الكثير في السطور التالية :

السبب الاول لعدم قبول الهجرتين أن ابن اسحاق ، كما يقول معاً ابن هشام والطبري ، لا يقول صراحة بوجود هجرتين . فهو يقول :

---

(١) حوليات ج١ص ٢٦٢–٧٢ ، بل في :
Noldeke Festschrift . Giessen 1906 I. 13 / 22

« وكان أول من خرج من المسلمين » ثم يذكر قائمة صغيرة ، ويردف قائلا: « ثم خرج جعفر بن أبي طالب ، وتتابع المسلمون » . لا نلاحظ ذكر أي جماعة عادت لتهاجر من جديد مرة ثانية . ونلاحظ من ناحية ثانية أن القوائم لا تتبع نظام الرحيل إلى الحبشة بل تتبع تنظيما يقوم على المكانة حيث نجد ذكر الاسم حسب سجل الخلافة الذي أخذت منه . نقرأ فيها أن أول من وصل إلى الحبشة كان أبا سبرة[1] ، وأن عمر بن سعيد بن العاص هاجر بعد سنتين من هجرة أخيه خالد[2] . تدل هذه الامثلة ، كما تدل كلمة « تتابع » انه لم يكن هناك جماعتان كبيرتان بل جماعات صغيرة .

ونشعر من قراءة ابن اسحق أنه وجد ، لبعض الوقت ، قائمتان بأسماء المهاجرين للحبشة وأنه هو نفسه لم يكن واثقاً من صحة القائمتين .

وإذا استطعنا ، اعتماداً على التاكيد بأنه لم تحدث إلا هجرة واحدة على مراحل استغرقت عدة سنوات ، وليس هجرتان ، أن نقدم تفسيراً بسيطاً عن كيفية وصول قائمتين إلينا وتاليفهما ، فإن ذلك سوف يساعد بقوة على تاكيد النظرية القائلة بوجود هجرة واحدة مستمرة .

عدل الخليفة عمر في السنة ١٥ للهجرة النظام الذي كان المسلمون بموجبه يتقاضون أعطيات سنوية من بيت المال تقديراً لخدماتهم في القتال أو في الإدارة . وهذه الاعطيات تختلف باختلاف تاريخ اعتناق الإسلام، ذلك لأن المسلمين الاول كانوا يتقاضون أكبر الاعطيات . وقد

---

(١) طبري ١١٨٤ (٢) ابن سعد ج ٤ ، ١ ، ١٤-٧٣

أصبحت ، حسب النظام الجديد ، أرفع الطبقات بعد زوجات الرسول وأقربائه ، تتكون من الرجال الذين حاربوا في بدر . ويبدو أنها كانت تتألف قبل ذلك من المهاجرين الذين اشتركوا في الهجرة . وكل من برهن على قيامه بهجرة أو هجرتين ينال شرفاً رفيعاً يؤهله لاحتلال أرفع درجات النبل في الإسلام . ومن الصعب أن نقول بأن هذه الخلافات حول هذه الامور قد اخترعت في العصر اللاحق لانها فقدت قيمتها بعد الاصلاح الذي قام به عمر . ونستطيع إعادة بناء ما جرى كما يلي :

قرر محمد في السنة السابعة للهجرة أن يقوي مركزه بالاعتماد على تاييد الجماعة الصغيرة في الحبشة . فارسل إليهم رسولاً يعدهم بالاستقبال الحار ويصحبهم في طريق العودة ، فعادوا أو عاد قسم منهم ، فاستقبلوا استقبالاً حافلاً ونالوا جزءاً من فيء خيبر التي استولى عليها محمد لتوه .

ولربما اطلق لفظ الهجرة على مغامرة الحبشة في هذا الوقت على يد محمد نفسه اعترافاً بموقف جعفر الكريم وصحبه ، وأصبح يحق لهم ، بسبب هجرتهم إلى الحبشة ، أن يعاملوا كمهاجرين وأن يكونوا أنداد الذين أعطوا هذا اللقب . ولقد أتاح هذا ، لسوء الحظ ، لبعض الناس ، الذين لم يهاجروا للحبشة إلا لفترة قصيرة ، ثم قاموا بالهجرة من مكة إلى المدينة ، أن يدعوا بأنهم هاجروا مرتين ، وقد استطاع محمد أن يعالج ذلك نوعاً ما بقوله : « والاخرون أيضاً هاجروا إلى الحبشة »[1] .

---

(١) ابن سعد ج ٤ ، ٧٩-١

وإذا ما فحصنا بعناية أولى القائمتين المذكورتين آنفاً نلاحظ أنها قائمة ناقصة للذين قاموا بهجرتين : مرة إلى الحبشة ومرة إلى المدينة . ونجد معظم الذين ذهبوا إلى الحبشة واعترف لهم بأنهم هاجروا إلى المدينة مع محمد في أطوال صيغة للقائمة الاولى .

ويبدو أن عمر ، الذي أصبح خليفة فيما بعد ، كان من أهم المعارضين لهذه المعاملة لفائدة الذين ظلوا أطول وقت في الحبشة. ولدينا نص الحوار الذي نشأ بينه وبين زوجة جعفر بن أبي طالب وتدخل فيه محمد[1] . وهذا يوضح لنا المؤثرات التي عملت في التصنيفات التي اختارها عمر لمقاييسه الجديدة في العطاء . ولا نجد فيها ذكراً لكل من الهجرتين،وكان تأثيرها ان الذين لم يعودوا من الحبشة إلا أيام حملة حنين وجدوا أنفسهم أقل طبقتين من الذين حاربوا في بدر .

ج ـ أسباب الهجرة :

لا تتقدم بنا الاعتبارات المذكورة آنفاً ، ولو كانت صحيحة ، كثيراً في طريق فهم القضية الحبشية، التي هي أشد تعقيداً مما يبدو من الروايات الإسلامية العادية. ولسوف يصبح ذلك بديهياً من وضعنا السؤال التالي : لماذا هاجر هذا العدد الضخم من المسلمين إلى الحبشة ؟

الجواب الأول الممكن هو أنهم هاجروا إليها للهروب من الاضطهاد والمشقات التي كانوا يعانونها في مكة . يبدو ذلك من قراءة رسالة عروة

---

(١) البخاري ٣٨-٦٤ (١٢٨،٣) ٣ ، ١٦٥

و في رواية ابن اسحق، وإن كان هذا يقول بان محمداً هو الذي قام بالمبادرة . و من الصعب القول بان هؤلاء المضطهدين الاول في الاسلام دفعهم إلى ذلك خوفهم من الآلام . ومن المفيد أن نشير ، تأييداً لهذا الجواب ، إلى أن رجال قائمة « المسلمين الاول » ، عند ابن اسحق ، لما كانوا لم يذهبوا إلى الحبشة ، فإنهم ينتمون جميعهم تقريباً ، الى قبائل هاشم ، المطلب ، زهرة ، تيم وعدي إما أفراداً من هذه القبائل أو متحالفين معها

وهذه هي قبائل حلف الفضول بعـــد أن حلت عدي محل أسد ، وكانت تؤلف المعارضة للفئات التي تجمعت حول مخزوم وعبـــد شمس وكانت تملك النفوذ المالي [1] .

وكان أهم المعارضين لمحمد ينتمون لقبيلتي مخزوم وعبد شمس وكانت الاساءة لأتباعه تقوم على الضغط عليهم وسط قبائلهم أو عائلاتهم . أمـا أعداؤهم من زهرة وتيم وسائر القبائل فلم يضطهدوا أتباع محمد لأنه كان يهاجم كبار رجال المال الذين كانوا لا يحبونهم ، ولهذا فإن المسلمين من هذه القبائل لم يشعروا بنفس الحـــاجة إلى الهجرة إلى الحبشة . وكان الأرقم (من مخزوم) يحتل مكانة مرموقة ، مع صغر سنه ، ولربما كان زعيم عائلته لأنه كان باستطاعته تقديم منزله للمسلمين لعقد اجتماعهم ، ولهـــذا لم يكن معرضاً للاضطهاد . أما الآخر وهو أبو أحمد بن جحش (حليف عبد شمس) وكان شاعراً أعمى له وضعه الخاص ، ويقول ابن سعد انه هاجر

---

(١) راجع الفصل الاول ٢ أ

إلى الحبشة وإن كان ابن اسحق لا يذكره .

ويبدو ان هذه الحجة فيها بعض القوة لتأييد الجواب الذي يذكر بصدده، ولكن هناك اعتراض جدي على هذا الجواب . فلو ان المسلمين لم يهاجروا إلى الحبشة إلا للفرار من الاضطهاد ، فلماذا بقي بعضهم فيها حتى السنة السابعة بعد الهجرة بينما كان باستطاعتهم اللحاق بمحمد بكل اطمئنان في المدينة ؟ لم يصلنا شيء يجعلنا نفترض أن محمداً قال لهم بالبقاء في الحبشة بعد هجرته هو حتى يصبح بإمكانه تلبية حاجاتهم على الوجه الاكمل في المدينة . فلو فعل ذلك لترك ما يدل عليه . ويتضمن كل جواب على هذا السؤال التالي أن المهاجرين كانوا يخضعون في تصرفاتهم لسبب آخر غير الفرار من الاضطهاد وهو لا شك سبب مهم .

هناك سبب ثان ممكن قال به العلماء الغربيون فقد لاحظوا أن الروايات الاولى تتحدث عن مبادرة محمد فاستنتجوا من ذلك بانه لم يفكر بتجنيبهم المصاعب المادية قدر تفكيره بأبعادهم عن خطر الارتداد عن الإسلام . لأنهم إذا ظلوا في مكة معرضين للضغط العائلي فإنهم يتعرضون في نفس الوقت لحملهم على الارتداد عن عقيدتهم الجديدة .

وليس هذا السبب مرضياً أكثر من السبب الاول، فإلام يؤدي ؟ وماهي الاسباب التي دفعتهم إلى انتظار تغير الوضع الذي يسمح لهم بالعودة سالمين إلى مكة ؟ وأخيراً فإن بعضهم كان قوي الإسلام ولم يكونوا معرضين قط لحملهم على الارتداد عن دينهم . ألم يكن من الافضل تركهم في مكة ليقتدي بهم الآخرون في اعتناق الإسلام ؟

وهناك سبب ثالث ممكن وهو أنهم هاجروا للتجارة ، ومن البديهي وقد أمضى بعضهم في بلاد الهجرة مـــا يقارب الاثنتي عشرة سنة ، أنهم حصلوا على وسائل للعيش وأنهم قاموا بنشاط تجاري .

ويتحدث عروة عن الحبشة على أنها بلاد تقع ضمن نطاق فلك مكة التجاري .

ومع ذلك فلا يكفي هذا السبب لتوضيح أفعال محمد وأقربائه إلا إذا افترضنا أنهم تولاهم يأس قاتم حملهم على التخلي عـــن كل أمل في الاصلاح الديني في مكة . ولكن حتى ولو كان هـــذا موقف المهاجرين فانه ليس موقف محمد . علينا إذن أن نبحث عن أسباب أخرى .

هل من الممكن ، رابعاً ، أن يكون جزءاً من مخطط بارع وضعه محمد ؟ هل كان يأمل بمساعدة حربية تأتي من الأحباش كما أمل جـــده بالاستفادة من مساعدة حربية على يد أبرهة ؟

لم يكن الاحباش لتسوءهم المناسبة التي تتيح لهم اكتساح الجنوب العربي واستعادة البلاد التي فقدوها . ولربما أقر امبراطور بيزنطية — وكان ذلك لسنة أو سنتين خلتا على استيلاء الفرس على القدس — هذه العملية على الجانب الفارسي . أو ان محمداً كان على عـــلم باتخاذ الحبشة قاعدة للوثوب على تجارة مكة ، كما اتخذ المدينة فيما بعد ؟ او انه كان يرى فتح طريق تجاري مزدوج يسير من الجنوب نحو بيزنطية ، بعيداً عن سلطة دبلوماسية مكة ؟

قلنا سابقاً [1] بان سياسة مكة كانت سياسة محايدة تماماً ، غير أن الحبشة كانت لا تقر ، بدون شك ، استعداد المكيين للتجارة مع الفرس ، وكانت مستعدة أن تفعل ما تستطيع لإضعاف مكة اقتصادياً .

والقصة التي تقول بان المكيين أرسلوا رجلين أمام النجاشي ممكنة وتؤيد الفكرة القائلة بان الهجرة كانت لها أسباب اقتصادية وسياسية .

غير أن طبيعة هذه البعثة ونتائجها تظل فرضية من الفرضيات .

ربما نجحت بمنع النجاشي من تاييد المسلمين مشيرة إلى ضعفهم في مكة ، ولو أنها فشلت في تحقيق هدفها الرئيسي وهو إعادتهم إلى بلادهم . وهكذا نجد مرة أخرى أن هذا السبب الرابع ، وإن كان مغرياً ، لا يفسر لنا سر بقاء المسلمين طويلا في الحبشة .

من الصعب مقاومة الفكرة القائلة بوجوب الاطمئنان إلى السبب الخامس وهو أنه نشأ انقسام قوي في الرأي داخل أمة الإسلام الناشئة.

فبعد أن يذكر ابن هشام القائمة الاولى بأسماء المهاجرين عن ابن إسحق، يضيف قائلا بأن عثمان بن مظعون كان زعيمهم . ويذكر ابن سعد من ناحية بأنه حرم على نفسه الخمر [2] في الجاهلية وأنه فيما بعد حاول إدخال نزعة زهدية في الإسلام فلم يوافق محمد . وكان عثمان قد انضم إلى محمد مع أربعة من أصدقائه ، وكانوا من الشخصيات المهمة وكان هو أكثرهم نفوذاً . فيجب إذن اعتباره زعيم جماعة المسلمين المنافسين للجماعة التي كان يقودها أبو بكر . وقد ظل عمر ، حسب قول ابن سعد ، بعد

(١) الفصل الاول ٢ ، د (٢) ج ٣ ، ٩١ ، ٢٨٦-١

وفاة محمد وأبي بكر، لا يحترم عثماناً لأنه مات على سريره . وهذه اللاحظة من بقايا العداوة بين عثمان بن مظعون وجماعة أبي بكر وعمر .

وهناك دلائل أخرى على الخلاف بين المسلمين . كان خالد بن سعيد (من عبد شمس) من أوائل المسلمين وكان أول من هاجر إلى الحبشة [1] ، ولكنه لم يرجع قبل خيبر . ويبدو أنه أظهر بعض العداوة لأبي بكر بعد وفاة محمد، وهذا دليل على أن فئة كانت تعارض أبا بكر.

وقصة الحجاج بن الحارث بن قيس (من سهم) الذي ربما كان الحارث بن الحارث بن قيس ، فقد أسر وهو يحارب المسلمين في بدر [2] .

ولكن يبدو انه كان أول من هاجر من المسلمين إلى الحبشة . ويشك علماء المسلمين بذلك حتى انهم ينفون أن يكون بين المهاجرين . فاذا كان ذلك تصرف مهاجر إلى الحبشة، أفلا يكون مصير الآخر شبيهاً لمصيره ؟

وهناك عدد من المهاجرين لا تشير المصادر إلى تاريخ وصولهم الى المدينة.

ثم هناك قصة نعيم بن عبدالله النهلان (من عدي). يبدو أنه كان زعيم قبيلة عدي ، وكان هو وأبو بكر من الشخصيات البارزة بين المسلمين الاوائل ، الذين لم يهاجروا الى الحبشة . ويظهر أن فتوراً قد نشأ بينه وبين الأكثرية التي كانت تتكون من جماعة أبي بكر ، ولم يهاجر الى المدينة إلا في السنة السادسة للهجرة ، وليس من المستحيل أن تكون قد وقعت مثل هذه الحوادث التي ذكرها عروة بقوله :

---

(١) ابن سعد ج ٤ ، ١ ٨٢=٦٧-١

(٢) ابن هشام ٥١٤ ، ابن حجر الاصابة أ رقم ١٦٠٨

« فتن البعض » ، ولا شك أن عروة ليس شاهدا عدلا فقد اتبع أبوه، الزبير بن العوام ، خطى عثمان بن مظعون ويمكن أن لا يكون دقيقاً في الأسباب المذكورة والتواريخ .

خلاصة هذه الدراسة لأسباب الهجرة هي التالية : لو افترضنا أن المهاجرين خضعوا جميعهم لنفس السبب فإن السبب الخـــاص يبقى هو الأقرب . ولسنا بحاجة لأن نفترض أن الخلاف قد بلغ درجة عالـــية من الحدة ولا أن الأسباب الاخرى المذكورة لم يكن لها تأثير. فلربما وقع شيء يشبه هذا .

كان المهاجرون إلى الحبشة رجالا تملؤهم معتقدات دينية صحيحة . وكان بعضهم ، أمثال عثمان بن مظعون وعبيد الله بن جحش (الذي اعتنق المسيحية في الحبشة) قد آمنوا بهذه المعتقدات قبل ظهور محمد كنبي .

لا يمكن لأمثال هؤلاء الرجال أن يرضوا بسياسة أبي بكر القائمة على أن أبا بكر قد عين ليكون خليفة محمـــد . ونحن مضطرون إلى الفرض والتخمين لمعرفة حقيقة هذه السياسة . من الممكن أن تكون قد فرضتها الارادة الملحة لجعل محمداً زعيما سياسياً وزعيما دينياً ، وذلك بسبب الأهمية الاجتماعية والدينية لرسالته . وكان الذين بقوا في مكة ينتمون إلى القبائل المستعدة (ما عدا ربما عدي) لاتباع زعيم من قبيلة هاشم بالنظر إلى حلف الفضول القديم . ومهما كانت سياسة أبي بكر فإن محمداً أقرها بدون شك.

---

(١) ابن سعد ٤ ، ١٤٤—١

وربما كانت الإشارة إلى أن محمداً هو الذي اتخـذ هذه المبادرة محـاولة لاخفاء دوافع شريرة بين الذين تركوه في مكة . وليس من الضروري مع ذلك تفسير المعطيات بهذا المعنى . فلقد رأى محمد بسرعـــة ظهور انقسام فعمل على اجتثاث جذوره . فأشار بالسفر إلى الحبشة لتـــأييد مخطط للمحافظة على مصالح الإسلام ، وهو مخطط لا نزال نجهل طبيعته الحقيقية لأن نجاحه كان ضئيلا في تحقيق أهدافه الظاهرة . ويدل الصلح السريع نسبياً بين عثمان والعائدين إلى مكة قبل الهجرة إلى المدينة على أنه لم يحدث قط انقطاع تام بينهم وبين محمد . فقد انتهوا بقبول سلطة محمد ومكانة أبي بكر فحاربوا بشجاعة كمسلمين في بدر .

٣ ـ مناورات المعارضة

إن التفاصيل التي نجدها عند ابن هشام والطبري بصدد بقية الفترة المكية ضئيلة ، وهما يقدمان لنا مع ذلك صورة متناسقة للمظاهر الخارجية في معارضة محمد . ويجب أن نتسامح بصدد بعض المبالغات من جانب أو آخر لأن هذه المبالغات هي أقل بكثير مما فكر به الكتاب الغربيون .

أ ـ اضطهاد المسلمين :

يبدو وصف أبي جهل عند ابن اسحق خالياً من المبالغة :

« وكان أبو جهل الفاسق الذي يغري بهم (أي المسلمين) في رجال قريش ، إذا سمع بالرجل قد أسلم له شرف ومنعة انبه وخزاه وقال : تركت دين أبيك وهو خير منك ، لنسفهن حلمك ولنقيلن رأيـــك ،

ولنضعن شرفك ، وإن كان تاجراً قـــال : والله لنكسدن تجارتك ، ولنهلكن مالك ، وإن كان ضعيفاً ضربه وأغرى به » .

لا شيء يبرهن إذن على أن اضطهاد أبي جهل للمسلمين تعدى الطعن اللفظي بالاشخاص المتنفذين والضغط الاقتصادي على من هم دونهم والضرب الجسدي الذين لا أهمية لهم ، ولما ظلت معظم القبائل القرشية قوية لجابهة أي شخص يؤذي عشيرهـا أو حليفها فنستطيع الافتراض بأن عـدد المساكين الذين تعرضوا للضرب الجسدي قليل جـــداً لم يتعد العبيد أو أشخاصاً لا علاقة لهم بقبيلة من القبائل أمثال خباب بن الإرت ، وكان يمكن نزع السلاح من أفراد القبيلة أو حلفائها وإن كان ذلك يحط مـن شرف القبيلة وهذا ما حدث لأبي بكر فقدوضع تحت حماية ابن الدغنة[1] .

كما نسمع عن العلاقات التي تربطه بطلحة . ولم تكن قبيلة تيم ، على كل حال ، قوية . ومن الممكن أن يكون محمد افتقد حماية قبيلته عند زيارته للطائف إذا ما رأينا الاستقبال الذي استقبل به وانه اضطر قبل عودته إلى مكة أن يطلب مـــن أعضاء القبـــائل الاخرى أن يضمنوا له حمايتهم .

لا شك أن المصادر حين تتحدث عن فتنة المسلمين إنمـــا تشير لمثل أعمال أبي جهل . وهي ليست مع ذلك فتنة قاسية . يتأكد ذلك إذا مـا فحصنا بدقة سير ابن هشام والطبري ، وابن سعد . لأن ما يذكر فيها يتحدث بلا شك عن أفظع الشواهد . وكل شيء يدعو إلى إقناعنا بأن

---

(١) ابن هشام ٢٤٥

الاضطهاد كان خفيفاً . ومن الممكن ان المبالغة في الاضطهاد نشأت من محاولة نفي تهمة الارتداد عن الدين عن شخص من الأشخاص .

وتشهد الوثائق التي لدينا على مختلف مظاهر المعارضة المذكورة عن ابن اسحق . فقد شتم محمد وتعرض لإهانات بسيطة كان تجمع أوساخ جيرانه أمام منزله ، وربما زاد الإزعاج بعدوفاة أبي طالب [1] . ومــــن الممكن أن يكون انخفاض رأسمال أبي بكر من ٤٠٠٠٠ درهم إلى ٥٠٠٠ درهم بين اعتناق الإسلام والهجرة [2] سببه الضغط الاقتصادي الذي كان يلوح به أبو جهل وليس شراء العبيد كما يقول ابن سعد ، [3] لأن ثمن العبد لم يكن يتجاوز الـ ٤٠٠ درهم تقريباً . وأشهر الأمثلة عـــلى التعذيب الجسدي ما نزل بالعبيد كبلال وعامر بن فهيرة [4]، كذلك رفض العاص بن وائل أن يسدد ديناً لخباب بن الارت [5] . ويمكن أن نذكر نوعاً رابعاً من الاضطهاد وهو الضغط الذي يقوم به الآباء والاعمام والاخوة على أفراد عائلاتهم أو قبائلهم . وأفضل مثال على ذلك ما نزل بالوليد بن الوليد ، وسلمة بن هشام ، وعياشة بن ربيعة على يد أبي جهل [6] . ونجد أمثلة أخرى عند ابن سعد وكذلك ما لحق عمار بن ياسر وعائلته على يد بني مخزوم [7] .

---

(١) ابن هشام ١٨٣–٨٥ ، طبري ١١٩٨

(٢) ابن سعد ج ٣ ، ١٢٢/١

(٣) ج ٣ ، ٢١/٢٧/١

(٤) ابن هشام ٢٠٥

(٥) بن سعد ج ٣ ، ١١٦/١

(٦) ابن هشام ٢٠٦

(٧) ابن هشام ٢٠٦

وهكذا كان اضطهاد المسلمين إذن خفيفاً ، لأن نظام الحماية في مكة - حماية القبائل لأفرادها - كان يمنع من أن يؤذي المسلم على يد فرد من من قبيلة أخرى حتى ولو كانت قبيلة المسلم لا تميل إلى الإسلام ، لأن الامتناع عن نصرة العشير في نزاعه مع الآخر يعتبر مساً بشرف القبيلة .

ولهذا اقتصر الاضطهاد على :

١ - حالات لا تمس بعلاقات القبائل حين يكون المضطهدون من نفس القبيلة أو حين تكون الضحية لا تحميها أية قبيلة .

٢ - وأعمال غير مذكورة في شريعة الشرف التقليدية كالاجراءات الاقتصادية والشتائم اللفظية وغيرها من الشتائم لا تمس إلا الفرد وليس القبيلة . وقد كان هذا الاضطهاد المحدود كافياً لتنشيط الإسلام الوليد ولكنه لم يكن يستطيع رد أي مؤمن عن دينه .

ب - الضغط على بني هاشم .

هذا النظام في الحماية الذي عرضناه لتونا هو الذي مكن محمداً من الاستمرار في دعوته في مكة حتى سنة ٦٣٢ م رغم معارضة الأعضاء النافذين في المجتمع - وكان سيد بني هاشم في هذا الوقت عم محمد ، أبو طالب وقد عزم ، وإن لم يكن مسلماً ، على حماية محمد حماية كاملة مطلقة كتلك التي يستحقها كل فرد من أفراد القبيلة . وقد حاول زعماء قريش ، بقيادة أبي جهل ، الضغط على أبي طالب ليطلب من محمد اما الكف عن

دعوته أو يمنع عنه حمايته ، ولكن أبا طالب رفض الأمرين ونجح في حمل القبيلة على الموافقة على خطته[1] ، كما انضمت قبيلة المطلب الى بني هاشم لأسباب متعددة فاصبحتا وكأنهما قبيلة واحدة .

المحافظة على شرف القبيلة دافع يكفي بنفسه للتصرف بهذا الشكل ولكن تأثيره أكثر . فلقد رأينا سابقاً أن قبيلة هاشم قد تضاءلت مكانتها في السنوات العشرين السابقة ولهذا فإن التخلي عن أحد شبابها الموهوبين يعني فقدان القوة والاعتراف بضعفها ، وهذا يسيء زيادة الى حالتها ، ولربما اختفى وراء مشكلة محمد وشرف القبيلة عامل سياسي واقتصادي .لأن الحركة التي أسسها محمد، وان كانت في الأصل دينية ، فقد شملت الميدان الاقتصادي ولهذا يحق اعتبارها انعكاساً لموقف المعارضة التي اتخذه حلف الفضول ضد رأسمالية قاسية . وبهذا يمكن اعتبار محمداً أنه استمرار لسياسة هاشم التقليدية ، فليس من المستغرب اذن أن يحظى بالتأييد العام في قبيلته . ويجب أن نلاحظ أن أبا طالب حمى أيضاً مسلماً آخر هو أبو سلمة بن عبد الاسد ابن أخته وكان ينتمي لقبيلة مخزوم[2] ، وقد أيده أبو لهب في ذلك .

ويستحق أبو لهب ان نتوقف عنده . فقد استسلم للضغط الذي وقعت تحته هاشم ، وكان أخاً لابي طالب ، وقد تزوج اخت ابي سفيان احد الرجال المرموقين في عبد شمس واصبح في السنة الثانية للهجرة

---

(١) ابن هشام ١٦٨-١٧٠ ، طبري ١١٧٨ – ٨٠

(٢) ابن هشام ٢٤٤

زعيم مكة الاوحد . حتى إذا ما اشتدت المعارضة لمحمد انضم إلى موقف قبيلة زوجه ضد ابن اخيه ، ولا شك ان فسخ خطوبة ابنتي محمد لولديه قد وقع في هذه الاثناء . ويحق لنـــا الزعم ان مسلك ابي لهب تأثر بارتباطاته في اعماله مع عبد شمس . ثم اخذ معارضوا محمد ، شيئاً فشيئاً يحاولون ، بعد ان فشلوا في فصله عن قبيلته ، إنشاء تحالف بين جميع القبائل القرشية ضد هاشم (مع المطلب) .

وكان ذلك ، من ناحية اخرى ، مرحلة في المعركة ضد محمد ، كما كان ايضاًمن ناحيةاخرى، مرحلة تضاعف قوة مخزوم والقبائل المتحالفة على حساب حلف الفضول لان ذلك يؤدي إلى تفسخ هذا الحلف ، يؤيد ذلك قصيدة ابي طالب مع ملاحظات ابن اسحق [1] . حتى ولو فرضنا ان جزءاً منها وضع فيما بعد فإن قسما كبيراً منها كتب بيد شخص خبير بطبيعة الاعمال في مكة في ذلك الوقت ويمكن ان تكون حقـــاً من تاليف ابي طالب نفسه . وبعض الاسماء المذكورة لا توجد عادة في قوائم المعارضين لمحمد . والأهم من ذلك ان الاشخاص الذين قيل عنهم انهم انقلبوا على هاشم هم جميعاً افراد من قبائل داخلة في حلف الفضول ، واسماؤهم حسب تحريات ابن اسحق هي : من عبد شمس ، اسيد وابنه، ابو سفيان ، ابو الوليد عتبة ، من تيم : عثمان بن عبيد الله ، وقنفذ بن عمير بن جدعان ، من زهرة : ابي او الاخنس بن شريق والاسود بن عبد يغوث ، من الحارث بن فهر : سبيع من اسد : نوفل بن خويلد،

---

(١) ابن هشام ١٧٢ – ٨

من نوفل : ابو عمر ومطعم . كما يؤخذ على هؤلاء الاشخاص انهم تحالفوا مع العدو القديم : الغياطل او بني سهم ، بني خلف او بني جمح ومخزوم .

بعد إنشاء التحالف الواسع فرضت مقاطعة لقبيلتي هاشم والمطلب ، وحرم على اي شخص التعامل معهما او الزواج منهما واستمرت هذه المقاطعة اكثر من سنتين بشدة متناهية نوعاً ما لأن كثيراً من افراد القبائل القائمة بالمقاطعة كانت تربطهم روابط لزواج بهاشم . وإذا استطاعت هاشم ان تستمر في ارسال قوافلها الى سورية فذلك لأنها لم تكن سيئة الحال جداً.

ولا تعثر ، على كل حال ، على اي اثر للشكوى وهذا يؤكد ان حماية محمد لم تكن الدافع الوحيد للخصومة .

ويرجع الفضل في إنهاء المقاطعة ، حسب رواية ابن اسحق [1] ، الى هشام بن عمر (من عامر) يؤيده زهير بن ابي امية (مخزوم) والمطعم بن عدي (من نوفل) وابي البختر وزمعة بن الاسود (وكلا الاثنين من اسد) . وعند اجتماع قريش كان الزبير ، مع ذلك ، اول من غادر المكان . كانت امه عاتكة بنت المطلب وخاله ابو طالب ولهذا كان عليه ان يساعد هاشماً . ولنلاحظ ان قصيدة ابي طالب المذكورة سابقاً [2] تمدح الزبير لمساعدته هاشماً ، وربما كان لذلك علاقة بهذا الحادث .

ومن المهم ، مرة اخرى ، ان نعرف القبائل التي كان ينتمي اليها

---

(١) ابن هشام ٢٤٧ - ٩

(٢) ابن هشام ١٧٢ - ٨

هؤلاء الخمسة لأن ذلك يعرفنا على طبيعة المعارضة داخل التحالف الكبير ولربما حمل الزبير على ذلك رابطة الدم ، ولما كان أحد أفراد مخزوم ،فهو إحدى الشخصيات البارزة التي كان عليها قيادة الهجوم ضد سياسة يسيرها أفراد من هذه القبيلة . وأما الآخرون فقد دفعتهم أسباب أخرى ، كانوا ينتمون إلى قبائل نوفل، وأسد ، وعامر التي انضمت إلى التحالف الكبير ولكنها لم تكن أعضاء في الحلف القديم الذي كان بمثابة الدائرة الداخلية .

ولا مغزى لغياب المشتركين الآخرين في حلف الفضول ماعدا غياب عبد شمس . ولكن كل شيء يحمل على الاعتقاد بأن هذه القبيلة كانت تسعى لعقد صلات متينة مع مخزوم لخدمة مصالحهما المشتركة ، فكان لا بد ان يوجه ذلك سياستها أكثر من المحالفات القديمة .وإذا جاز لنا تقديم ملاحظة حول الدوافع التي أدت إلى توقف المقاطعة فإننا نقول انهم أدركوا ،بمرور الزمن ، ان التحالف الكبير والمقاطعة يقويان مركز القبائل القوية التي كانت تحاول القيام بمراقبة التجارة المكية وإخفاق مكانة سائر القبائل .

وقد دخلت علاقات محمد بقبيلته ، بعد وفاة أبي طالب عند نهاية المقاطعة ، مرحلة جديدة ، ولكن هذا الموضوع خاص بالفصل التالي :

ج ـ عرض التسوية على محمد :

نلاحظ تفاصيل مهمة يذكرها كل من ابن اسحق والطبري بعد نهاية المقاطعة ولكنها ربما ترجع إلى تاريخ سابق . وهي محاولة بعض الزعماء

المكيين حمل محمد على الموافقة على تسوية . ويروي الطبري روايتين للقصة كما يروي ابن اسحق رواية ثالثة [1] . ويزعمون أن الرواية الثانية للطبري ماخوذة عن ابن اسحق ، ولكنها لا توجد في رواية ابن هشام ولربما حدث ما يلي :

التقى بمحمد أربعة رجال وعرضوا عليه الأموال والنفوذ إذا ماكف عن تسفيه أصنامهم وإنهم مستعدون للاشتراك في عبادة الله إذا ما اعترف هو بأصنامهم . وقد رأينا أن مثل هذه التسوية ضربة قاضية على آمال محمد ولهذا رفضها بحكمة . أما شخصية هؤلاء الأربعة فهم : الوليد بن المغيرة (مخزوم) العاص بن الوليد (سهم) الاسود بن المطلب (أسد) ، أمية بن خلف (جمح) .

وكان ثلاثة منهم شيوخ قبائل داخلة في الأحلاف وهم أعداء قدماء لهاشم ولحلف الفضول . وهذا يؤيد صحة القصة . ويحملنا ذكر الوليد على الاعتقاد أن الحادث ربما وقع قبل أن يتولى أبو جهل زعامة مخزوم ، أي قبل بداية المقاطعة . والدافع إليه هو الاعتقاد بأن نبوة محمد ، مهما كان نجاحه ضئيلا ، ستحمله حتما إلى الزعامة السياسية . ومن الممكن مع ذلك أن يكون الحادث قد وقع بعد بداية المقاطعة كما تشير إليه المصادر . وان الرجال الأربعة لم يكونوا على اتفاق تام حول سياسة المقاطعة ، ولم يكن بامكان الوليد ، وهو رجل مسن ، أن يعتبر محمداً عدواً شخصياً خطيراً ، على عكس أبي جهل . ولربما نظر إلى عبادة الأصنام نظرة صادقة

---

(١) الطبري ١١٩١ ، ابن هشام ٢٣٩

وإذا كان الوحي صحيحاً فإن هذا يعني أن هؤلاء الرجال يعترفون بكفاءة محمد كرجل سياسي .

٤ - شهادة القرآن

يميل القرآن ، كما لاحظ كايتاني [1] إلى تأكيد الخلاصة التي وصلنا اليها من دراسة المؤرخين الأول دراسة نقدية وهي ان اضطهاد محمد لم يكن شديداً ولم يرتكب فيه أي عمل منافٍ للعادات . وأما اشارات القرآن إلى معارضي محمد فهي تتعلق بانتقاداتهم اللفظية لرسالته وشخصه .

وفيه ذكر للمؤامرات التي تحاك ضد محمد والمسلمين ولكن نجد فيه بصعوبة ما يبرر القول بالاضطهاد الحقيقي . ولربما ظهرت الانتقادات اللفظية مثل قضية الآيات الابليسية ويبدو أنها تنتمي عـلى التأكيد إلى سور القرآن السابقة على التي يذكر فيها الأصنام وان الله لا ولد له .

أ - النقد اللفظي لرسالة القرآن :

النقد الذي يذكر عادة في الآيات المكية يقوم على نقد فكرة البعث .

فلم يكن المكيون يتصورون كيف ان الجسد ، وهو جزء أصلي من الإنسان ، يمكنه أن يعود إلى الحياة بعد دفنه في القبر . وقد بدا لهم ذلك مفحماً لتأكيدات محمد .

« وإذا ذكروا لا يذكرون ، وإذا رأوا آية يسخرون ، وقالوا إن

---

(١) حوليات ج ١ ص ٢٤٤

هذا إلا سحر مبين ، أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما إنا لمبعوثون أوآباؤنا الأولون »[1] .

وإذا كانت هذه المشكلة قد أثيرت قبل كل شيء بسبب الخصومة فإنها في الواقع تتفق مع معتقدات المكيين الحقيقية « وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » (٢٣/٤٥) .

ويوبخ القرآن باستمرار الكفار لأنهم لا يؤمنون بالحياة الآخرة وانهم لا يفكرون إلا بنعيم هذه الدنيا .

ويدل المقطع الذي استشهدنا به من سورة ٣٧ على فكرة ثانية تتعلق بالفكرة المذكورة ، فلقد رأى المكيون في بعث الجسد نوعاً من السحر أي نوعاً من الخداع[2] . وتكمن هذه الفكرة وراء كل الاشارات لعمليات السحر في القرآن وإن كان من الممكن أن تكون بعض الاشارات إلى الساحر تتعلق بعملية الوحي .

ولا يتحدث القرآن عن البعث حديثاً مجرداً بل كحادث مرتبط بالحساب الأخير وبالجزاء أو العقاب الأبديين . ولا شك أن مشكلة الجسد، الذي يتحول إلى تراب ، كانت مشكلة شعبية عند أعداء محمد لأنها كانت تبدو لهم رداً على عقيدة نهاية العالم . ويقول القرآن بوضوح انهم يرفضون هذه العقيدة بكاملها وإن كانت الاشارات لها موجزة[3] ويحملنا هذا الايجاز على الاعتقاد بأن الأجسام التي تتحول إلى تراب أصبحت لها

---

(١) ١٣،٣٧–١٧ (٢) ١٥،٥٢

(٣) ٤٧،٧٤

أهمية في أحاديث الناس ولكن رفض الحساب كانت له نتائج عملية خطيرة لأنه يعني أن العقاب الذي سيصبح جزءاً من قانون السلوك الشخصي لا أثر له .

كما نرى اثر الشك في اليوم الأخير وراء السؤال الموجه إلى محمد « يسالونك عن الساعة أيان مرساها ؟ » (٧٩/٤٢-٤٤) . ويرد القرآن على هذا السؤال ، أو يتحاشى الرد لأنه يمكن أن يحدث بلبلة لمحمد وهذا هو الهدف من سؤاله .

وتبدو المقاطع الكثيرة التي تشير إلى « آيات » الله رداً ، أو رد فعل، على ما يبدو صعباً الاعتقاد به من بعث الاجساد، ويعتبر القرآن خلق الله للانسان ، خلال مراحل الحمل ونمو العلقة في الرحم . ثم محافظته على الحياة البشرية ، « آية » على أنه يستطيع أن يعيد الإنسان إلى الحياة بعد موته . وبينما نجد بعض هذه الآيات تدل على وجود الله وقوته فإن هناك آيات اخرى توضح قدرة الله على إعادة الحياة إلى الاجساد البشرية . « أيحسب الإنسان أن يترك سدى ، ألم يك نطفة من مني يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والانثى ، اليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى » (٧٥/٣٦-٤٠) . هل نحن بحاجة الى القول بان أعداء محمد وأعداء الدين الذي دعا اليه لم يقتنعوا بهذه « الآيات » ؟ ومن ثم ينضم الشك في « الآيات » ان الشكوك الاخرى [1] . فتارة يقول المشركون « ائتوا بآبائنا ان كنتم صادقين [2] » . وتارة يقولون عن

---

(١) ٩٠-١٩ (٢) ٤٥-٢٤

« الآيات » بأنها « أساطير الأولين » [1] . وتتردد هذه الجملة أكثر من مرة في القرآن ويمكن أن يخفي العدد الكبير من الامثلة هذا الانتقاد « للآيات » وما تحتويه من دليل على وجود الله وعدله .

ليست الانتقادات لمحتوى القرآن ، التي ذكرناها حتى الآن ، سوى أشكال مختلفة لمهاجمة تعليمه عن الآخرة . كما ان الإلحاح على الآخرة في النقاش الذي نشأ بين محمد ومعارضيه يؤكد الرأي الذي قلنا به في الفصل الثالث وهو أن التعليم حول اليوم الاخير كان جزءاً من رسالة القرآن الاولية . وتجمل هذه الافكار في كلمة « تكذيب » التي تتميز عن كلمة « كفر » المناقض « للايمـــان » فهم يشكون بالبعث ، واليوم الاخير ، والحياة الآخرة وبالآيات ، وبصورة عامة بالانذار وبالرسالة . ويكون أحيـــاناً موضوع النقـــاش « الكفر » و « الكافرين » « تكذيب » و « مكذبون » [2] . حتى أصبح معنى اللفظ الاخير « عدو محمد » .

والموضوع الرئيسي الثـــاني للنقاش بصدد محتوى القرآن مشكلة الاصنام ووحدانية الله . ولقد قام القرآن بالهجوم ، حول هذه المسالة ، بينما اتخذ كفار مكة موقف الدفاع . لقد تحدثنا عن هذه المسالة في بداية هذا الفصل ولن نعود اليها الآن . غير انه يهمنا أن نتوقف لحظة أمام تمسكهم بعادات الاجداد . اذ يدعي المكيون انهم وجدوا آباءهم على امة وانهم على آثارهم مقتدون [3] . ولا يعني هذا اتهاماً صريحاً لمحمد بانه يميل

---

(١) ٨٣ ، ١٣ (٢) بالعربية في النص « المعرب »
(٣) ٤٣ ، ٢١ — ٢٣

عن طريق الاجداد ، وان كان ربما يتضمن هذا المعنى ، بل هو موقف الدفاع ظاهرياً ، فهم لا يريدون اتباع محمد بالرغم مما يمكنه أن يعرض عليهم من أجل حياة أفضل ويتعلقون بعادات أجدادهم كتبرير عام لموقفهم المحافظ .

وتهدف قصص الانبياء التي تحتل مكاناً كبيراً في سور القرآن المكية الى دحض ادعائهم بالسير على آثار أجدادهم . ولقد أحس المسلمون بانهم يبتعدون عن أجدادهم ولاسيما حين يسألون عن موقف الإسلام من الكفار الذين ماتوا في الحاضر والمستقبل .

فكان على قصص الانبياء أن تساعدهم على ادراك انهم بصفتهم اتباع نبي فإنهم يرتفعون الى مستوى روحي ممتاز . وهكذا لم تستخدم هذه السور لتشجيع المسلمين بل هي كالمفاخر التي يتغنى الشاعر فيها بمآثر قبيلته -وتلك صفة الشعر الجاهلي عامة - وقدساعدت المسلمين على ادراك انهم اعضاء في امة لها جذور عميقة في الماضي [1] .

ويجب ان نلاحظ ان الالحاح على الدعوة الى الكرم في الرسالة الاولى للقرآن لم يؤد الى نقد صريح . وربما كان ذلك بسبب انهم لم يجدوا من نفوسهم استعداداً للدفاع عـــن عاداتهم بالرغم من ان القرآن لم يستشهد بفضائل الكفار بل بعيوبهم . ان يكون الانسان أنانياً شيء وأن يجعل

---

1 G. von Grünbaum . von Muhammeds wirkung und Originalität in wienèr Zeits chrift die kunde des Margen landed X LIV . 1937 . P. 29 - 50 , 44 S Rudi Parte , Das Gesc hichtsbild Mohammades, In die welt als

من الأنانية مثلاً أعلى شيء آخر . ولسنا بحاجة لأن نفترض أن الكفار كانوا سيئي النية بهذا الصدد وإن كان عدد قليل منهم من ذوي الإحساس المرهف شعر ببعض الحيرة . ويكفيهم أن يعلموا بأن مسلكهم ، وإن كان لا يتعارض مع أي تشريع قائم ، فهو يناقض روح قانون الشرف التقليدي عند العرب . فإذا صح ذلك فإنه يدلل على أن القرآن لا يقيم أخلاقاً جديدة كل الجدة بل هو يوسع من المفاهيم الاخلاقية التقليدية عند العرب تشمل حالات وظروفاً خارج نطاق تجربة البدوي الخاصة به .

ب ـ النقد اللفظي لنبوة محمد :

نجد إلى جانب نقد الرسالة نقد الرسول وهو نقد إيمان محمد بانه تلقى الوحي من الله ، ونقد عملية الوحي .

فلقد تملكت محمداً ، منـــذ وقت مبكر ، عقيدة ان الكلمات التي تصل اليه هي وحي من الله ، مهما كانت الصورة الدقيقة لتجربته الاولى في تلقي الوحي . وقد ظهر الايمان بذلك منذ البداية في دعوته العامة .

وتصور لنا بعض مقاطع القرآن الاولى جهود المعارضين لتثبيط همة محمد بادخال تفسيرات أخرى لتجاربه غير التفسير القائل بانها تأتيه من الله .

فاتهم بانه مجنون أو تملكه الجن [١] أو إنه كاهن [٢] ، أو ساحر [٣] ،

---

(١) ٢٢،٨١ ، ٢،٦٨ (٢) ٤٢،٦٩ ، ٢٩،٥٢
(٣) ٣،٣٨

وأخيراً بأنه شاعر [١]. ويصعب علينا أن نتبين تفكير أهل مكة حين كانوا يستعملون هذه الكلمات ولكن تتضح بعض المسائل من طريقة معالجة هذا الموضوع في القرآن وغيرها من الوقائع التي أشرنا اليها في مكان آخر [٢]. إذ ان الذين كانوا يدعون مثل هذه الادعاءات لم يكونوا يشكون بأن تجارب محمد كان مصدرها خارقاً بل كانوا يعتقدون أنها تصدر عن كائن شيطاني أو قوة خارقة من درجة أقل تختلف عن القوة التي تسير الكون. حتى ان القول بأن محمداً كان شاعراً يشير إلى العصر الخارق لأن معاصريه كانوا يعتقدون أن الشاعر إنسان تملكه الجن.

ونجد في القرآن قوله «شاعر مجنون» [٣]. وكانت هذه التلميحات حول أصل الوحي تهدف إلى نشر الاعتقاد بأنه لا يجب الاهتمام بالتحذيرات وسائر الموضوعات الموجودة في هذا الوحي. ولم تكن تحتوي شيئاً حقيقياً. وكانت الفكرة الكامنة ولا شك تقودها فكرة تقول بأن المخلوقات الخارقة التي تصنع أو تنقل الوحي، يمكن أن يسيرها سوء النية أو يمكن أن تعوزها المعرفة.

ولربما كان هدف هذه التلميحات هو تشويه سمعة محمد دون أن يعتقد بها أصحابها. ولكن الأقرب هو أنهم وجدوها صحيحة في مجموعها

ويكذب القرآن عادة هذه الادعاءات وفي بعض الاحيان تنتج الاتهامات عن التكذيب.

---

(١) ٦٩، ١؛ ٥٢، ٣٠

(٢) راجع أ. جيوم «النبوة والتأليه عند الساميين» (بايو) المحاضرة (٦)، د.ب. مكدونالد، الموقف الديني والحياة في الأسلام شيكاغو ١٩٠٩، ص ٢٤ — ٣٦

(٣) ٣٧، ٣٥

وهناك مع ذلك مقطعان مهمان حيث يحتج القرآن بحقيقة الرؤيا عند محمد لدحض القول بمصدر شيطاني [1] . ولقد ناقشنا ذلك كفاية في مكان آخر ويكفي أن نشير اليه هنا .

قام أعـــداء محمد بمحاولة ثانية لتفسير الوحي وهي القول بانه من إبداع إنساني محض ، فهو إما من صنع محمد أو من صنع مساعد له . [2]

فاذا كانت السور مدنية [3] أمكننا الافتراض بسهولة أن هذه الاتهامات صادرة عن يهود المدينة . ولكن الرواية تقول بانها ظهرت أثناء الفترة المكية وتذكر على سبيل المثل اسم عدد من الاشخاص الذين يفترض أنهم ساعدوا محمداً [4] .

وعلى المؤرخ أن يعترف بصدق محمد المطلق في اعتقاده بأن الوحي كان يأتيه من الخارج ، وانه يمكن أن يكون قبل نزول الوحي قد سمع من بعض الاشخاص قسماً من القصص التي يذكرها القرآن . وعندئذ يترك المؤرخ الموضوع إلى الفقهاء ليقوموا بنوع من التوفيق .

وسواء وجد أو لم يوجد ما يغذي هذه الاتهامات فانها قيلت بقصد تشويه سمعة محمد ورسالته .

والقول بأن محمداً اخترع الرسالة بمساعدة رجل آخر منفصل عن المآخذ ، الذي يظهر في عدة آيات تشير إلى عمليات السحر [5] ، والقائل

---

(١) ١١، ١٥-٢٧ (٢) ٢٥-٥

(٣) بل ، تفسير القرآن (٤) راجع sale et wherry بصدد ١٦-١٠٥

(٥) ٧٤-٢٤

بان الوحي كلام إنساني . والفكرة في هذه الاحوال هي أن النثر المسجع هو سحر يظهر من الساحر بسبب معارفه الباطنية التي استقاها من الجن .

وهناك خطة ثالثة للهجوم تقوم على القول بان محمداً لم يكن أهلا لنزول الوحي عليه ، فلم يكن ذا شان . حتى إذا ما أخذ يدعو لآرائه سخر الناس منه [1] . ولا يجب أن تؤخذ مثل هذه الملاحظات ، مرة أخرى ، على أنهـــا عرض موضوعي للواقع . ونجد قصص الأنبيـــاء تخصص لتوضيح موقف محمد ، ولهـــذا نرى ثمود تقول لصالح بانـــه « كان مرجواً » [2] ، كما تقول مدين عن شعيب بأنه « الحليم الرشيد » [3] . وإن قالوا فيما بعد : « وإنا لنراك فينا ضعيفاً ، ولولا رهطك لرجمناك ، وما أنت علينا بعزيز » [4] . ويمكننا القول بان هذه الادعاءات حول صغر شان محمد ولدت في مكة لأنه منذ إقامته في المدينة أصبح له بعض الشأن .

وربما تشير التلميحات إلى أن اتباع سائر الأنبياء من العبيد [5] إلى السخرية من محمد . ولكن لا نستطيع تاكيد ذلك .

وقد وجد معارضون من نوع آخر وهم أولئك الذين كانوا ينتظرون أن يصحب الوحي آيات يراها الجميع ، فلما رأوا أن محمداً لم يكن سوى مخلوق إنساني زعموا أنه لا يمكن أن يكون رسول الله « وقالوا ان نؤمن

---

(١) ٢٥، ٤٣ (٢) ١١، ٦٢
(٣) ١١، ٨٦ (٤) ١١، ٩٠
(٥) ٦٢، ١١١

لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرأه ، قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولا ، وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا » [1] .

ونلاحظ تنوعاً فيما يطلب من محمد ، ولكن المعنى الكامن واحد وهو أن الله لا يظهر إلا في قلب للنظام الطبيعي. كما أن الفكرة السامية القديمة القائلة بأن الإنسان المستقيم لا بد أن ينجح في هذا العالم لها دخل في ذلك .

وهناك نقد آخر وهو : لماذا لم يظهر الوحي على محمد دفعة واحدة [2] ؟ وهي ترجع إلى نفس التفكير . ويبدو أن نقداً آخر قد ظهر وهو نقد الدوافع التي حملت محمداً إذا حكمنا على ذلك مما يقال عن نوح [3] . « فقال الملأ الذين كفروا من قومه ، ما هذا إلا بشر مثلكم ، يريد أن يتفضل عليكم ، ولو شاء الله لأنزل ملائكة، ما سمعنا بهذا في آبائنا الاولين، ان هو الا رجل به جنة ، فتربصوا به حتى حين » .

معظم الجمل المستعملة هنا يتفق تماماً مع وضع محمد في مكة وعقلية شعبه . وان عرض زعماء مكة على محمد المال والجاه ، لو صح ذلك ،

---

(١) ١٧، ٩٢–٩٦ (٢) ٢٥، ٣٤
(٣) ٢٣، ٢٤

لدل على أنهم يعترفون بطموحه . غير أن رفضه لذلك وتصرفاته في مكة ، تجعل من المستبعد أن يكون الطموح السياسي هو الدافع لأعماله

ويشير القرآن ، المرة بعد المرة ، إلى أن دور محمد الوحيد هو الانذار ووظيفته هي أن ينذر الناس بوجوب الحساب الأخير الذي يتبعه الثواب أو العقاب الأبديين . كما أن جوابهم على الإنذار يتعلق بهم . وتوضح آيات القرآن بصراحة ان محمداً ليس « مسيطراً »[1] .

أما الحاح القرآن على أن محمداً لا ينتظر ثواباً من الناس بل من الله وحده فهو بلا شك دحض لهذا الاتهام بالطموح الشخصي الصرف[2] .

ويقول مقطع آخر من القرآن ان محمداً اذا كان قد تلقى السلطان السياسي فذلك لأن الله قد كلفه به . « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون »[3] . وليس في هذا الموقف أي اضطراب ، فقد كان محمد يتصور دوره ، حسب القرآن ، كدور ديني في الاصل ، ويقوم على الانذار ، غير ان مثل هذه الوظيفة في البيئة المكية ، كانت لها ذيول سياسية ، حتى اذا ما استلزمت الحوادث القيام بعمل سياسي ضروري لم يتراجع محمد لأنه كان يعتبر الرسالة التي أوكلت اليه على أنها من الله .

---

(١) ٢٢،٨٨ (٢) ٨٦،٣٨

(٣) ٤،٢٨

جـ ـ نشاط أعداء محمد :

يقوم النقـــد والخصام بالدور الرئيسي في تصوير القرآن لنشاط المعارضة . وهناك وثائق كثيرة تدل على أن المعارضين فعلوا كما يقول القرآن . ونفتقر إلى الوصف التفصيلي لنشاطهم ، فلا نعثر إلا على تلميحات عامة لاهدافهم ومؤامراتهم . وهنـــاك كلمتان تستعملان للدلالة على ذلـــك وهما « كيد »[1] ، و « ومكر »[2] . ونشعر بأن اللفظ الاول استعمل قبل الثـــاني . ومن الممكن الافتراض بان القرآن ، في السور المكية ، يشير بهذه الكلمات إلى المعارضة التي درسناها في القسم السابق ولا سيما إلى الضغط السياسي والاقتصادي الذي بلغ الذروة في مقاطعة قبائل هاشم والمطلب . ورد القرآن على ذلك ، هو حث محمد على أن يصبر[3] ، وأن ينتظر تدخل الله ، فإن الله سوف يجزي شرهم كما فعل بأصحاب الفيل[4] .

وقد دعي محمد سابقاً إلى أن يتحمل بصبر انتقاداتهم اللفظية[5] ، وكان الصبر أفضل ما يفعله في مكة . ومن عادة قصص الانبياء أن تحث المسلمين على المحافظة على هدوئهم وذلك باظهار كيف ان الذين اضطهدوا الانبياء المرسلين اليهم قد عوقبوا في النهاية وكيف أنقذ الله الانبياء والذين آمنوا بهم .

---

(١) ١٥،٨٦ (٢) ٣٢،٣٤

(٣) ٢٤،٧٦ (٤) ١٠٥

(٥) ١٠،٧٣

ومن الممكن أن يكون الإلحاح على العقاب الزمني عـــدا العقاب الأبدي سببه الحد من نشاط المعارضة المعادي ، فلقد وقع المتآمر في الفخ الذي نصبه ، وقـــد قلب الله له خططه ، وهكذا يكون فشل المؤامرة والمصائب التي نتجت عنها من الامور الزمنية .

وهناك مثل خاص على العداء ألا وهو منع العبد من الصلاة [١] ، ولما كان لفظ « عبد » يمكن أن يعني « خادماً » أي « خادم الله » . فهناك من يرى أنه يعني محمداً نفسه . وتعني كلمة عبد « أيضاً » « العبد الاسود » ولهذا فالتلميح يشير الى عبد حقيقي لأن الأعضاء المستضعفين في الامة الجديدة كانوا يقاسون مثل هذه المعاملة . وقعة أهل الاخدود [٢] تشير الى اضطهاد مسيحيي نجران . كما تشير ، اذا صدقت ، الى الاضطهاد في مكة . ويميل العلماء الغربيون اليوم الى اعتبار هذا المقطع تصويراً للجحيم . ولا شك أنه لا يمكن اتخاذه بنفسه كدليل بديهي على اضطهاد المسلمين .

والمقطع المدني [٣] ، الذي يصف المسلمين بأنهم هاجروا لأنهم فتنوا لا يفترض سوى الكيد مع الضغط العائلي في نفس الوقت .

ويبدو ان مطلع سورة القلم ، مع ذلك ، يشير الى المحاولات المبذولة لحمل محمد على نوع مـــن التسوية ، ولا سيما حينما يقول القرآن بأن المكذبين « ودوا لو تدهن فيدهنون » [٤] ، بينما يدعوه ان لا يطيع

---

(١) ٩٦:٩ (٢) ٨٥:١٠-٧
(٣) ١٦:١١١ (٤) ٦٨:٩

أعداءه [1] ، ويخضع لتهديداتهم . ويقول مقطع آخر ، تذكره الروايات بصدد الآيات الابليسية ، بأن الخطر حقيقي .

« وان كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا اليك لتفتري علينا غيره ، واذن لاتخذوك خليلا ، ولولا أن ثبتناك ، لقد كدت تركن اليهم شيئاً قليلا ، اذن لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا » [2] .

من الصعب ، وان لم يكن مستحيلا ، أن نرى كيف ان رفض السجود عند تلاوة القرآن يمكن ان يكون مأخذاً على اعداء محمد [3] .

ولربما تخيلنا ان الآية يمكن ان تكون تلميحاً لبعض المعارضة في صفوف المؤمنين اوأنه نوع من الارتداد عن الدين . واذا كانت الآيات ، التي تتحدث عن الذين لا يعطون الزكاة ، مكية لأمكن ان تشير الى ذلك [4] . وبداهة القرآن في هذه المسألة ضعيفة نوعاً ما .

ويميل القرآن الى تأكيد الصورة المقتبسة عن المواد التاريخية التقليدية . فقد كان النقد اللفظي واللجاجة من عمل المعارضة . ويعرف القرآن النشاط الرئيسي المعادي بأنه « كيد » و « مكر » ، وهما كلمتان توحيان بفكرة « الحذق » ، وربما الخطر ، ولكن رغم كل ذلك حسب

---

(١) ١٩،٩٦ (٢) ١٧،٧٥-٧٧
(٣) ٨٤،٢١ (٤) ٣٦،٤٧

الفاظ الشريعة . من الممكن أن تكون الانتقادات تضمنت أقوالاً خاطئة وان المؤامرات كان من طبيعتها أن تؤدي إلى الكارثة ، ولكننا لا نعثر على أي دليل على الاضطهاد الشديد .

٥ - زعماء المعارضة ودوافعهم

يبقى علينا أن نتساءل عن طابع الجماعة أو الجماعات المكية التي قاومت محمداً وعن الاسباب التي جعلتها تتصرف بهذا الشكل .

أول خطوات البحث هي اسهلها . حتى ولو افترضنا إن معارضة محمد كانت أقل حدة مما يُعتقد عادة ، فمن الواضح انها كانت بزعامة أكبر الرجال نفوذاً وأهم العائلات في مكة . ولقد درس العلماء الغربيون عادة ، بشيء من الشك ، أسماء الأشخاص المذكورين على انهم معارضون خلال الفترة المكية ، لأننا نجد هذه الأسماء في قائمة الرجال الذين قتلوا أو أسروا في بدر ، فيمكن عندئذ أن تتعلق بوضع يقع بعد سنتين من الهجرة ، ويتأكد هذا الشك إذا علمنا ان قصيدة ابي طالب المذكورة سابقاً ، وربما كانت صحيحة ، تتعلق بالحالة السياسية ، عند نهاية المقاطعة .

أقول ان هذه القصيدة تحتوي على عدد من الأسماء التي لا تذكر عادة على انها اسماء أعداء لمحمد . ومن ناحية ثانية فإن قوائم المعارضين تذكر عدة اشخاص ماتوا قبل بدر كالمطعم بن عدي ، والذين يختفون من القصة

الواقعة في العصر المناسب .

يتأكد إذن أن المؤلفين الذين وصلتنا مؤلفاتهم كانوا يملكون مادة تاريخية صحيحة وقد استخدموها بذكاء . وهكذا تكون قوائم المعارضين عامة صحيحة .

أشهر المعارضين خلال السنوات التي سبقت موته هو أبو جهل من قبيلة مخزوم . وربما كان الرجل الذي احتل المكان الأول في مكة ، قبله ، هو الوليد بن المغيرة [1] ، سيد بني مخزوم ، ولكن يمكن أن لا يكون شديد المعارضة لمحمد . وكان أبو جهل هو الذي نظم جماعة المعارضين ضد هاشم والمطلب .

ويدل تفسخ هذه الجماعة على وجود حزب قوي من الكفار الذين لم يكونوا على استعداد لموافقة أبي جهل على كل آرائه ، ولكن من الصعب ان نقول أي شيء حول مختلف الأسباب التي حملتهم على معارضة محمد .

ويقال أحياناً بأن السبب الاساسي للمعارضة هو الخوف من انه إذا اعتنق أهل مكة الاسلام وتركوا الإلحاد كف البدو عن زيارة الكعبة وحل الخراب بذلك في تجارة مكة .

وهذا السبب غير مرض . فسوف نحاول عبثاً العثور في القرآن على أي أثر لمهاجمة عبادة الأصنام في الكعبة ، فإن فتح مكة ، لم يغير سوى

(١) ابن هشام ٢٣٨

الميزات الثانوية . ولقد رأينا ان الهجوم على عبادة الأصنام كان ضد عبادة الأصنام في المعابد الكائنة في ضواحي مكة . ولم يكن لهذه المعابد أهمية تجعل التخلي عنها يهدد بانهيار التجارة المكية عامة . ويبدو ،في الحقيقة، أقرب إلى المعقول ، ان ازدهار تجارة مكة ، كان بمنأى عن زيارة البدو للكعبة ، أو لغيرها من المعابد . ولهذا يجب التخلي عن نظرية الأسباب الاقتصادية القائمة على الخوف من مهاجمة عبادة الأصنام .

والشيء الأكيد ، على العكس ، ان الاشخاص الذين كانت مصالحهم مرتبطة بالعبادة في المعابد الخاصة ، قد وجدوا أنفسهم تحت وابل الهجوم على عبادة الاصنام ، فلم يعجبهم ذلك . كان معبد اللات في الطائف أحد الآلهة الثلاثـــة . ونقرأ في رسالة عروة أن بعض القرشيين ، الذين لهم أملاك في الطائف ، هم الذين بدأوا المعارضة الفعالة ضد محمد . ولنا أن نفترض ان هناك جماعات أخرى تهددت مصالحها الخاصة بدعوة محمد .

غير أن السبب الأساسي في المعارضة ، كان بدون شك ، ان زعماء قريش وجدوا ان إيمان محمد بانه نبي ستكون له نتائج سياسية . وكانت السنة العربية القديمة تقول ، ان الرئاسة في القبيلة ، يجب أن تكون من نصيب أكثر الرجال حظاً من الحكمة والحذر والعقل ، فلو ان اهالي مكة أخذوا يؤمنون بانذار محمد ووعيده ، وجعلوا يستفسرون عـــن الطريقة التي يجب أن تدار بها شؤونهم ، فمن ذا الذي يحق له نصحهم غير محمد نفسه ؟

ولا شك انهم كانوا لا يزالون يذكرون العلاقة بين اعتناق عثمان بن

لحويرث المسيحية ومحاولته أن يصبح أميراً على مكة . ولو افترضنا ان محمداً كان صادقاً تماماً حين قال لعلي بانـه لا يطمح لسوى التعبير عـن إنذاره ووعيده ، فهل يستطيع ، حسب اعتقادهم ، مقاومة إغراء السلطة ، حين تسنح له الفرصة ؟

لقد كان زعماء مكة ، من بعد النظر ، بحيث أقروا بالتناقض بين تعاليم القرآن الاخلاقية ، ورأس المال التجاري الذي كان عماد حياتهم. ولهذا لم يظهر النهي عن الربا ، حتى وقت طويل بعد الهجرة ، بينما ظهر منذ البداية نقد لموقفهم الشخصي من الثروة .

ولم يكن هذا مما يعجب الرأسماليين في مكة ولو انهم تجنبوا الخوض في ذلك مع الناس . ولربما فكروا بأن هذه الافكار الاخلاقية تعود على محمد بكثير من التأييد السياسي إذا ما ساورته المطامح السياسية. حتى أن بعضهم فكر أن ذلك سيؤدي إلى إحياء الخصومة القديمـــة حول السياسة بين مخزوم وأصدقائها وحلف الفضول .

لا نريد بعرضنا لموضوع المعارضة أن نقول بأن هجوم القرآن على عبادة الأصنام لم يلاق أية مقاومة . فقد كان العرب بطبيعتهم ، أو حسب تربيتهم ، محافظين ، ويصف القرآن غالباً ملحدين لم يعتنقوا الإلحاد إلا لأن آباءهم اعتنقوه وانهم هم لا يستطيعون تركه .

وقد استمرت هذه النزعة المحافظة في الإسلام فيما بعد وكلمة «بدعة» هي الكلمة السوية للمروق .

قلنا فيما سبق أن بعض الاتجاهات في داخل المعارضة ، ويمثلها رجال

دولة من أمثال الوليد الذي كان يعتقد إن محمداً لا يمثل منافساً خطيراً له ـ ظهرت بتأثير هذه المحافظة . فلم يكن لديهم أي دفاع يقدمونه عن الإلحاد ، فكانوا يكرهون هذا التبدل ويعتبرنه منافياً للأخلاق . وإن كان الزهري الذي أشرنا إليه يقول بان سبب المعارضة ، بالاضافة إلى مهاجمة الأصنام ، القول بان مصير أجدادهم هو النار . ويرتبط احترام الأجداد هذا ارتباطاً وثيقاً بتقديس العادات والتقاليد القديمة .

وبينما كان بعض المعارضين ذوي نزعة فردية قوية ، فقد كان أكثرهم محافظة يعترف ببعض الولاء للجماعة . فكانوا يرون إذن في نزعة الاسلام لإحداث انقسامات حادة في ، عائلة ، دليلا آخر على أن التخلي عن الطريق الذي سلكه الأجداد يؤدي إلى نتائج وخيمة . وربما بدا لهم ذلك جديراً بتهديم بناء المجتمع باكمله . وكان هذا ما يحدث فعلا .

كانت إذن أسباب معارضة الإسلام ، إذا وضعنا جانباً كل مصلحة شخصية ، الخوف من نتائجه السياسية والاقتصادية والنزعة المحافظة الصرفة . وكانت المشكلة التي جابهها محمد لها جوانب اجتماعية واقتصادية وسياسية وفكرية . غير أن رسالته كانت في الأساس دينية بحيث أنها حاولت علاج الاسباب الدينية الكامنة لهذه المشكلة . ولكنها انتهت لمعالجة الجوانب الاخرى ، ولهذا اتخذت المعارضة أشكالاً مختلفة .

الفصل السادس

امتداد الآفاق

١ - خطورة وضع محمد

فقد محمد عمه وحاميه أبا طالب بعد وقت قصير من انتهاء المقاطعة ، كما فقد زوجته ورفيقته خديجة . وقع ذلك سنة ٦١٩م تقريباً ، وليس لدينا أي دليل على مكانة خديجة بالنسبة اليه ، في هذه الفترة من الزمن .

ويقولون إنها ثبتت عزيمته حين كان حائراً ، ولنا أن نفترض أن هذا التأييد منها كان يعني شيئاً ما بالنسبة اليه ، فكان مفيداً له أن يدفع إلى الثقة بنفسه . ولم يعتم أن تزوج ، وكانت زوجه سودة بنت زمعة ، وهي من أوائل المسلمات وكانت أرملا . ويدل هذا على حاجته للحب الروحي ، ولا نعرف إلا القليل عن سودة و نستطيع أن نفترض أن صلاتها بمحمد كانت صلات خادم بمخدومه .

وكانت تجربة محمد في نخلة ، عند عودته من الطائف ، التي هدأت من انحطاطه العصبي ، مرحلة في حرمانه الثقة بالمجتمع الإنساني .

ظهرت آثار موت أبي طالب في الميدان السياسي ، ويبدو أن خليفته على رأس بني هاشم كان أخاه أبا لهب وإن كان أبو لهب قد انضم إلى المحالفة الكبيرة ضد هاشم ، وقد تعهد خلال المقاطعة ، كما يقولون ، بحماية محمد كما فعل أبو طالب [1] .

ويمكن قبول هذه الرواية لأن احترام سيد القبيلة لنفسه ، يحتم عليه أن يفعل ذلك . وإذا كان هذا التصرف يناقض عداءه القديم ، فإن هذا التناقض يخف إذا افترضنا أن عداءه لمحمد قبل وفاة أبي طالب مبالغ فيه بسبب موقفه المعادي فيما بعد .

ثم لم يعتم أبو لهب أن رفض حماية محمد لزعم محمد أن عبد المطلب في الجحيم . وتقول الرواية أن عقبة بن أبي معيث ؟ وأبا جهل طلبا اليه أن يسال محمداً عن هذه المسالة . وقد وصلتنا القصة في صورة ساذجة ، وليس لدينا أي سبب للشك في صحتها . ولقد بين أعداء محمد لأبي لهب انه لما كان محمد يقول مثل هذه الأقوال عن جدهما المشترك ، فيمكن أبو لهب التخلي عن حمايته دون أن يفقد كرامته .

كان فقد الحماية كارثة في الظاهر على محمد وعلى قضية الإسلام ، فلم يعد الناس يدخلون الإسلام باعداد كبيرة ، بعد دخول عمر منذ ثلاث أو أربع سنوات . وفشل المقاطعة كان يمكن اعتباره بداية حركة تؤدي إلى نجاح الديانة الجديدة في المستقبل ، غير أن تخلي أبي لهب عن محمد قضى على كل أمل من هذا النوع ، حتى ولو استطاع المسلمون

---

(١) ابن سعد ج١ ، ١/١٤١ .

البقاء في مكة ولم يكن ذلك أكيداً - فلم يعد لهم أي حظ في رؤيـة الآخرين ينضمون اليهم .

وأصبح من الضروري ، في مثل هذه الحالة ، فتح فرع جديـد لنشاطهم ، إذا أرادوا أن لا ينطفىء نور الإسلام .

فلقد عملوا كل ما يمكن عمله في مكة ، فلم يبق سوى أمل الاستمرار في مكان آخر . اعتبر محمد نفسه في البدء مرسلا لقريش خاصة ، وليس لدينا أية وسيلة لمعرفة ما إذا كان قد فكر بتوسيع أفق رسالته لتشمل العرب جميعاً ، قبل وفاة أبي طالب أو بعدها .

وقد اضطره تدهور وضعه ، مع ذلك ، أن ينظر إلى أبعد من ذلك ، فلا نسمع من ثم خلال سنواته الثلاث الاخيرة في مكة ، إلا عن علاقاته بالقبائل البدوية وسكان الطائف ويثرب .

٢- زيارة الطائف

كانت الطائف صورة مصغرة لمكة وإن كانت بينهما فروق كبيرة .

كانت الطائف مركزاً تجارياً تربطه علاقات متينة خاصة مع اليمن ، وكانت قبيلة ثقيف ، سكان الطائف ، تتاجر بالسفر مسافات شاسعة ، بالتعاون غالباً مع قريش . وكانت الطائف في ذلك الوقت تتمتع بمناخ أفضل من مناخ مكة ، كما كانت بعض البلاد المجاورة لها خصبة جداً ، وقد اشتهرت المنطقة بالزبيب ، وكانت ثقيف تمتاز بأنها تأكل الحبوب بينما يكتفي سائر العرب بالحليب والتمر . وكان كثير من أغنياء مكة

يملكون الاملاك في الطائف ويقضون فيها فصل الصيف .

وكانت قبيلتا هاشم وعبد شمس على اتصال مستمر مع الطائف ، كما كانت مخزوم تربطها مصالح مالية مشتركة بثقيف .

وكانت ثقيف ، على الاجمال ، أضعف من قريش، فاعترفت بتفوقها المالي - بعد يوم الفجار [1] - وما يتبع ذلك . ولم تكن العلاقات باتجاه واحد تماماً ، إذ أن حليفاً لثقيف ، وهو الأخنس بن شريق ؟ كان ، في يوم من الأيام ، سيد قبيلة زهرة في مكة [2] .

كان في الطائف فئتان سياسيتان مهمتان : بنو مالك والاحلاف . وكان هؤلاء أول من سكن المدينة ، لأن رعاية معبد الآلهة كان في حوزتهم ، ولهذا فالحديث عنهم على أنهم من عامة الشعب خطأ . وكان بنو مالك تربطهم علاقات وثيقة بقبيلة هوازن الكبيرة ، التي كانت تسيطر على البلاد المجاورة ، بينما سعى الاحلاف للفوز بتأييد قريش ، كي يستطيعوا الوقوف في وجه هوازن . ومن الممكن أن يكون ضعف ثقيف بالنسبة للاحلاف سببه الانقسامات الداخلية فيها .

اتجه محمد نحو الطائف أولا في بحثه عن مسلمين جدد . وتقول الاخبار انه ذهب يبحث عن الحماية ، بعد ازدياد الاهانات التي لحقت به بعد وفاة أبي طالب . ولكن لا يمكن أن يكون ذلك هو السبب الوحيد. وتظهره المصادر يملأه الأمل بنشر الاسلام وبناء امة إسلامية ، كما

---

(١) الفصل الاول ٢ ، د

(٢) لامنس ، الطائف

قامت فيما بعد في المدينة . كما أنه كان ينتظر نزول الكوارث بمكة وابعاد أنصاره عنهـــا . كما حدث نقاش حول السياسة المحلية أراد محمد أن يستفيد منه ، ولكن لا نستطيع أن نقول كيف كان ذلـــك . وكان الاشخاص الذين اتصل بهم محمد ، وهم عبد ياليل واخوته ، ينتمون لقبيلة عمر بن عمير المنتمية للاحلاف ،فكانوا بذلك من أنصار قريش.وربما راود محمداً الأمل باستمالتهم اليه بالتلويح لهم بتحريرهم من سيطرة مخزوم المالية [1] .

ومهما كانت طبيعة العروض التي عرضها محمد ، والاسباب التي دعت بني عمر بن عمير إلى رفضها ، فإنهـــا عملت على عودته بخفي حنين ، وتشجيع عامة الشعب على رجمه بالحجارة . ويقولون انه التجأ لبستان لأخوين من قبيلة عبد شمس القرشية يذكران عادة من بين ألد اعدائه .

ورجع بدون شك يملأه القلق والحيرة . وتقول الرواية أنه رأى في نخلة ، بينما كان يصلي في الليل ، جماعة من الجن سمعته وآمنت به [2] ، ونستطيع القول، وإن كانت هذه القصة سجلت فيما بعد ، بأن محمداً في هذه الفترة العصيبة من حماته قد « لجأ إلى الله » .

لم يعد رأساً إلى مكة بل توجه الى حراء ، وهي ضاحية ، واخـــذ يفاوض لينال « جوار » ، زعيم من زعماء القبائل ، ويعني هذا ان قبيلته بقيادة أبي لهب قد رفضت حمايته زمناً طويلا . وما كادت أنباء زيارته

---

(١) لامنس ، الطائف ، ١٧٢١٢

(٢) سورة ٧٢

للطائف ونتائجها السياسية تعرف من أعدائه في مكة حتى اشتدت عداوتهم له . وقد رفض الذين اتصل بهم ، وهم الاخنس بن شريق من بني زهرة ، وسهيل بن عمر من بني عامر ، طلبه . وأخيراً رضي المطعم بن عدي ، زعيم بني نوفل ، حماية محمد .

ولنا أن نفترض أن ذلك كان ببعض الشروط ، وإن لم نجد حديثاً عن ذلك في المصادر . وليس ذلك مدهشاً لأن هذه القصة تروى لتمجيد قبيلة نوفل . ثم أهملت فيما بعد لانها تسيء لبني هاشم ، ولهذا لا يذكرها ابن اسحق [1] ، ونلاحظ أن أياً من المسلمين حتى عمر لم يكن يستطيع حماية محمد .

٣ - محاولات مع القبائل البدوية

تقول الروايات بأن محمداً كان ينتهز فرصة إقامة الاسواق ليدعو القبائل البدوية إلى الدخول في الاسلام . وتذكر المصادر الاولى خاصة بني كندة (وسيدا يدعى مليحا) ، وبني كلب ، وبني حنيفة ، وشخصاً من بني عامر من صعصعة ، ولقد رفض أفراد القبائل الثلاث الاولى رفضاً باتاً الدخول في الاسلام ، كما رفض الاخير ، بعد أن أبا محمد أن يعدهم بخلافته السياسية .

من الصعب معرفة السبب الذي من أجله تذكر هذه القبائل وليس غيرها . ربما كان ذلك مجرد صدفة ، كما أنه من الممكن أن تكون أسباب

---

(١) ابن هشام ٢٨١ ، يدخلها ابن هشام ص ٢٥١

خاصة قد جعلت محمداً يحسب أنهم سوف يستمعون لمـــا يقوله لهم ·

وكانت فئة من بني صعصعة تميل إلى محمد كما تشير اليه الحوادث التي رافقت قضية بئر معونة في السنة الرابعة للهجرة · وكانت القبـــائل الثلاث الاخرى تملك أراضي تبعد مسافات شاسعة عن مكة ، وقد اعتنق قسم منها المسيحية أو جميعها ·

يستحيل مع ذلك التأكد مما إذا كان هذا العنصر او ذاك عمل على ذكر هذه القبائل · ونحن نعتقد ان محمداً في هذا الوقت اخـــذ يدعو افراد القبائل البدوية للدخول في الاسلام ، وأن وراء هذا النشاط تكمن فكرة غامضة في توحيد العرب جميعاً ·

٤ - مفاوضات مع المدينة

أ ــ الحالة في المدينة ·

كانت المدينة (وهي اختصار لمدينة النبي) قبل الدور الذي قامت به مـــع محمد ، تسمى يثرب · ولم تكن مدينة بكل معنى الكلمة ، بل كانت أقرب إلى مجموعة من الخيم والمزارع والحصون المنتشرة في واحة على مساحة من الارض الخصبة تبلغ الثلاثين كيلو متراً مربعاً ، تحيط بها التلال والصخور والأراضي الجرداء التي لا تصلح للزراعة ·

وكان سكانها في غالبيتهم مـــن بني قيلح ؟ وقد عرفوا فيما بعد بالأنصار ، وكانت هذه القبيلة أو مجموعة القبائل من بين الفروع التي

تنتمي للاوس والخزرج ، بعد أن انقسمت كلتاهما إلى بطون وأفخاذ . وتقول الروايات إن الأوس والخزرج هاجرتا إلى يثرب من جنوب شبه الجزيرة وأقامتا فيها على أرض موات اجراء للسكان السابقين . ثم تزايد عددهما شيئاً فشيئاً بمن لحق بهما حتى سيطرتا عليها .

حدث ذلك خلال منتصف القرن السادس أو فيما بعد [1] وقد نشأمن هؤلاء السكان الأصليين جماعتان قويتان مستقلتان وغنيتان تقيمان على أراضي خصبة و تتمتعان باستقلال واسع تجاه الأوس والخزرج ، وهما بنو قريظة وبنو النضير . وقد اعتنقتا اليهودية ، وحافظتا بشدة على ديانتهما وطقوسها . ولا نستطيع القول بثقة ما إذا كانتا من الفرع العبري أم انهما من العرب المتهودين.

وربما كانتا من العرب الذين التحقوا بجماعات صغيرة من العبرانيين [2] وكان في عصر محمدقبيلةثالثةيهودية أقل نفوذاً ، وهم بنو قينقاعوبعض بطون العربية ، وهم يمثلون بقايا العرب الذين سكنوا الوا بل مجيء يهود .

كان النزاع مستمراً بين الأوس والخزرج . غـــير ان يوم حاطب شمل جـــميع الأوس والخزرج (وكذلك القبـــائل اليهودية) . وبلغ

---

(١) راجع فلهوزن :

Medèna Vor dem islam in SkizzenU, Vorar beiten. 1889 / R 7

(٢) راجع كايتاني ،حوليات ج١ ص٣٨٣ ، توري *Gewioh Fondation* ،الفصل الاول، د ، ج مرغواليوث . العلاقات بين العرب والاسرائيليين، لندن ١٩٢٤ ،المحاضرة٣

الذروة في يوم بعاث الذي وقع بضع سنوات قبل الهجرة ربما سنة ٦١٧م . وقد أعاد ذلك التوازن الغير المستقر بسبب تعب جميع الفرقاء .

وهكذا كانت المدينة تعاني اضطراباً خطيراً ، كالذي كانت تعانيه مكة ، ولكنه يختلف كل الاختلاف في مظاهره ، وإن كان المرض الكامن مماثلا، أي انه ناتج عن عدم التوافق بين النظريات والعادات والتقاليد البدوية والحياة الحضرية .

وكان الجانب الاقتصادي من الاضطراب ، بدون شك ، نتيجة لضغط ازدياد السكان على التموين بالاغذية .

وكانت نتيجة الايام التي تنشأ بين سكان يثرب أن يحتل المنتصر أراضي المغلوب [١] . ولهذا حينما أعلنت الهدنة بعد يوم بُعاث لم يكف المتحاربون عن الحذر لصد أي هجوم مفاجيء والامتناع عن غزو أراضي العدو .

ومع أن شجرة البلح تتطلب عناية أقل من زراعة الحقول لنضج ثمرها ، فإن الحالة السائدة كانت لها نتائج وخيمة على كمية المنتوج ونوعه . ولم تكن زراعة الأشجار منتشرة ، غير أن عدم الاستقرار أبعد الناس عن التفكير بمشاريع التنمية . والذي حدث هو أن مبدأ الحياة في الصحراء ، ألا وهو « احفظ ما يمكنك بالسلاح حفظه » أخذ يطلق على الأرض المزروعة . وهو مبدأ مرضٍ لحراسة قطعان الغنم والماشية المنتشرة فوق المساحات الشاسعة ، غير أنه في حدود واحة ضيقة ،

---

(١) فلهوزن المرجع المذكور .

يؤدي إلى وضع مؤسف .

استمرت مبادىء التنظيم الاجتماعي الصحراوي في يثرب فكانت كل قبيلة مسؤولة عن حياة أفرادها ، أي انها تتمسك بالقاعدة القائلة الحياة بالحياة أو الثأر [1] . ولما كان على الإنسان أن يدافع عن أملاكه بحياته فعلى العصبية القبلية أن تضمن سلامـــة الممتلكات . ولكن حين زوال عامل المسافة المهم في الصحراء يصبح قيام السلامة على القوة المسلحة خطراً.

تتطلب الجماعة المستقرة الثابتة سلطة عليا وحيدة لحفظ الامن بين الافراد والجماعات المتنازعة ، وهذا شيء غريب على تفكير البـــدو ويستحيل مادياً في حياة الصحراء .

كانت المصالح التجارية في مكة تميل إلى التقريب بين مختلف الجماعات والمحافظة على نوع من الوحدة (وإن كانت مآخذ النصف محظوظين لهـــا نتائج عكسية في الانقسام) . ولم يكن في المدينة عـــامل كهذا ، حيث كان السكان أقل انسجامـــاً ، فالعائلة الصغيرة وحـــدة تناسب حاجات الحياة الزراعية ، وكانت النزعة الفردية ، من ناحية ثانية ، أقل منها في جو مكة التجاري ، وذلك لأن الزراعة ، في ظروف الحيـاة الغربية ، لم تكن تتيح فرصاً كثيرة للفوارق المالية كالتجارة .

يقسم ابن سعد ، في سيره عـــن الذين حاربوا في بدر بين صفوف المسلمـــين ، القرشيين إلى خمسة عشر حـــي ، بيـــنما هو يذكر ثلاثة وثلاثين حياً للاوس والخزرج ، ويمكن أن يدل هذا على أن ظروف

(١) دستور مكة ، ابن هشام ١٠٤،٣

الحياة الزراعية تساعد على التجزئة . كما ان العدد الأكبر من التجزئات عن القبائل المدنية كان نتيجة لتقدير علماء الأنساب ، لأن عدد المدنيين أكثر من المكيين . إلا إذا كان ذلك مرتبطاً ببقاء آثار سلطة الام في المدينة .

ومهما كانت قيمة هذه الاستنتاجات ، فهناك أمر ثابت وهو شدة الانقسام في المدينة . ولهذا فإن فقدان الوحدة ، وما يسببه من عدم الاستقرار ، كان يعني أن الموضوع الذي سبب المعارضة في مكة ـ وهو وضع محمد كنبي ونتائجه السياسية ـ كان على العكس أفضل ما يعمل لبعث بعض الأمل في الأمن في نفوس أهالي مكة .

ونجد الاشارة إلى ذلك في الآية : « ولكل أمة رسول ، فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون »[1] .

ولهذا كان باستطاعة نبي ، لا تقوم سلطته على العصبية القبلية بل على الدين ، أن يكون فوق الجماعات المتنازعة ويؤدي دور الحكم .

تتحدث المصادر عن الانصار وكيف كانوا يتمثلون محمداً على أنه كالمسيح الذي ينتظره اليهود فيسرعون إلى إقامة علاقات طيبة معه[2] .

وإذا كانت تلك القصة صحيحة فلأن فكرة المسيح قد ساعدت على تعريف الانصار بفكرة جماعة يكون مركز تجمعها شخصية موهوبة بصفات خاصة ذات طابع ديني .

---

(١) سورة ١٠، ٤٧

(٤) ابن هشام ٢٨٦ ، طبري ١٢١٠

وهكذا كان للانصار أسباب مادية متينة تحملهم على قبول محمد كنبي . وكان لهذه الأسباب أهميتها ، غير ان الاضطراب في يثرب ، كان له سبب ديني أيضاً .

يقوم مغزى الحياة ، في نظريات البدو ، الـــذي كان يشاركهم فيه الاوس والخزرج، على الشرف ومآثر القبيلة وتكتمل مثل هذه النظرية بصورة أفضل ، في مجتمعات وثيقة الصلة صغيرة . ولا يمكن ان تشمل جماعة واسعة كالانصار في مجموعهم . حيث لم يتصل معظمهم أي اتصال بالاجانب .

ولا تقوي حياة البادية العصبية إلا في فئات صغيرة . أما في يثرب فقد كان قليل من الناس يفخرون بالحرب الدائرة فيها .

ويبدو أن عبد الله بن أبي قد حاول الوقوف على الحياد في معركة بعاث ، ولم يشترك بالقتال [1] على كل حال . وربما دل هذا الموقف على « قرف » من هذه المعارك المستمرة . وقد حمل الاسلام دواء هذه المشكلة الدينية إذا جاز القول . لأن عقيدته عن اليوم الاخير تتضمن أن مغزى الحياة يقوم على قيمة السلوك الفردي . ويمكن هذه النظرية أن تصبح أساس مجتمع واسع ، لأن ربح البعض لا يعني خسارة الآخرين في رأيها . ولقد أدرك الانصار هذه النتائج حين قبلوا معتقدات الاسلام .

وربما اعتنق معظمهم الاسلام لأنهم كانوا يؤمنون بصحة العقيدة

---

(٧) ابن هشام ٢٨٦ . طبري ١٢١٠

ولانهم كانوا يعتقدون خاصة بأن الله قد كلف محمداً برسالته إلى العرب ٠

ب ــ بيعة العقبة :

تروي الاخبار بأن اثنين من الانصار ، وقد قتلا قبل يوم بعاث ، توفيا مسلمين ٠ أما أول من اعتنق الاسلام ، فهم ستة رجال من الخزرج جاءوا إلى محمد نحو سنة ٦٢٠ م ، وقد عاد خمسة منهم السنة التالية في موسم الحج واصطحبوا معهم سبعة آخرين ومن بينهم اثنان من الاوس ٠

وقد اشتهر عن هؤلاء انهم اقسموا بتجنب عدد من الخطايا وإطاعة محمد ويعرف هذا القسم ببيعة النساء [١] ٠ وقد أرسل محمد معهم مصعب بن عمير ، وهو رفيق مخلص متضلع بالقرآن . وقد أسلم في السنة التالية عدد من مختلف العائلات في المدينة ، ما عدا قسم من عائلة من الأوس تعرف بأوس مناة ، أو أوس الله . وقد جاء في سنة ٦٢٢ م جماعة من المسلمين إلى مكة ، وعددهم ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان ، واجتمعوا سراً بمحمد في ليلة من الليالي في العقبة ، ولم يتعهدوا باطاعته فقط بل بالقتال من أجله « بيعة الحرب » . وكان العباس ، عم محمد ، حاضراً ليرى أن مسؤولية هاشم نحو محمد يدعمها الأوس والخزرج . وطلب محمد أن يعين اثنا عشر نقيباً فعينوا . وقد سمع القرشيون بأخبار المفاوضات التي بدت لهم عدائية فسألوا بعض مشركي المدينة عنها ،

---

(١) بيل : محمد ١٨٦ ، رقم ١٤٧

فاجاب هؤلاء أن الشائعة لا أساس لها ، فاخذ محمد يشجع أتباعه بالسفر إلى المدينة . ويقال ان أبا مسلم سافر إليها قبل بيعة العقبة ، فكان عددهم سبعين رجلا ومن بينهم محمد ، هذه هي الهجرة أو هجرة الرسول . وقد اختير اليوم الأول الذي بدأت فيه الهجرة ، ١٦ تموز سنة ٦٢٢ م ، ليكون بداية التاريخ الإسلامي"[١] .

ويمكن أن تقارن هذه الرواية التقليدية برواية قديمة للحوادث على لسان عروة بن الزبير ، وقد حفظها الطبري :

حدثنا هشام بن عروة عن عروة انه قال : لما رجع من أرض الحبشة من رجع منها ممن كان هاجر اليها مثل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة ، جعل أهل الإسلام يزدادون ويكثرون ، وانه أسلم من الأنصار بالمدينة ناس كثير ، وفشا بالمدينة الإسلام ، فطفق أهل المدينة يأتون رسول الله (صلعم) بمكة ، فلما رأت ذلك قريش ، تذمرت على أن يفتنوهم ويشتدوا عليهم ، فاخذوهم وحرصوا على أن يفتنوهم ، فأصابهم جهد شديد ، وكانت الفتنة الآخرة ، وكانت فتنتين : فتنة أخرجت من خرج منهم إلى أرض الحبشة ، حين أمرهم بها ، وأذن لهم في الخروج اليها ، وفتنة لما رجعوا ورأوا من يأتيهم من أهل المدينة ، ثم انه جاء رسول الله (صلعم) من المدينة سبعون نقيباً ، رؤوس الذين أسلموا ، فوافوه بالحج فبايعوه بالعقبة وأعطوه عهودهم ، على انا منك وأنت منا ، وعلى أنه جاء من أصحابك أو جئتنا ، فإنا نمنعك مما نمنع منه أنفسنا . فاشتدت عليهم

(١) الطبري ١٢٠٧-٣٢ ، ابن هشام ٢٨٦-٣٢٥

قريش عند ذلك فأمر رسول الله (صلعم) أصحابه بالخروج إلى المدينة ، وهي الفتنة الآخرة التي أخرج فيها رسول الله (صلعم) أصحابه وخرج وهي التي أنزل الله عز وجل فيها : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » .

ويهمنا أن نذكر بصدد هذه الرواية عن عروة أنه كان ينتمي لعائلة الزبير المعادية حينئذ لعائلة أمية ، وأن روايته العائلية تسعى للمبالغة في الاضطهاد ، وتأثيره على مجرى الحوادث ، اعتماداً على أن قبيلة أمية كانت إلى جانب المعارضة لمحمد .

لا يجب إذن الوثوق بحجج عروة . ذلك لأن الآية القرآنية المذكورة ترجع إلى زمن لاحق في الفترة المدنية [1] ، ولم تستخدم في الأصل كشاهد كما يريد عروة .

ويمكن لغياب أي ذكر خاص للقائين المنفصلين في العقبة ، في رواية عروة ، أن يؤكد الرأي الذي قال به بعض العلماء الغربيين ، بأنه لم يحدث سوى لقاء واحد . والسبب الاول الذي يعتمد عليه هذا الرأي هو أن البيعة في اللقاء الأول ، وهي بيعة النساء ، تعتمد على مقطع من القرآن نزل فيما بعد[2] .

ولكن ، حتى لو افترضنا أن هذا المقطع هو أصل البيعة في الرواية المشهورة ، فإن ذلك لا يعني انه لم يحدث لقاء قط . ومن الواضح ، على

---

(١) بل ، تفسير القرآن

(٢) بيل : محمد ١٨٦ ، قرآن ٦٠،١٢

العكس ، انه حدثت مفاوضات طويلة ودقيقة بين محمد والمدنيين · ولم يكن إرسال مصعب إلى المدينة ، لمجرد تعليم المسلمين الجدد ، بل لوضع تقرير عن الحالة· نستطيع إذن قبول الخطوط الكبرى للرواية التقليدية.

كانت الاتصالات الاولى مع الخزرج ، ثم ألح محمد على لقاء جماعة أكثر تمثيلا ، لأنه لا يستطيع أن يثق بإحدى القبيلتين العدوتين دون الأخرى.

ومهما كانت التفاصيل الدقيقة ، فقد تم في هذا اللقاء بين محمد والمدنيين ، عقد اتفاق موقت ، يتضمن اعترافاً بمحمد كنبي .

أما فيما يتعلق باللقاء الثاني، وهو اللقاء الرئيسي في العقبة ، فهناك تفاصيل تحملنا على التساؤل ، ولكن يجب قبوله على الإجمال . ويجب رفض الحادث الذي وقع للعباس على انه اختراع لاحق لإخفاء المعاملة المشينة التي لحقت بمحمد على يد بني هاشم في ذلك الوقت . كان محمد عند عودته من الطائف في حماية سيد قبيلة نوفل . أما القول بصحة الحادث لأن العباس يتكلم فيه ككافر فلا أساس له .

فقد كان الشرك في نظر المعارضين (في نهاية القرن الاول الاسلامي) أقل من العار . أما الرواية المنسوبة لوهب به منبه ، والتي حفظت على ورق البردى [1] ، فهي تميل إلى تاكيد الرأي الذي تقدمنا بـه سابقاً . يمدح العباس محمداً في هذه الرواية . ثم ياذن محمد لأحد المدنيين بالرد على العباس ومؤاخذته مظهراً له أنهم يحسنون الظن بمحمد أكثر منه ، ونشعر باننا أمام رد على دعاية العباسيين · والافتراض الذي يبعث على الرضى

---

(١) ج ، ميلاميد « لقاء العقبة » في « العالم الشرقي » ١٩٣٤،٢٨ ص ١٧-١٨ .

هو أن زيارة العباس للعقبة اختراع محض استخدمته الدعاية العباسية.

وتعترضنا بعض الصعوبات بصدد موضوع لقاء الاثني عشر نقيباً لأنه يبدو أنهم لم يقوموا قط بأي دور. وقد شك بعض الكتاب الغربيين في أن يكونوا قد ادخلوا في القصة، ليصبح محمد شبيهاً لموسى وعيسى.

ويتعهد أحد المدنيين، في رواية وهب، إلى محمد «بالفاظ تشبه الالفاظ التي تعهد بها نقباء قبيلة إسرائيل لموسى» وآخر «بنفس الالفاظ التي استعملها الحواريون لعيسى بن مريم»[1].

وتدل القصة التي تروي كيف أصبح محمد نقيباً عن بني النجار بعد وفاة ممثلهم، على أن الشك لا أساس له، وانه لم يحدث أي تغيير في هذه الشواهد الكبرى. والاقرب هو أن النقباء هم عنصر التنظيم البـــدائي للامة الجديدة في المدينة الذي ما عتم أن انهار.

أما فيما يتعلق، من ناحية ثانية، باللقاء وبيعة السلاح التي حدثت فيه، فيجب قبول هذه المسألة، وإن كنا غير واثقين من الصورة التي جرى فيها ذلك. ولقد وافق أهل المدينة على استقبال المهاجرين القادمين من مكة. أما الشيء الغامض فهو كيف انتهى أهل المدينة إلى معاداة القرشيين. لا شك أنهم كانوا يخشون قوة مكة المتزايدة، وبدا لهم أن إعلان قريش أن محمداً شخص غير مرغوب فيه، ضمان بأنه لن يعمل على امتداد هذا النفوذ، ولكن أليس تحدياً لأهالي مكة استقبال محمد، والاحتفاظ له بمكانة سامية؟ الجواب على هذا السؤال مرتبط بالجواب

(١) ميلاميد، المرجع المذكور ص ٤

على الاسئلة الاخرى . ما هي خطة محمد لاصحابه بعد مجيئهم إلى المدينة ؟ ماذا سيفعل لإعاشتهم ؟ لم يكن هدفه أن يجعل منهم ضيوفاً مستمرين على أهـــالي المدينة ، ولم يفكر في أن يجعلهم مزارعين • فهم لا يستطيعون كسب معاشهم إلا كتجار ، وذلك بارسال القوافل ، أو بغزو القوافل المكية • ولن يعتم الافتراض الاول ان يثير نشاطاً معادياً مـــن جانب القرشيين ، وقد تنبأ محمد بذلك .

لقد أدرك محمد باختصار ، ان هـــذه الهجرة إلى المدينة ، ستؤدي عاجلا أم آجلا إلى نضال مكشوف مع المكيين، فإلى أي مدى أخبر المدنيين بذلك وبأية صورة ؟ وإلى أي مدى أدركوا ذلك ؟ ويبدو أنهم أدركوا ذلك أكثر مما تشير إليه المصادر •

ادعى كايتاني ان سكان المدينة رضوا بمحمد ككاهن أعلى فقط لأنهم كانوا بحاجة إلى الاستقرار الداخلي في المدينة ، وليس لأنهم يقبلون تعاليم القرآن بأكملها . وبعضهم فقط كانوا مسلمين حقاً • وتقوي هذه الفكرة العوامل المادية (كما يفعل ابن اسحق) ، وتقلل، بدون شك ، من شان العوامل الدينية والفكرية ولا تتعارض هذه العوامل ، بل يتمم كل منها الآخر . ونستطيع القول بان الانقسام الاساسي السائد في المدينة ، كان بين من يريدون مجيء محمد اليها والذين لا يريدون ، ومـــن الممكن ايضاً أن يكون محمد ، نوعاً مـــا ، حاملا للافكار اليهودية المسيحية في القرآن ، بألفاظ عربية جاهلية ولهذا أساء فهمها ، كما يقول كايتاني ، ولكن المدنيين الذين كانوا يدافعون عن محمد كانوا يفهمون مبادىء

الإسلام الأساسية ويؤمنون بها . فالله خالق الكون وسيد العالم ، وهو الحكم في اليوم الأخير ، ومحمد حامل رسالة الله إلى العرب . وكان المسلمون يقيمون مجتمعاً جديداً في المدينة ، وكان هــذا المجتمع يتطلب أساساً فكرياً واضحاً ومحدداً . ومن الممكن أن يكون القليل من المسلمين في المدينة يدفعه حماس ديني قوي ، ولكنهم كانوا جميعاً مؤمنين بالروابط الدينية ليشاركوا في بناء مجتمع يقوم على هذه الروابط بدلا من روابط النسب .

٥ - الهجـــرة

ما كاد أهل المدينة يتعهدون بنصرة محمد حتى هب لتنفيذ خططه . ظلت البيعة سراً ، وكان عليه أن يهيء عناصر النجاح قبل أن يقوم بعمل مكشوف يكشف لأعدائه سر مخططاته . فأمر أتباعه في مكة ، بترك البلدة والتوجه إلى المدينة . وتوضح رواية ابن اسحق [1] أن ما دفعه ، هو وأصحابه ، للقيـــام بذلك ترقب مستقبل أفضل في المدينة .

ولهذا كانت فكرة عروة القائلة بأنهم هاجروا هرباً من الاضطهاد خاطئة ، إذ لا تشير كتب التاريخ إلى أي أثر لظهور موجة جديدة من الاضطهاد قبل الهجرة إلى المدينة باستثناء حادثة أبي سلمة [2] ، والشتائم التي وجهت لأبي بكر ومحمـد نفسه . ولا شك أنـــه حدثت بعض الاضطهادات

---

(١) ابن هشام ٦ ، ٣١٤

(٢) ابن هشام ٣١٤

وقامت المعارضة الشديدة ، بعد أن أدرك زعماء مكة ، ما يقوم به محمد .

ولنا أن نفترض ، في مثل هذه الظروف ، أن الكلمات التي قالها محمد في هذا الوقت ، كانت تقوم على الحض والاقناع وليس على الجبر . ولم يترك بعض المسلمين مكة ، كنعيم النهام ، وهو مسلم كبير ، ولم يتهموا مع ذلك بالارتداد عن الدين [١] . وقد هاجر سبعون رجلا إلى المدينة خلال هذه الموجة الاولى ، هاجروا جماعـــات صغيرة ووصلوا جميعاً سالمين . واستعد مسلمو المدينة لإسكان المهاجرين .

بقي علي وأبو بكر فقط مـــع محمد . والأسباب التي حملت محمداً على انتظار وصول أتباعه سالمين ، هي ولا شك التأكد من أن المترددين لن يتخلوا عن المحاولة ، وأن يطمئن إلى أنه يستطيع الاعتماد على وضع مستقل وقوي عند وصوله إلى المدينة ، دون أن ينتظر تأييد مسلمي المدينة فقط [٢] .

وقد سمع زعماء قريش بما يحاك ، فعقدوا اجتماعاً اتفقوا فيه على مخطط وضعه أبو جهل ، وهو أن تقوم جماعـــة من الشبان ، من كل قبيلة شاب ، بمهاجمة محمد بالسيوف ، وهكذا يضيع دمه بين القبائل ، فلا يستطيع أحد الثأر له [٣] .

ومن المهم أن نشير إلى أن قبيلة نوفل كان يمثلها في الاجتماع طعيمة بن عدي ، وجبير بن مطعم ، وهما أخ وابن الرجل الذي كان قد حمى

(١) كايتاني حوليات ص ٣٦٤

(٢) نفس المرجع ص ٣٦٥

(٣) ابن هشام ٣٢٣

محمداً . ولا نعلم ما إذا كان قـد مات أو أبعد عن الاجتماع . والقبائل الاخرى التي يذكر ممثلوها هي : عبد شمس ، عبد الدار ، أسد ،مخزوم، سهم ، جمح ، وهي تكون الفئة ب ، و ج من القائمة (ص ٢٧) .

وليس هناك من داعٍ للشك بأن هذا الاجتماع قد عقـد ، وأن الحاضرين أدركوا أن محمداً يهيء مشاريع معادية لهم ، كما يقول ابن اسحق . وتوضح الحوادث التي وقعت فيما بعد ، بأن النية لم تنعقد على قتل محمد . لأن الاتفاق عـلى ذلك لن يكون بالإجماع ، كما تؤكده المصادر . ولربما كان قرب وقوع الخطر هو الذي عجل برحيل محمد .

ومن الصعب التاكدمنطبيعةالخطر الذي كان يتهدد محمداً وأتباعه ،

فلقد أضيفت أشياء كثيرة عـلى قصة الهجرة لتجميلها ، حتى أن المصادر الاولى نفسها لم تخل من الاضافات ، ولا يستبعد أن يكون محمد قد رجم في مكة ذاتها بعد الاجتماع ، ولكن إذا اعتمدنا للحكم على أفعال محمد تبين لنا أن الخطر الأكبر كان يكمن في الطريق . ولا شك انهناك حدوداً يعتبر بعدها خارج نطاق حماية المسؤولين عـن حمايته في مكة ، وليس داخل نطاق المسؤولين عنه في المدينة . ولهذا يمكن أن يقتل خلال هذه المسافة دون أن يعتبر موته اغتيالاً ، وكان رفيقه أبو بكر في نفس الحالة ، إذ تخلت عنه قبيلته أيضاً [١] .

يقول ابن اسحق بأن محمداً، حين أدرك انه يجب مغادرة مكة ، طلب إلى علي أن ينام في سريره ليوهم المكيين بانـه نائم فيه ، ثم إختفى

---

(١) ابن هشام ٢٤٥

بصحبة أبي بكر واتجه سراً نحو مغارة قريبة تقع إلى الجنوب من مكة. واختفى فيها يوماً أو يومين، حتى جاء ابن أبي بكر، وأخبرهما بأن البحث عنهما قد توقف. فرحلا راكبين على بعيرين، يصحبهما عبد طليق لأبي بكر، هو عامر بن فهيرة، ورائد من قبيلة الدؤيل بن بكر اسمه عبد الله بن الأرقط. وقد سلكوا، في المرحلة الاولى من السفر، طرقاً غير مطروقة، حتى إذا ابتعدوا عن مكة، عادوا إلى سلوك الطريق العادية. فوصلوا سالمين إلى قباع على حدود واحة المدينة، في الثاني عشر من ربيع الاول (٢٤ أيلول سنة ٦٢٢ م).

يؤكد قصة الغار آية من آيات القرآن المدنية (٩/٤٠) «إن تنصروه فقد نصره الله، إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين، إذ هما في الغار، إذ يقول لصاحبه لا تحزن، إن الله معنا».

وهناك آية اخرى (٨/٣٠) يمكن أن تتعلق باجتماع قريش، ولكن ليس ذلك أكيداً تماماً «وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك، ويمكرون ويمكر الله، والله خير الماكرين».

تبدأ بوصول محمد إلى قباع المرحلة الثانية في رسالته وهي المرحلة المدنية.

٦ - المنجزات في مكة

كان أكبر الانجازات في الفترة المكية من حياة محمد تأسيس ديانة جديدة عرفت فيما بعد بالاسلام، ونستطيع القول بأن الاسلام قد تحول

في خطوطه الكبرى عند الهجرة ، ولكن معظم مؤسساته ، كان لا يزال في مرحلة بدائية . فلم يتم بعد تحديد الصلوات ولا العبادة ، وإن كانت قد وضعت الاسس لذلك . ويبدو، من ناحية ثانية ، ان الصلوات في الليل كانت شائعة جداً . ولم تظهر ظهوراً كاملا أركان الاسلام الاخرى : الصيام ، الزكاة ، الشهادة ، والحج • ومع ذلك كانت كل الافكار الرئيسية : الله ، اليوم الاخير ، الجنة والنار ، إرسال الانبياء ، واضحة تماماً .

تساءل بعض العلماء حول صحة إيمان معظم الذين دخلوا الاسلام ، ومالوا إلى القول بان الناس ، في معظم الحالات، كانت تدفعهم الاسباب المادية . وهذه مسالة آمن شيء فيها عدم المغالاة في التأكيد لأن الأفكار الإسلامية تختلف كثيراً عن الأفكار الغربية . ربما كان صحيحاً أن الدخول في الاسلام كان قليلا ، وكذلك التقوى الحقيقية ، حسب المعنى الذي يفهمه الغرب من التقوى . وذلك لأن الأفكار الغربية لا تنطبق تماماً على مظاهر الدين في الشرق الادنى . فقد كان اعتناق الاسلام والتقوى صحيحين في نظر معطيات الشرق الادنى . كانت الشهادة أمام الناس لها معنى في نظر العربي آنذاك أكثر من المعنى الذي يراه غربي اليوم . والاسباب المادية لا تنفي الاسباب الدينية بل الاثنان متكاملان • والقول الحق هو أن الافكار الدينية يجب أن تكون ضرورية ، لتجعل الناس يدركون الوضع العام الذي يعيشون فيه ، والاهداف التي يسعون وراءها . وللدين في نظر التفكير الديني مظاهره

السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

هذا هو الحال في الشرق الادنى ، وهو مع ذلك ، ظاهرة غريبة في نظر الغربيين . ولكن لا يجب أن يعمينا ذلك عن إدراك ، ان الجانب الديني في الحركة التي تزعمها محمد كان دائماً صحيحاً وثيق الصلة بالجوانب الاخرى .

ولما كانت هذه الديانة الجديدة ، تتفق مـــع حاجات المجتمعات الحضرية في غربي شبه الجزيرة ، فقد حملت تغييراً كبيراً في المجتمع . ولم تعد الافكار البدوية ، سواء في مكة أو المدينة ، رغم صلاحيتها لحياة الصحراء ، ترضي المجتمعات الحضرية . وربما كان العيب الاكبر في مكة النزعة الفردية الانانية ، وفي المدينة الحاجة لحكم نزيه .

وكان صنيع الاسلام الاكبر انه غير الاخلاق البدوية لتوافق ظروف الحياة الحضرية ، وكان مفتاح هذا التغير مبدأ جديداً لتنظيم المجتمع . كانت الرابطة الاجتماعية، حتى ذلك الوقت، رابطة الدم .وقد أخذت هذه الرابطة تضعف في معظم المجتمعات الكبيرة ، فلم يمنع الاوس والخزرج من النزاع انتسابهم لجد مشترك ، والولاء للجماعة ، لم يعد سوى سنة غير كافية ، كلما ازدادت النزعة الفردية .

وليس من السهل صياغة المبدأ الجديد بدقة ، ومفهوم النبي على أنه مركز تجمع الجماعة هو أصل هـــذا المبدأ ، ويمكن الوحدة الاجتماعية الجديدة أن تحتوي على حركات عديدة متحدة بعضها مع البعض الآخر (سواء كانت تربطها روابط القرابة أم لا) . ويشد من اتحـــادهم ان

رسولا أرسل إليهم جميعاً. ولهذا كان واجب افراد الأمة المشترك أن يطيعوا أوامر الله التي نزل بها الوحي على النبي .

وهكذا يوجد مبدأ تضامن وسلطة عليا ، فوق الفئات المتعادية ألا وهي سلطة النبي ، أو ربما جاز القول ، سلطة كلام الله . ويبدو التقدم في النظرية الجديدة في القرآن باستعمال كلمة « أمة » في المقاطع الأخيرة ، ويتردد ذكر هذه الكلمة في الاشارات إلى اليوم الأخير حين تأتي كل أمة أمام القاضي كوحدة منفصلة وإن كان هذا لا يمنع ان يثاب الفرد او يعاقب حسب أعماله . ويمكن لأعضاء الامة أن لا يؤمنوا بنبيهم . (٢٧/٨٥) .

بينما تدل كلمة « قوم » على جماعة متحدة بروابط القرابة فقط . ويجب الاشارة إلى استعمال « امة » كلفظ رسمي في دستور المدينة » [١] ، « المسلمون من قريش ويثرب ... امة واحدة » .

ولم يكتمل نمو هذه النظريات إلا بعد مضي فترة من الزمن على الهجرة ، ولكنها كانت تعمل حين بدا محمد مفاوضاته مع اهل المدينة . ان يفكر محمد بنظرية أساساً لحركة الفتح العربي الكبير دليل على اتساع إدراكه لحاجات عصره وعظمة الانجازات التي قام بها خلال الفترة التي قضاها في مكة .

---

(١) ابن هشام ٣٤١

ملحق (أ)

الأحابيش

لا تؤيد المصادر وجهة النظر التي عرضها لامنس في مقالته : « الأحابيش والتنظيم العسكري في مكة في عصر الهجرة »[1] ويدعي لامنس ان المكيين المعارضين لمحمد كانوا قد فقدوا فضائلهم الحربية ، وانهم كانوا يعتمدون ، في الشؤون العسكرية ، على قوة « الأحابيش » المؤلفة من أحباش وغيرهم من العبيد السود ، يضاف اليهم نواة من البدو غير النظاميين لم يكونوا سوى قطاع طرق .

هناك شيء من الصحة ، فيما يقوله لامنس ، وهو محق ، لا سيما في في قوله إن الاحابيش لم يكونوا مجرد « محالفين » كما يدعي فلهوزن .

ولكنه للاسف يتجاوز الأدلة كثيراً في ناحية اخرى . إذ ان طريقته العابثة في معالجة المصادر ليست طريقة علمية ، فهو يرفض هذا الرأي ويقبل الآخر ، حسب أفكاره الخاصة ومعتقداته ، دون أن يعبأ

(١) شبه الجزيرة العربية ص ٢٣٧-٩٤ ، في الاصل الجريدة الاسيوية ، ١٩١٦ ، ص ٤٢٥ – ٨٢

بالموضوعية . ففي الجملة « الاحابيش وعبيد أهل مكة » نجد ان « الواو » تفسيرية تشير إلى أن الأحابيش من ضمن العبيد ، بينما نجد في الجملة : « الاحابيش ومن أطاعهم (أي القرشيين) من قبائل كنانة وأهل تهامة ، ان « الواو » تدل على تمييز تام . ولكن لماذا يفعل لامنس ذلك ؟ يبدو أنه يؤكد حقيقة النظرية التي يحاول التدليل عليها .

من المفيد ، كي نصل إلى وجهة نظر متوازنة ، أن ننظر أولا إلى المقاطع المتعلقة بالأحابيش عند ابن هشام والواقدي والطبري .

أ ـ يقول ابن هشام بأنه يروى ، بصدد رحيل أبي بكر عن مكة وطلبه حماية ابن الدغنة (أو الدغينة) ، ان ابن الدغنة ، وهو من بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، كان حينئذ « سيد الأحابيش » ... وان الأحابيش هم بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، والحن بن خزيمة بن مدركة وبنو المصطلق من خزاعة [١] ، وان اسم الأحابيش مشتق من أنهم تحالفوا في وادٍ يسمى الأحباش [٢] .

ب – كما يقول ابن هشام « فاجتمعت قريش لحرب رسول الله حين فعل ذلك أبو سفيان بن حرب ، واصحاب العير بأحابيشها ، ومن أطاعها من قبائل كنانة وأهل تهامة » [٣] .

ونجد في الواقدي (ص ١٩٩) « ومن تبعنا من بين الاحابيش » كما يذكر (ص ٢٠١) ان إحدى الرايات الثلاث كانت عند الاحابيش يحملها

---

(١) ابن هشام ٢٤٥ (٢) ابن هشام ٢٤٦
(٣) ابن هشام ٥٥٦ ، طبري ١٣٨٤

أحد رجالهم . كل ذلك بصدد معركة أحد .

ج – ويقول ابن هشام إنه حين بدأت معركة أحد ، كان أول من خرج للعدو أبو عامر مع الاحابيش وعبيد أهل مكة [١] .

د – وكذلك يقول انه في نهاية معركة أحد أخذ الحليس بن زياد وكان « سيد الاحابيش » على أبي سفيان انه شوه جثة حمزة فاعترف أبو سفيان بخطاه [٢] .

ﻫ – ويرد ذكر الأحابيش في قصيدة لحسان بن ثابت عن معركة أحد وفي قصيدة أخرى لكعب بن مالك .

و – كما يقول ابن هشام ان القرشيين في معركة الخندق تقدموا بعشرة آلاف رجل من أحابيشهم ومن تبعهم من بني كنانة وأهل تهامة [٣] .

ز – وأنه في الحديبية كان الحليس بن علقمة (أو ابن زبان) « سيد الأحابيش » وكان من بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة . وانه أرسل إلى محمد فتأثر بنوايا المسلمين وهدد بالانضمام إلى محمد مع الاحابيش إذا لم يسمح لهم المكيون بالحج [٣] .

ح – ويقول الاخزر بن لعث الدؤيلي في قصيدة يسخر فيها من بني كعب (من خزاعة) انه لا فائدة منهم بعد رحيل الاحابيش [٤] .

---

(١) ابن هشام ٥٦١   (٢) ابن هشام ٥٨٢

(٣) « « ٦٧٣   (٤) « « ٦٤٣ ، طبري ١٥٣٨ ، الواقدي ٢٥٢ وما يليها .

(٥) « « ٨٠٤

ط – كما يقول الطبري ان الاحابيش في مكة ،عند سقوطها ، كانوا من بين الذين قاوموا المسلمين [1] .

ويمكن أن نضيف لهذه المراجع المراجع التالية المتعلقة بالحوادث السابقة على الهجرة .

ي – يقول ابن سعد ، بعد الحادث الذي أدى إلى اندلاع حرب الفجار ، ان القرشيين وغيرهم من كنانة ، وأسد بن خزيمة ، ومن انضم اليهم من الاحابيش من قبيلة الحارث بن عبد مناة بن كنانة وعدل والقاره، ودش و المصطلق من خزاعة ، التي كانت تستعد بهدوء للقتال [2] .

ق – ونجد عند الازرقي انه قبل حربي الفجار ، كان حرب بن امية سيد قريش في حربها ضد بني بكر بن عبد منـاة بن كنانة ، وان الاحابيش كانوا مع بني بكر ، وانهم تحالفوا على جبل يسمى الحبشي ضد قريش ولذلك سموا بالاحابيش [3] .

يمكن أن نستخلص من وجهة النظر العامة القائمة على المراجع التي اعتمدتها – وهي وجهة نظر تختلف عن وجهة نظر لامنس – النتائج التالية التي تتمتع بقدر من الثقة :

١ – لا شيء يسمح بالقول بأن الاحابيش ليسوا عرباً ، بل هناك أشياء كثيرة تحمل على الاعتقاد بأنهم عرب ، ولا سيما المقطع (ط) . وتفقد حجة لامنس وزنها ، إذا ما فحصنا أصل الكلمة . وإذا كان يمكن

---

(١) طبري ١٦٣٥ (١) ابن سعد ج ١ ، ٨١ ، ٨–١١

(٣) الأزرقي ، ذكره وست في « مكة » ج ١ ص ١٤٠٧١ .

اعتبارها مشتقة من « حبش » (حبشيين) فليس ذلك هو المعنى الممكن الوحيـــد ، إذ يمكن أن تكون إلى جانب الاسم المشتق الذي ذكره ابن هشام ، جمع « احبوش » او « احبوشة » وتعني « جماعة من حزب من الرجال وليس من قبيلة » (لاين) حتى ولو كانت مشتقة من «حبش» فلا يبرهن ذلك على أن هؤلاء الرجال كانوا عبيداً . إذ يمكن أن يكونوا عرباً أقحاحاً من ناحية الاب ، مولدين من ناحية الام ، سحنتهم سمراء .

ولا يوجد أي سبب قاطع يسمح بالقول ، بأن الاحابيش كانوا عبيداً من الحبشة . بل هناك أسباب كثيرة تحمل على رفض مثل هذا الرأي .

٢ – يبدو ان الاحابيش كانوا منظمين ضمن قبيلة . لأن كلمة «سيد» هي اللقب المستعمل لتسمية زعيم القبيلة [١] .

بينا هناك بعض التعابير المستعملة توحي ، مـــع ذلك ، بانهم لم يؤلفوا قبيلة أو مجموعة من القبائل كما في جملة « أحابيشهم [٢] » (القرشيين) بل هي تتفق مع المعنى الذي يذكره لاين لـ « أحبوش » . فإذا كان الامر كذلك يمكن أن يكون الاحابيش عبارة عن أناس بلا نسب ، وقـــد أصبحوا حلفاء القبائل المذكورة في المقطع (أ) . ومـــن الصعب أن يكونوا حلفاء القرشيين ، الذين كانوا يحاربون إلى جانب العائلات التي ينتمون اليها .

وكان من بين هؤلاء الحلفاء شخصيات لها مكانتها في مكة، كالاخنس

---

(١) لامنس ، مهد الاسلام ، ٢٠٨

(٢) راجع الواقدي ، ٢٢٥ ، حيث نجد اشارة الى احابيش سفيان الهذلي .

بن شريق الذي طلب محمد حمايته ، ويمكن أن تعني جملة « بلا نسب »[1] إذا صحت ، « من أصل وضيع » .

غير ان ظهورهم لأول مرة إلى جانب المعسكر المعارض للقرشيين يميل إلى التأكيد بانهم كانوا جماعـــة ضعيفة يؤلفون شبه قبيلة في ضواحي مكة .

٣ ـ يمكن أن تشير أعمال ابن الدغنة إلى أنه كان يتمتع بمكانة خاصة في مكة . ولكن مكانته هذه الخاصة مبالغ فيها لانه لم يكن مستعداً للوقوف ضد « القرشيين » . ويبدو الحليس في المقطعين (د) و (ز) سيداً مستقلا يعامل القرشيين معاملة الند ، ويتضح مثل هذا الموقف إذا كان وضع الاحابيش من قريش كوضع بني بكر بن عبد مناة .

٤ ـ كان للمكيين ولا شك عدد كبير من العبيد السود وكانوا يستخدمونهم في القتال .

ويبدو ان بعضهم حارب إلى جانب أسيادهم ولكن المقطع (ج) يوحي بأنهم في أحد كانوا جماعة منفصلين ، مميزين عن الاحابيش . وكان العبيد يعيشون في مكة بينما يبدو أن الاحابيش كانوا يعيشون على مسيرة يومين من مكة (مقطع أ) .

٥ ـ يجب النظر في إمكانية حدوث خلط في بعض المقاطع بين معاني « الحبشيين » « اناس بلا نسب » و « الاحباش » ومشتقات « الاحابيش » هي مجرد فرضيات قالها رواة لاحقون .

---

(٣) راجع مقطع « هـ »

٦ ـ ومهما كان الحال ... ورغم السر الذي لا يزال يحيط بهم ـ فإنهم لم يقوموا بالدور الخطير في المعارك المشار اليها . وإن كان عددهم قد زاد من الصعوبات التي واجهت المسلمين . وافتراض لامنس الشرير بأن قوة مكة كانت تعتمد على جيش مـــن العبيد السود لا أساس له . إذ لم يكن الامراء التجار هواة المآتي الحربية بل كانوا يتجنبونها وإن كانوا مستعدين للقيام بالكثير منها عند الضرورة .

ملحق (ب)

التوحيد العربي والتأثيرات اليهودية والمسيحية

يقوم سؤال يطرحه غالباً الكتاب منذ جيل أو جيلين على التساؤل عن مدى التأثير اليهودي المسيحي على محمد ، ويحتوي هذا السؤال في الواقع على القول ، بأن العرب الذين كان يتوجه إليهم محمد بتعاليمه ، كانوا لا يعرفون التوحيد .

ولقد أصبح من الواضح ، شيئاً فشيئاً ، إن هذا القول لا يعتمد على أساس متين . إذ أن سور القرآن الاولى تفترض عند الذين أرسلت اليهم معرفة بفكرة كائن علي يعترفون به ، كما تميل صفات أخرى إلى التأكيد على أن الجو الفكري في شبه الجزيرة عامة ، وفي مكة خاصة ، كان مفعما بالتوحيد[1] .

وهكذا يقدم لنا د . ج . مرغوليوث في مقالته عن أصول الشعر

(١) راجع نيكلسون ، تاريخ العرب الأدبي ص ١٣٩

العربي [1] بعض الامثلة على وجود الافكار التوحيدية التي تبناها الاسلام فيما بعد ، في الشعر الجاهلي . ولكن التفسير البسيط لهذا الامر هو القول بانتشار التوحيد قبل ظهور القرآن .

ويبدو ان س.س. توري في كتابه « الاساس اليهودي للاسلام » ، رغم قوة النصوص لدعم رأيه ، يعترف ضد رأيه : « إن قرآنه (محمد) العربي ، وهو عمل عبقري ، وإبداع كبير من رجل عظيم ، يتالف بدون شك من مواد عربية ، فلقد كانت كل فضائل التلاوة القرآنية ومن بينها الكلمات الاجنبية وأسماء الاعلام معروفة في مكة قبل ظهوره على المسرح » .

ربما كان توري يفكر بالالفاظ الدينية المستعملة عند اليهود العرب . ولكن كان يستعملها أيضاً العرب الاقحاح . ومن ثم فان وجود الكلمات يستدعي وجود الافكار ، أو ما سميته بالتوحيد الغامض الذي لا يعبر عن نفسه بطقوس عبادة محدودة ، ولا يدرك الفرق بينه وبين الشرك . وهكذا يدعو الاطلاع الواسع وعدم التميز المؤرخ على المستوى الفقهي إلى أن يكون السؤال الذي يطرح في هذا الميدان هو مدى اتساع التأثيرات اليهودية المسيحية (وربما غيرها) في مكة سنة ٦٠٠ م ، وليس تأثيرها على محمد نفسه او على القرآن . ولن يكون الجواب على هذا السؤال بسيطاً وأكيداً .

---

(١) جريدة الجمعية الملكية الاسيوية ١٩٢٥ ص ١٧٠-٤٩

(٢) ص ٥٤ ، ٣٣ ، ٨٤ ، ٥٠ ، ٧١ ، ٧٦ راجع جفري ، الفاظ ص ١٠

ولا يعني وجود التأثير غير المباشر ، استبعاد كل تأثير مباشر . و لما كان من المتفق عليه أن الأفكار التي كانت « في الجو » ، ربما اتصلت بمحمد عن طريق العرب ، فانه يبدو من الأفضل القول ، اننا أمـــام تأثيرات توحيدية على البيئة المكية . ولسنا بحاجة لأن نفترض التأثير المباشر على يد مخبر موحد إلا حيث ظهر ذلك بديهياً .

والدليل الرئيسي هي الاشارة إلى رجل يعلم بلسان أجنبي في سورة النحل (١٠٥/١٦) . ويلاحظ توري ، الذي يتخذ من ذلك حجته ، أن محمداً لا ينفي قط أن يكون له « معلم بشري » بل يلح في القول على أن تعليمه ينزل عليه من السماء .

وإذا افترضنا أن محمداً كان يتلقى معلوماته من شخص من الأشخاص فإن ذلك يؤدي بنا إلى ازدياد التشابه مع قصص العهد القديم . وهكذا نجد في الآيات ١٣٥/٣٧ و ١٧١/٢٦ عجوزاً بين أهل لوط ، كما نجـــد في آيات أخرى زوجه (٥٨/٢٧) ، ٨١/٧ ، ٦١/١٥ ، ٨٣/١٨ ، ٣٢/٢٩ .

ولا يسمح لنا أي شيء في المقطع الأول من المقاطع الأربعة بادراك العلاقة بين ابراهيم ولوط ، بل هناك بعض المسائل التي تجعلنا نفترض جهل ذلك بينما نجد في المقاطع الثلاثة الاخيرة ذكر علاقته مع ابراهيم .

لو لم يكن هناك سوى مثل أو مثلين من هذا النوع لما صعب تفسيرهما ولكن هناك عدد كبير منها ، ولا يستطيع الناقد الغربي أن يقاوم الرغبة في الاستنتاج بأن معرفة هذه القصص تتزايد باستمرار وان شخصاً كان يخبره بها أو أشخاص على علم بها .

لو أن مسلماً رضي بهذا الايضاح ، لادعى بأن الله كان يوفق بين لفظ القرآن وبين إدراك محمد وأتباعه ، كما يقبل بأنهم كانوا يتعرفون على القصص من مصدر إنساني ، بينما يوحي الله لهم ، ما يحتويه من تعاليم . غير أن مثل هذه النظرة تصطدم بصعوبة في مثل هذه الآيـــة ١١/٥١ :

« تلك من أنباء الغيب ، نوحيها إليك ، ما كنت تعلمها ، أنت ولا قومك من قبل هذا ، فاصبر إن العاقبة للمتقين » .

إذا أردنا أن نقول في نفس الوقت بصدق محمد وازدياد معلوماته عن المصادر الانسانية فإننا نجد أمامنا ثلاث إمكانيات :

١ - نستطيع أن نفترض أن محمداً لم يكن يميز بين القصة والمغزى الذي تتضمنه ، إذ يفهم الثاني بواسطة الوحي ، فكان محمد يعتبر الكل وحياً .

٢ - ربما وصلت القصص إلى علمه بواسطة التلباثي .

٣ - ربما كان معنى « نوحي » « أعد لفهم تعاليم أو مغزى كذا » .

وربما تقع الحقيقة بين الفرضية الاولى والثالثة . ويروي القرآن القصص دائماً من أجل مغزاها ، وبصورة رمزية لإخراج هـذا المغزى . فهي تظهر مثلا كيف أن أعداء نبي من الأنبياء، الذين يرفضون رسالته ، سوف يعاقبون في نهاية الأمر ، بينما ينجو المؤمنون من العقاب . وربما كان معنى هذه القصص أن تظهر للعالم العربي المهتم بالانساب ان الحركة الجديدة لها أصل روحي مشرف . وليس هناك من صعوبة للزعم بأن صيغة هذه القصص ومغزاها وصلت للنبي عن طريق الوحي وليس عن

طريق مخبر .

ولا يمكن للحيرة ، التي تسببها مثل هذه الآية للذين يرغبون في الدفاع عن صدق محمد ، أن تشغلنا عن الاهمية الضئيلة نسبياً لما وصل اليه عن طريق هذا الرجل الموحد المفترض . فلقد اهتم محمد والمسلمون لقصص الانبياء الاول لأنهم كانوا يستمدون منها ما يشحذ عزيمتهم ويعزيهم ، كما أن هذه القصص ، كما أشرنا ، كانت بمثابة مفاخر بجدودهم .

وقد أعلنت، مع ذلك ، رسالة القرآن الأساسية ، قبل أن يظهر الاهتمام بالانبياء ، ولا تعني الافكار التي يتضمنها انهـــا أفكار مقتبسة . فقد انتشرت في الجو المكي ، وكان إخراجها يلائم حالة العصر بواسطة الحدس النبوي ، فلم يقل أي يهودي أو مسيحي لمحمد إنه نبي . والسؤال الوحيد الذي يجب طرحه فيما يتعلق بالمصادر ، لفهم الإسلام ، هو معرفة الطرق التي تسربت منها الافكار اليهودية المسيحية ، وإلى أي مدى تأقلمت في الحجاز .

ملحق (ج)

الحنفاء

يذكر ابن اسحق أربعة أشخاص عاشوا قبل جيل محمد ، اتفقوا فيما بينهم على هجرة الطقوس الجاهلية والبحث عن «الحنيفيه»، دين ابراهيم.

كما يذكر ابن قتيبة من جانبه اسم ستة أشخاص ، يطلق عليهم اسم الحنفاء ، ومن بينهم أمية بن أبي الصلت ، وأبو قيس ابن الاصلت [1] . فما فائدة هذه الاشارات ؟ هل تعني وجود طائفة من الموحدين في شبه الجزيرة العربية لم يكونوا يهوداً أو مسيحيين ؟

لقد كتب الكثير حول ذلك بعد أن عرض سبرنجر هذه الفكرة . ولن نفكر هنا حتى باختصار مختلف الآراء التي قيلت . ونكتفي بتحديد أهم المسائل فيما يتعلق بسيرة محمد [2] .

يمدنا استعمال كلمة حنيف في القرآن بنقطة للانطلاق متينة . كان الحنفاء هم الذين يتبعون ديانة العرب الاصلية ، فهم ليسوا طائفة ولا فئة

---

(١) ابن هشام ١٤٣ـ٩

(٢) معارف ٢٣ـ٨٠

من الشعب [١] .

تظهر هذه المسألة في تعليم القرآن منذ وقت مبكر من الفترة المدنية ، في الوقت الذي تازمت فيه العلاقات بين محمد واليهود . فأعلن أن العرب يتمسكون بدين ابراهيم في صفائه ، بينما اليهود والمسيحيون قد عرفوا هذا الدين [٢] .

ويبدو من الواضح أن جميع الاشارات إلى الحنفاء في المصادر الاولى تدل على محاولة للحصول على الوقائع التي يمكن أن تستخدم أمثلة على أقوال القرآن ، وأن ليس أحد من الاشخاص المذكورين أطلق عليه اسم « الحنيف » ولا صرح بانه يبحث عن الحنيفية .

ونجد عدداً من الامثلة الصحيحة على استعمال كلمة « حنيف » في اللغة العربية قبل محمد (وإن كان ليس من السهل القول أيها الصحيح وأيها الموضوع) يختلف قليلا . والذين درسوا المسألة حديثاً يقولون بأنها مشتقة من « اللهجة النبطية وتعني احد اتباع فرع من دياناتهم السورية العربية المتاثرة بالتعاليم الهلينية » [٣] .

وليس لقضية الاشتقاق هذه سوى أهمية ثانوية ، حتى ولو كانت هذه الفكرة صائبة فإنها لا تعني أن هذا الاقتباس عن الهلينة قد ساعد

---

(١) ابن هشام ٤-١٧٨،٢٩٣

(٢) بيل ، مقالة حنيف فيدائرة المعارف الاسلامية ، كايتاني ، حوليات ج١، ١٨١،٩٢ ق.أ. فارس و هـ.ي. جلدن : تطور معنى كلمة حنيف في القرآن، في مجلة الجمعية الفلسطينية الشرقية ٢٩ ، ١٩٣٩ ص ١-١٣

(٣) بل ، المرجع المذكور ص ١٢٤

مساعدة مهمة على إدخال الافكار الموحدة إلى شبه الجزيرة العربية .

وإن كان الأشخاص الأربعة في رواية ابن هشام لا يسمون « حنفاء » فلقد شعروا تماماً باتجاههم نحو التوحيد . وكان اثنان من الاربعة ينتميان إلى بني أسد وهما ورقة بن نوفل (ابن عم خديجة) وعثمان بن الحويرث، وقد أصبح الآخران مسيحيين ، وإن كان لاعتناق الاخير للمسيحية أهمية سياسية .

وهناك شخص آخر هو عبيد الله بن جحش ، وكان حليفاً لقبيلة عبد شمس ، وهو ابن بنت عبد المطلب . وقد أسلم وشارك في الهجرة إلى الحبشة ، ثم اعتنق هناك المسيحية . والرابع زيد بن عمر من قبيلة عدي ، ظل موحداً دون أن يعتنق أي دين معين . ونجد تفاصيل أوسع عن هؤلاء الرجال في «الاغاني» وغيره [1] . وهكذا حين نستبعد كل ما يمكن أن يكون اختراعاً لاحقاً ، أو تفسيراً خاطئاً ، يبقى لدينا بعض الوقائع ، ولكنها لا تستطيع مساعدتنا على إعادة بناء تكوين الحوادث ، فلا نستطيع التثبت مما إذا كان الأربعة حلفاء . فلو كان ذلك لكان له جانب سياسي وديني ، ولكان على صلة بالمحاولة التي قام بها عثمان للاستيلاء على السلطة في مكة . فلقد أدرك كل منهم العوامل غير الدينية ، التي تؤدي إلى اضطراب العصر وإن كان اهتمامهم بالعامل الديني أكثر .

وهكذا بينما يستمر الغموض يخيم على هؤلاء الاشخاص، الذين أطلق عليهم اسم الحنفاء ، فإن ما نعرفه عنهم يكفي لنرى فيهم مثالاً

---

(١) راجع سنوك هرجرنج ص ٢٩ .

آخر على كيفية تسرب التوحيد في البيئة التي كان يعيش فيهـــا محمد، فكان يجتذب اليه العقول المثقفة بين العرب . لم يكن الحنفاء فقط اولئك الذين استجابوا للتوحيد ، بل كان منهم كثيرون بين أصحاب محمد الاول كعثمان بن مظعون وأبي عامر عبد عمر بن صيفي من المدينة الـــذي أصبح فيما بعد عدواً لدوداً وللحنفاء أهمية في دراسة حياة محمد لانهم دليل على وجود نزعة التوحيد في البيئة العربية .

ملحق (د)

تــزكى ...

تضعنا كلمة تزكى ، وغيرها من مشتقات كلمة « زكا » (عدا زكاة) أمام مشكلة . فقد ترجمها أحد العلماء « تطهر » ويضيف إلى ذلــك بين هلالين ، أو في أسفل الصفحة ، « بالصدقــة »[1] . ويقول آخر « أن يكون المرء محسناً »[2] . ويرد الجــذع حوالى ست وعشرين مرة في القرآن ما عدا كلمة زكاة . ومن المفيد أن ننظر في أهم هذه الامثلة . ونجد لها أربع مجموعات .

المعنى واضح في المجموعــة الاولى (١٦٩/٢ + ٧١/٣ ، ؟٥٢/٤ ، ٣٣/٥٣ +) وكلها أمثلة من صيغة « زكى » المستعملة في معنى « برر » أو « حساب حق » كما تستعمل الكلمة في العهد الجديد . ونجد أن المعنى الصريح أو الضمني في كل مثل من هذه الامثلة هو ما يلي : لا تبرروا

---

(١) فارس وجلدن ، المرجع المذكور ، ص ١٢

(٢) راجع كايتاني ، المرجع المذكور

نفسكم بأنفسكم ، الله يبرر من يشاء . وتتضمن كلها إشارة إلى الحساب الاخير ، وتتعلق كلها ، ما عدا واحداً منها ، باليهود . ونقد الافكار اليهودية الذي يدور حوله هذا الاستعمال للكلمة يشبه النقد الموجود في العهد الجديد .

وتجد في المجموعة الثانية (١٢٣/٢ ، ١٤٦/٢ ، ١٥٨/٣ ، ٦٢/٢) التصريح بأن رسولا أرسل « ليزكى » شعباً من الشعوب ، وهي آيات ترجع إلى أيام المدينة الاولى . والمقطع الاول منها يقصد اليهود وإن كان يتحدث عن ابراهيم ، والمقاطع الاخرى ترجع إلى محمد .

ولما كان النبي لا يمكنه « التبرير » بالمعنى الذي يبرر به الله فإنه يجب علينا إذا ترجمنا « زكى » بـ « برر » أن نعني بذلك أن تبرير الله هو نتيجة بعثة النبي . وكذلك شان « طهّر » ويمكن للكلمة مع ذلك أن تعطينا معنى أوسع كان تعني « معد للتبرير او التطهير » كما يمكن أن تعني من ناحية ثانية « أدى الزكاة من أجل » ، وهذا المعنى صالح إذا لم تكن « زكاة » قد أصبحت لفظاً تقنياً وتتضمن بعض وسائل التطهير.

وهكذا يبدو ان «يزكى» حيث تستعمل بصدد رسول فهي تعني « طهر باقامة الصدقة» . ويختلف معنى الاستعمال المكي (وربما المدني في أول عهده) لـ « تزكى » و « التزكي » ونجده في المجموعة الثالثة (٧٨/٢٠ ، ٣٥/١٩٢، ١٨٢/٧٩ ، ٣/٨٠، ٧٥ ، ١٤٢/٨٧ ، ١٨/٩٢) قليلا . وهدف محمد في ٣/٨٠و٧ من دعوته هو أن يقود الإنسان إلى التزكي ، وهذا يعني اعتناق الإسلام . وتقول ٧٨/٢٠ ان جنات عدن هي ثواب التزكي . ونجد نفس

الشيء تقريباً في ١٩/٣٥ ، ١٨/٧٩ ، ١٤/٨٧. وهكذا يبدو ان تزكى تشير إلى سمو الاخلاق الذي هو جزء من الغاية النهائية للحياة .

يتفق هذا مع ما كتبه المؤلفون الغربيون حول استعمالات مشابهة لكلمات مماثلة في العبرية والآرامية والسريانية [١] . ويعني الجذع العربي « زكا » « نما » «ازدهر» ولكن استعماله لم يعتم أن تأثر بهذه اللغات الاخرى التي نجد فيها جذعاً مشابهاً (مرادفاً للجذع العربي ذكا) ويعني خاصة طهارة الأخلاق . ويساعدنا الطابع الغريب لهذه الفكرة على العرب ـ وإن لم يأت بها القرآن ـ على توضيح استعمالهم للفظ « تزكى » للتعبير عــن هذه الفكرة نحن هنا أمام فكرة متميزة عن الطهارة العادية (راجــع طهر في ٤/٧٤) التي عودتهم عليها الديانة القديمة . وهكذا يمكن أن يؤدى معنى « تزكي » بصورة أفضل بكلمة « استقامة » أكثر منه بكلمة «طهارة» وينسب إلى كلمة « زكى » في المجموعة الاولى . ونستطيع أن نتجنب كل صعوبة تنشأ من القول بأن الناس قد ملأت نفوسهم الاستقامة منذ هذا العهد باعتبار الكلمه تعني انهم « يميلون إلى الاستقامة » وإنهم «اتخذوها مبدأ لهم » وربما لم يقم هذا التمييز في أذهان العرب .

ولنا أن نضم إلى هذه المجموعة مثالين على « زكّى » : ٢١/٢٤و٩٢/٩١ « ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكي من يشاء » . « قد أفلح من زكاها » ويمكن أن تعني يتزكى في ١٨/٩٢ هذا المعنى « الذي يؤتي ماله يتزكى » ولكن لما كانت الآية قد نزلت في

---

(١) جلري ، معجم

المدينة وذكر المال فانها تعني « الذي يؤتي ماله كزكاة (للتطهر) أي انها تستعمل كلمة زكاة بمعناهـــا التقني ، وإن كانت لا تزال تتضمن معنى الطهارة . ولا يربط أي مقطع مكي واضح بين تزكى والمال . بل نجد على العكس، أحياناً اشارة خاصة غير موفقة، كما في مثال فرعون (١٨/٧٩) بينما يوجد رجل غني في سورة عبس (٨٠) ويظل مع الاعمى معذلك مثالا على التزكي .

ويوجد مع ذلك مجموعة رابعة حيث يسيطر المعنى الأصلي للجذع العربي (٢٣٢/٢ ، ١٨/١٨ + ، ٧٣/١٨ ؟ ، ١٩/٦٩ + ٢٨/٢٤ ، ٣٠/٢٤) ولا تحمل هـــذه المقاطع أي عنصر جديد لحل مشكلتنا ولا فائدة من استعراضها .

تستعمل كلمة زكاة عادة بالمعنى التقني لها معطوفة على كلمة «صلاة» ولكن يبدو أننا نستطيع العثور على بعض الامثلة على استعمالها بمعنى غير تقني أي بمعنى عام يدل على سمو الاخلاق والاستقامة الخلقية كما في المجموعة الثالثة .

ونجد أفضل الامثلة في ١٨/٨٠ و ٤/٢٣ ، كما نجد في الآيات ١٤ ، ٣٤، ٥٥ من سورة مريم (١٩٠) أمثلة إضافية ، ولكنها لما كانت تتعلق بالانبياء فإنها بذلك تنتمي للمجموعة الثانية .

وأخيراً نجد ١٠٤/٩ حيث يبدو المعنى الاخلاقي للجذع «زكا» يتفق والطهارة . حيث يؤمر محمد بصدد البدو : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » .

وقد اقترح بعض المفسرين المسلمين تفسيراً آخر وهو [1] « خذ من بضاعتهم صدقة تطهرهم ، وتبررهم من أجل ذلك » . وقد أصبحت الفكرتان مرتبطتين كل منهما بالاخرى ، ولربما أخطأ المفسرون في ذكر مناسبات نزول هذا المقطع ، ولكنهم بدون شك ، محقون بتلميحهم إلى أن ذلك مشابه للأفكار السائدة بين العرب . فقد قـام هؤلاء بعمل يعتقدون أنه يطهرهم . وهم الذين أرادوا الطهارة . وبقدر ما يتعلق هذا بكلمة تزكى نفسها ، فإنها تتصل بالمجموعة الثانية .

يبد أن هذا البحث يشير إلى أن الجذع « زكا » في الفترة المكية في استعمالاته الدينية الخاصة ، يتضمن الاستقامة وسمو الاخلاق . ويذهب المفسر ابن زيد ، الذي يذكره الطبري [2] ، إلى القول بـأن « تزكي » مرادفة للاسلام . ربما كان في ذلـك دعوة إلى الطهارة الأخـلاقية حول تزكى ، ولكن لم تكن أية دعوة للطهارة الدينية ، ولا علاقة مطلقة مع الصدقة . ويبدو أن « زكّى » في الفترة المدنية ، ولا سيما في المجموعة الثانية في ٩/١٠٤ تتعلق بالطهارة عن طريق الصدقة ، ولها بهـذا صلة بالطهارة التقليدية .

فلماذا وقع هذا التفسير ؟ ويرتبط بهذه المشكلة مشكلة استعمال زكاة بمعنى « الصدقة » . وربما كانت زكاة مشتقة من الآرامية من كلمة زكوت وتعني طهارة ، وليس إيتاء الصدقات ، أن يكون هذا الانتقال من معنى

---

(١) راجع الطبري ، تفسير

إلى آخر قد قام به اليهود المقيمون في شبه الجزيرة العربية أو قام به محمد أولا ، فإن مشكلة سبب الانتقال تظل كما هي [١] ، فما هي الصلة بين استقامة وطهارة تقليدية وصدقة ؟

وبالرغم من أن « تزكّى » لا علاقة ظاهرة لها بالصدقة في الأصل ، فإن فضيلة السخاء قد كان لها دور رئيسي في مقاطع القرآن الاولى وهي تتضمن الصدقة . ولكن الصدقة ، كما لاحظ س . سنوك هرجرونج [٢] لا تعطى في الشرق دائماً لأسباب إنسانية أو نفعية بل لأنها الفضيلة المثلى.

لا نناقش الجانب السلبي من رأيه، ولكن حين يتحدث عن الاحسان من أجل الشرف ، فإنه يضفي على الاشياء طابعاً مثالياً نوعاً ما . ولقد كانت فكرة التضحية بشيء ثمين جداً ، بالولد البكر عند الحاجة، متاصلة في الفكر السامي لاعتقادهم بأن من طبيعة هذا العمل أن يكسب عطف آلهة غيورة ويتيح التمتع بالأموال دون الخوف من الأيام . ولهذا أصبح طبيعياً بالنسبة لاناس تملؤهم مثل هذه الفكرة أن يعتبروا الصدقة وإعطاء قسم من أموالهم و ممتلكاتهم كصورة من التضحية للاستعطاف [٣] .

وربما لم يبد أي شعور من هذا النوع من خلال المقاطع الاولى « لتزكّى » ولا في الإلحاح على السخاء . غير أن المقاطع التالية من القرآن تجعلنا نشعر بأنها تمدنا بالأمثلة على عودة أفكار قديمة ولا بد أنها تدخلت في نمو ممارسة الزكاة في الإسلام اللاحق ، كما يظهر ذلك الحديث .

---

(١) راجع جفري ، معجم .

(٢) « سيرة جديدة لمحمد » في مجلة تاريخ الأديان ، عدد ٣٠ ، ص ١٦٧
Verspreide Geschriften 1, 353 sv

(٣) راجع جودفروا دومومبين ، المؤسسات الاسلامية ، ١٠٥

وهكذا يقال في سورة البقرة (٢٧٣/٢) عن الصدقات التي تعطى خفية ، بأنها تكف عن الأعمال السيئة ، ونجد في نفس السورة الحديث عن الصدقة ، على أنها فدية عندما لا يحلق الانسان شعره أثناء الحج. وتعني فدية حسب رأي لين « أموال تعطى لتجنب وقوع الشر بنا حين لا نتم العمل الديني كالتكفير عن النكث بالقسم مثلا » .

ويجب في الزكاة الشرعية ، حسب النظرية اللاحقة ، أن تكون قسما من الممتلكات وليس ما يعادلها من الأموال [٤] ، وتتحدث عدة أحاديث عن الذين لا يجدون من يأخذ صدقاتهم [٢] . ولا يستطيع من أعطى الزكاة أن يسترد عطاءه [٣] . ونلاحظ ان الغزالي حين يذكر الممتلكات التي تؤدي الزكاة بها ، يضع الماشية قبل كل شيء ، ثم الحصاد ، ثم يأتي المال ، والسلع ، والمعادن. وهذا يعني أن الاشياء المذكورة أولا تقابل الاشياء المذكورة للتضحية في العهد القديم .

وإذا جاز لنا ان نقول بأن تزكى في الفترة المكية عنت الطموح إلى الطهارة الأخلاقية والاستقامة ، فإن زوال الكلمة فيما بعد يمكن أن يكون سببه ان هذه الطريقة في التعبير عن فكرة جديدة على العرب قد اختلطت مع أفكار قديمة حول الطهارة التقليدية . وقد ربط القرآن المثل الاعلى الاخلاقي مع الأمر الإلهي ومع الحكم الإلهي، غير ان التاكيد من جديد على فكرة الطهارة التقليدية يضعف من هذه الصلة ، ولهذا اخذت كلمة « تزكّى » تختفي أمام كلمة « حنيفية » و « إسلام » [٤] .

---

(١) الغزالي ، احياء ، ج ٥ ، ٢ ، بخاري ٢٤، ٥٨ ، ج ١ ، ٤٨٥
(٢) بخاري ٢٤، ٩، ١٠ (٣) نفس المرجع ٥٩ (٤) راجع ص ١٠٦ مما سبق .

ملحق (٥)

أحاديث عروة

للمعلومات المقتبسة عن عروة بن الزبير في الفترة المكية من حياة محمد أهمية عظمى ، خاصة المقاطع من رسالته إلى عبد الملك التي حفظها الطبري [١] . ولهذا يجب أن نهتم اهتماماً خاصاً بمشكلة الثقة التي يمكن أن نوليها لهذه النصوص . وسوف نبرهن في السطور التالية على أن ما يروى عن عروة هو حقاً مستند نقله بنفسه ، كما سنبرهن على أنه لم يوضح المصدر الذي استقى منه ، وانه حيث يذكر اسم راوٍ سابق فقد حمل هذا الاسم فيما بعد شخص آخر بصورة افتراضية . وربما كان الافتراض صحيحاً ، ولكنه يبقي على عنصر من الشك .

كان عروة إبن الزبير بن العوام ، وهو أحد المسلمين الأوائل ، وكان صديقاً حميا لأبي بكر . وكانت والدة عروة ابنة أبي بكر ، وتدعى أسماء بحيث أن عائشة كانت خالته . وكان أخا عبد الله المطالب بالخلافة في

---

(١) تاريخ ج١ ، ١١٨٠ ، ١٢٣٤

الحرب الأهلية الثانية . وقد أيد حزب أخيه ، ولكنه سرعان ما انضم إلى الخليفة عبد الملك ، عند وفاة عبد الله ، وطلب باسم امه جثة أخيه لدفنها ، فاجيب إلى طلبه . ثم تصالح مع الحكومة الاموية وعاش بهدوء في مكة ، ويتراوح تاريخ وفاته بين سنتي ٩٣هـ و ١٠١ هـ .

ويقال بأن عروة كان أول من جمع المواد المتفرقـــة لسيرة محمد . وتؤكد مختلف الموضوعات في الواقدي (راجع فلهوزن) المقتبسة عنه أو التي جمعها بنفسه ، أنه قام بهذا العمل .

وتتعلق المواد المنسوبة اليه عند ابن هشام بالعائلات التي كان عـــلى اتصال بها . وهكذا نجد مواد حول جده لامه أبي بكر : ٢٠٥ ، ٢٤٥ ، ٣٢٧ ، ٣٣٣ ، ٦٥٠ (لمدح عتيق أبي بكر ، عامر بن فهيرة) ٧٣١ ، ١٠١٦ ، راجع الواقدي ١٦٧) ، ونجد فيها مقطعاً حول أبيه (٨٠٩) ، ومقاطع أخرى حول قبيلة أسد أو أشخاص موالين لها [1] . ويجب أن نذكر من بين هؤلاء عبد الله بن مسعود ، الذي آخاه محمد مع الزبير منذ وقت مبكر وترك أمواله للزبير وعبد الله بن الزبير . وربما اعترف أيضاً بزيـد بن حارثة على أنه حليف لقبيلة أسد . وكان عبد خديجة ، وربما عبد ابن عمها حكيم بن حزام ، كما كان لفترة من الزمن زوج خالة لعروة لأبيه هند بنت العوام [2] وكان عروة ، مهما كانت الأسباب ، يهتم بزيد وابنه أسامة [3] . ويقول الطبري عـن عروة ، إنه كان مـن بين الرواة الذين

---

(١) راجع الواقدي ، ١٨٩ ، ٣٧٦ (٢) ابن سعد ج ٣ ، ١ ، ٣٠ ، ٢٧

(٣) ابن هشام ٧٩١ ، ١٠٠٦ ، الواقدي ٢٣٨ ، ٣٣ ، ٣٧٤ ، ٤

قالوا بأن زيداً كان أول من اعتنق الاسلام من الذكور (وليس جده أبو بكر)[1] .

كل هذا يشير إلى أن عروة كان ينتمي لبيئة سياسية في الدولة الاسلامية وهي الحزب الحاكم أيام محمد ، والمؤلف من الثلاثي أبي بكر ، عمر ، وأبي عبيدة ، ثم حزب عائشة ، طلحة والزبير الذي عارض علياً سنة ٣٦ للهجرة ومعاوية معاً ، ثم الحزب المسؤول عن الثورة ضد الامويين من سنة ٦٢ ـ ٧٢ هـ . (وليست هذه الجماعات متماثلة بل يوجد بينها نوع من الاستمرار) . وليس من المستغرب إذن أن نجد بين المواد التي رواها عروة عناصر تجعل قبائل أمية هي المسؤولة عن معارضة محمد وأبي بكر وتظهرها بمظهر سيء ، ومن ذلك شكاوى محمد من مسلك بني عبد مناف نحوه[2] ، وقوائم المعارضين[3] ، وفظاظة أبي جهل ولجاجته للقتال[4] .

وليست القضية مع ذلك بهذه السهولة ، فقد كانت الجماعات القديمة تميل إلى الانفصال ، وقد بذل عبد الملك كل ما في وسعه لاستمالة رجل كعروة . وهكذا نعلم من ابن سعد[5] ، انه كان بين نساء عروة حفيدة

---

(١) تاريخ ج١ ، ١١٦٧

(٢) ابن هشام ٢٧٧ ، طبري ١١٩٩

(٣) ابن هشام ٢٧١ ، ٤٣٦

(٤) ابن هشام ٤٢٨ ، الواقدي ٥١

(٥) ج ٥ ، ١٣٢

لأبي البختري من قبيلته أسد ، وحفيدة للخليفة عمر (من عدي) . وامرأة من قبيلة أمية وأخرى من قبيلة مخزوم . ولا نعلم لسوء الحظ تواريخ هذه الزيجات . وإذا كان زواجه من المرأة التي هي من قبيلة أمية سابقاً على الحرب الاهلية ، فإنه يفسر لنا عطف عبد الملك . ونجد في المقاطع مقطعاً من صلاة عتبة بن ربيعة من عبد شمس [1] ، ولكن يمكن تكذيب ذلك بأن عتبة ، وإن كان من عبد شمس ، لم يكن من أمية بن عبد شمس .

يبدو أن هذه الوقائع تشير إلى أنه إذا لم يكن عروة معارضاً قوياً للامويين ، فإن عواطفه قد حملته إلى جانب المعارضة وإن تبدلت هذه العواطف بعد سنة ٧٢ هـ .

ولم يكن موقف عائلته التقليدي ، الذي أثر على روايته للوقائع ، إلا موقف العداء نحو الامويين . ولهذا نشك بأن روايته لرسالته إلى عبد الملك ، لم تكن خالية من التحزب ، وإن كانت صحيحة . ويزداد هذا الشك إذا علمنا أن بعض الأشخاص الذين رووا هـذه الرسالة كانوا يترددون على الاوساط القدرية المناهضة لبني أمية . وقد كان ابان بن يزيد يقول بالقدر أو حرية الارادة وكذلك عبـد الوارث بن سعيد والد عبد الصمد [2] .

ليس من غير المعقول إذن أن نعتقد بأن رسالته إلى عبد الملك تلح

(١) الوقدي ٥٠ (٢) ابن حجر ، تهذيب ، ج ١ ، رقم ١٧٥ ، ج ٦ ، رقم ٩٢٣

كثيراً ، لتفسير الهجرة إلى الحبشة ، على ضرورة الفرار من الاضطهاد ، الذي قامت به أمية وسائر القبائل المعادية عادة للجماعة التي تدور في فلك أبي بكر والزبير وعائلتيهما .

حتى ولو أن سياسة أبي بكر وأصدقائه قد ساعدت كثيراً عـــلى الهجرة إلى الحبشة فإن السنة العائلية والقبلية لا تثير الانتباه إلى هذه الواقعة التي لا يطمان اليها بينما تجد بين يديها وسيلة سهلة لتشويه سمعة الاعداء .

ملحق (و)

القوائم المختلفة

يجب علينا ، كي نفهم، طبيعة القائمة الاولى (AA) للذين ذهبوا إلى الحبشة ، أن ننظر في قائمتين ، قائمة الذين عادوا من الحبشة (R) التي يرددها كايتاني ، مع الاعداد ، عن ابن هشام [١] ، و قائمة الذين هاجروا للمدينة مع محمد (H) التي أستعملها أنا حسب رواية كايتاني [٣] .

يجب أن نلاحظ فيما يتعلق بـ (R) ان جميع الذين ذهبوا إلى الحبشة وحاربوا ، كمسلمين في بدر ، هم قائمة الذين « عادوا » إلى مكة ، ما عـــدا عياض بن ز هير (الحارث بن فهر) وشجاع بن وهب (عبد شمس) . والأخير منها لا نجده في قائمة ابن هشام عن المهاجرين ، ولهذا يمكن أن لا يكون قد عاد .

وقد حارب جميع الذين « عادوا » في بدر ما عدا أربعة : سكران (عامر) الذي توفي قبل هجرة محمد ، وثلاثة شباب صغار كان أهلهم

(١) حوليات ج١ ص ٢٢٨٣ (٢) ٢٤١
(٣) حولبات ج ١ ص ٣٦١ ، راجع ملحق ه

زعماء المعارضة لمحمد، سلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة (وكلاهما من مخزوم) وهشام بن العاص (سهم) الذين تروى عنهم قصة خضوعهم للضغط العائلي. وهكذا تكون القائمة (R) قائمة الذين كانوا في الحبشة وفي بدر.

ومن الاصعب تفسير القائمة (H)، لأنها لا تحتوي أسماء جميع الذين ذهبوا إلى المدينة قبل معركة بدر، والذين يظهرون في قائمة المهاجرين الذين كانوا في بدر. فإذا ما قارنا القائمتين نجد أن القائمة (H) تحذف أسماء ثلاثة من عبد شمس، واثنين من أسد وسبعة من زهرة، اثنين من تيم، أربعة من مخزوم، واحد من عدي، خمسة من جمح، ستة من عامر، سبعة من الحارث.

وهذا أمر محير جداً. فهل حذف هذه الأسماء مجرد حادث؟ أم ان هناك غاية من وراء ذلك؟ هل الاشخاص الذين حذفت أسماؤهم من القائمة (H) لا يعتبرون مهاجرين لأنهم هاجروا قبل هجرة القسم الأكبر أو بعدهم؟

يقال ان بعضهم قاموا بالهجرة بين العقبتين[1]. ولكن ذلك محاولة متأخرة لتفسير هذا التناقض. ويقال بأن عثمان بن مظعون ذهب إلى المدينة وأغلق بيت العائلة في مكة. ومع ذلك فهو لا يذكر في القائمة (H)، وهكذا يبدو ان القائمة (H) غير كاملة.

---

(١) نفس المرجع ص ٣٦٤، رقم ٣

وأول ما يمكن قوله عن القائمة (AA) هو أن كل شيء فيها موجود في القائمة (R) ومن المعزي أن نفترض ان القائمة (AA) هي قـــائمة باسماء الذين هاجروا إلى الحبشة ، واعترف بانهم هـــاجروا إلى المدينة أيضاً . غـــير ان معظم الذين كانوا في الحبشة ، وحاربوا في بدر ، وحذفت أسماؤهم من القائمة (H) حذفت أسماؤهم من القائمة (AA) والبديهة في ذلك غير قوية والتفاصيل هي :

الذين في قائمة AA ، و R و H ٨

» » » » وليسوا في » ٤ واحد بدون شك

» » AB و » وفي » ٤

» » » وليسوا في H ١٤

ومع ذلك فإن هذه البديهة ضعيفة ، وربما كانت الفرضية الاقرب هي أن القائمة AA ، كما قلنا ، هي قائمة بأسماء الذين قـــاموا بهجرتين . ويمكننا بعد ذلك أن نفترض انها كانت تعتمد على قائمة ناقصة بأسماء الذين هاجروا إلى المدينة وهي قائمة ناقصة كالقائمة H ولا تشبهها بأي طريقة والله أعلم كما يقول المسلمون .

ملحق (ز)

عودة المهاجرين

نظرنا في قائمة الذين « عادوا » (وحاربوا في بدر) غير ان ذلك يتعلق فقط بحوالي نصف المهاجرين إلى الحبشة . فما هي اخبارنا عن تاريخ عودة الآخرين ؟

نجد عند ابن هشام (٧٨١ ــ ٨) عدة قوائم . اولى هذه القوائم (SH) هي قائمة الذين صحبوا جعفر بن أبي طالب في « السفينتين » وانضموا إلى محمد سنة ٧ هـ . ويبدو ذلك صادقاً فيما يتعلق بالذكور الستة عشر البالغين .

وهذا ما نريد الاشارة اليه هنا . ونجد بعدئذ في ص ٧٨٧ أسماء الرجال السبعة الذين توفوا في الحبشة وهذه الاسماء مذكورة في القائمة السابقة بصدد أسماء الرجال الأربعة والثلاثين الذين لم ينضموا لمحمد في مكة ولم يحضروا معركة بدر ولم يعودوا في « السفينتين » . وهذه مجرد قائمة جمعت فيها أسماء كل الذين كانوا في الحبشة والذين لا نعرف شيئاً

مؤكداً عن عودتهم . ويمكن تسمية قائمة السبعة والعشرين الذين رجعوا أحياء بالقائمة (X) .

ولا نملك أي تفاصيل بصدد ٢٢ من هؤلاء الـ ٢٧ تمكننا من التحدث عن عودتهم ، ويقال بأن بعضهم اشترك في معركة الطائف والحوادث اللاحقة ، ويمكن أن يكون بعضهم قد بقي في الحبشة بعد مغـــادرة جعفر لها .

وقد ثبت نهائياً أن أربعة منهم حضروا معركة أُحد : قيس بن عبد الله (حليف عبد شمس) ، أبو الرُّم بن عمير (عبد الدار) ، أبو قيس بن الحارث (سهم) وسليط بن عامر (عامر) . وهؤلاء إما أن يكونوا قد عادوا رأساً من الحبشة إلى المدينة ، وإما أن يكونوا قد عادوا أولا إلى أهلهم في مكة ثم غادروها إلى المدينة وهو الأقرب .

وهناك أخيراً الحجاج بن الحارث بن قيس ، أو الحارث بن الحارث وإذا تمكنا من التعرف على هذين الشخصين ألفينا أنفسنا في وضع غريب وهو أن الحجاج أسر في معركة بدر ، في حربه ضد المسلمين . يذكر ابن هشام فقط الحارث في قائمة AB وقائمة (X) كما يذكر الحجاج على أنه أسر ، بينما يقول ابن سعد [١] ان الحجاج كان في الهجرة الثـــانية للحبشة ولا يذكر الحارث . ويقول ابن حجر [٢] انـ عدة رواة ومن بينهم ابن اسحق يذكرون انه ذهب إلى الحبشة ، كما يلاحظ بأن بعضهم يقول بأنه لم يُسلم إلا بعد أسره في بدر .

---

(١) الاصابة ١ ، رقم ١٦٠٨

وهكذا يبدو ان ابن هشام قد صحح قائمة ابن اسحق ضمنياً (AB) حول هذه المسألة لأنه إذا كان قد أسر في بدر لا يمكن أن يكون قـــد ذهب كمسلم إلى الحبشة . ولكن هل هذا مستحيل ؟ ألا يمكن أن يكون قد ارتد عن الاسلام بعد الهجرة ؟

أولا يمكن أن يساعدنا ذلك على تفسير بعض الاضطراب في المصادر (التي لا تذكر شيئاً عن الحارث إلا وذكرته عن الحجاج) .

وهكذا تبدو الشخصيات باهتة والبديهة غير واضحة ، مما يبدو معه من غير الحكمة الالحاح على ذلك . ومـــن المهم أن نذكر انه يمكن أن يكون بعض المهاجرين إلى الحبشة ، حتى من بين الذين حاربوا في أحد، قد تخلوا عن محمد زمناً وانضموا إلى معسكر أعدائه . وقد كان مثل هذا الارتداد ، في نظر العلماء المسلمين المتأخرين ، – كما يظهر عند ابن حجر – شيئاً غير معقول . ولهذا ربما قضوا باخلاص على كل آثاره إذا ما وجدت . وتظل قضية الحجاج بن الحارث على أنه مـــن بني سهم شيئاً يدعو للتفكير . كما أن القول بأن يزيد بن زمعة (أسد) ، والسائب بن الحارث (سهم) قد وجدا في الطائف ولا شيء قبل ذلك يشير نوعاً ما إلى أنهما كانا في مكة مع الكفار حتى استسلموا لمحمد .

فهرست الكتاب



محمد في مكة

لقد تغير اهتمام العلماء وموقفهم كثيراً خلال نصف قرن تقريباً ، منذ مؤلفات كايتاني وبهل عن حياة محمد .

ويقوم هذا الكتاب ، الذي يبحث في القسم الاول من حياة محمد ، على عرض جديد للمصادر من وجهة نظر المؤرخ الذي يعيش في منتصف القرن العشرين .

ولقد اهتم خاصة بالارضية الاقتصادية والاجتماعية وعلاقتها بنظريات القرآن الدينية . ولهذا يؤمل ان يؤدي الى تقدير حق لهذا القائد العظيم اكثر في الغرب مما مضى .

ويجعلك هذا الكتاب تشعر بأنه كتبه رجل عاش بالخيال تجربة محمد في مكة اكثر من اي كاتب سابق ، يضاف الى ذلك تنظيمه الدقيق لمواد البحث الذي يعتبر اضافة جديدة قيمة لدراسة أصول الاسلام .

المستشرق السير هاملتون جب



الثمن :